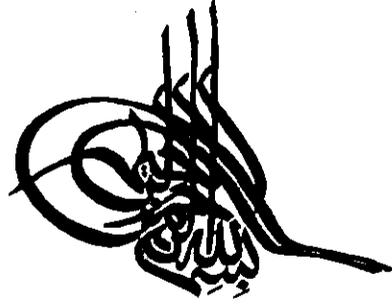


بشار بن برد

الشخصية والفن



بنتار بن برد

الخطابية والفن

د. إبراهيم عوض

دار الفردوس

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

سنة الإصدار
٢٠١٠ / ١٧٥٠٧

إهداء

إلى روح جدتي لأُمِّي ، التي كفلت وربّت وأعطت كل
شياء ، ولم تأخذ شيئاً . رحمها الله رحمة واسعة ، وكتب
لها جنّة الخلد .

مقدمة

فى الصفحات التالية دراسة لبشار : شخصيته ، وعقيدته ، وما رُمى به من الشعورية، وشعره وخصائص أسلوبه الفنى ، وما قيل إنه كان رائداً فيه فى هذا الأسلوب .

وفى هذه الدراسة تفصيلاً لبعض ما أجمله غيرى من الذى سبقونى إلى دراسة بشار، وإضافة له ، واستدراك على أشياء قيلت فى الشاعر وفى شعره ، وتحقيق لنسبة قصيدة أسندت إليه وإلى غيره فى الوقت نفسه ، ومحاولة لتقويم شعره فى ظلّ اختلاف الدارسين حول ذلك الشعر ، إذ يرفعه بعض إلى درجة عالية ، ويكتفى آخرون بالقول إن فى شعره جيداً كثيراً ، مع سوق حيثيات هذا التقويم مفصلة .

ومن الفصول التى فصلت القول فيها الفصلُ الخاص بعقيدته ، فقد استغرق بضع عشرات من الصفحات سقت فيها كل الآراء التى قيلت فى دينه والانتقادات التى وجهت إليه وما دُفع به عنه ، ثم ناقشت كل هذا فى ضوء المعطيات التاريخية وما نعرفه عن شخصية الشاعر ، بالاستعانة بكل ما يتصل بهذه القضية من شعره .

ومن هذه الفصول أيضاً ذلك الفصل الذى تناولتُ فيه خصائص شعر بشار ، فقد نُبّهت إلى كثير من سمات فنه التى لم ترد فى كتابات من رجعت إليهم . وفى كثير من الأحيان لم أكتف بهذا، بل تتبعت هذه السمات عند من سبقوا بشاراً من الشعراء من العصر الجاهلى فنزلاً . وأحياناً ما كنت أجد عن طريق هذا التقصى التاريخى أن ما قيل فى ريادته فى هذه السمة أو تلك غير صحيح ، فكانت أدبته إلى ذلك وأدبته .

وثمة فصل جمعت فيه الملاحظات اللغوية التى خرج فيها بشار عما هو شائع أو خالف شيئاً من قواعد اللغة السائدة وحللتها وبينت الرأى فيها بشيء غير قليل من التفصيل .

وبالنسبة لقصيدته الثانية المختلف فى نسبتها إليه وإلى غيره فقد توصلت من

خلال التحليل الأسلوبى والمضمونى لها أنها لبشار لا لغيره ، إذ يتوفر فيها عدد غير قليل من خصائص الشعر البشارى . ولم أجد أحدًا درس هذه المسألة من قبل .

أما بالنسبة لتهمة الشعوية التى رُمى بها ، وأن موقفه من العرب والموالى قد انقلب رأسا على عقب بعد قيام الدولة العباسية التى رفع فيها الموالى رؤوسهم فقد بينت أننا لا نعرف هل بدأ بشار الهجوم على الأعراب والانتخار بأصله الأعجمى فى العصر العباسى أو كان ذلك فى أيام بنى أمية .

وأخيرا أدعو الله أن ينفع بهذه الدراسة .

حياة الشاعر وشخصيته

هو بشار بن بُرْد بن يرجوخ (١) ، وإن كان الشيخ محمد الظاهر بن عاشور ينفرد وحده ، فيما نعلم ، بالقول بأن يرجوخ هو نفسه اسم بُرْد قبل أن يسلم ، وأنه إذا كان اسم يرجوخ يُدْكَر بعد اسم بُرْد فذلك على البدلية لا على الأبوة (٢) . ولكن الشيخ ابن عاشور لا يسوق للأسف دليلاً على هذه الدعوى ، التي يخالف فيها كل من ذكر نسب بشار ، علاوة على أنه يُقال : « برد بن يرجوخ » لا « برد يرجوخ » .

وقد أورد صاحب الأغاني سلسلة طويلة لنسب الشاعر ، عن غيلان الشعوي ، مكونة من نيف وعشرين حلقةً وتنتهي ببعض ملوك فارس . كما أورد رواية أخرى عن حميد بن سعيد تؤكد ذلك . ولم يعقب على هذا النسب بما يفيد رأيه فيه . وليس أبو الفرج بدعاً بين الأقدمين في عدم تعقبه على ذلك النسب البشاري الملوكي ، إذ لا نعرف أحداً منهم قد شكك فيه .

على أن الأمر بالنسبة للباحثين العرب المحدثين مختلف ، إذ فيهم من يرفض هذا النسب ويعده من اختراع الشعويين لتمجيد الأعاجم من أمثالهم . وحجتهم في ذلك أنه لم يعرف عن الأعاجم الاهتمام بأنسابهم كالعرب ، وبخاصة إذا طالت سلسلة النسب وغطت قرونا طويلة ، كما هي الحال مع بشار . فضلا عن هذا فقد كان بشار ، كما يقولون ، مثلونّ الولاء ، فتارة كان يفتخر بولائه في قيس وبنى عقيل ، الذين كان أبوه عبداً فيهم فأعتقوه ، وتارة كان يفتخر بأصله الأعجمي ويهجو العرب ويتبرأ منهم (٣) .

وبطبيعة الحال ، فإن النفس تميل إلى هذا الفرض حين تنظر فتري أن أبا بشار كان طيانا فقيرا ، وكان فوق ذلك عبداً هو وزوجته ثم أعتقا ، إذ إن الإنسان ليتسائل : ما للعبيد الطيانيين والملوك ؟ ولكن التفكير العقلي لا يأبى أن يكون من ذراري السلاطين والملوك والخلفاء والباطرة من ينتهي بهم الأمر إلى أن يشتغلوا مثلا

كناسين وخدمًا بل ومن تُضَرَّب عليهم العبودية ، مثلما يخبرنا التاريخ أن كثيرًا من عواهل الدُول هم من نسل جنود مرتزقة ، بل إن كافورًا الإخشيدي مثلًا ، وقد حكم إمبراطورية غير صغيرة ، كان عبداً خصيًا .

ثم إننا ينبغي ألا ننسى أن بشارا وحده ، دون نظرائه ، هو الذى كانت له هذه السلسلة . ولو كان الشعوبيون قد صنعوها لتمجيد الأعاجم فلماذا لم يصنعوا مثلها لغيره من مشاهيرهم ؟

وفوق ذلك ، فإن الرجل فى شعره كثيرًا ما وضع نفسه بإزاء الملوك : إما بوصفه واحدًا منهم ، أو مناظرًا لهم ، أو متحديًا إياهم ، أو مستنكفًا أن يكون عليه سلطان لأحد منهم ، أو زائرًا وجليستًا من جلسائهم ... وهكذا ، ممّا سأستعرض شواهده فى موضعه من هذه الدراسة .

وليس شرطًا ، إن صحَّ هذا النسب ، أن تكون سلسلته صحيحة كلها . كل ما هنالك أن أسلاف بشار ربما كانوا يعرفون أنهم يتصلون بنسب ملوكى فحفظوا ذلك وتوارثوه . وربما كانوا يعرفون أسماء بعض الأجداد الذين يصلون بينهم وبين ذلك النسب . ومن الجائز جدا أن الذاكرة قد ملأت الفجوات فى هذه السلسلة ببعض الأسماء كيفما اتفق . هذا كل ما هنالك .

أمّا ذهاب د نجيب البهيتى فى اتهام الشعوبية إلى الحلة الذى يصوّرها وكأنها قوى خارقة تستطيع أن تصل إلى أى شىء وتدمره وتعيد صياغته من جديد فهو إغراق شديد فى التخيل ، إذ يقول إن الشعوبية قد لعبت بالحذف والزيادة فى كتب الجاحظ ، حيث لا يُستَبَد أن تكون قد دسّت فيها على مؤلفها كلامًا طيبًا فى حق بشار (٤) . إن بشارًا ، وهو مجرد شاعر أعمى فقير ، لم يكن ليدفع الشعوبية ، لو كانت فعلاً بهذه القدرة التى لا يعجزها شىء ، إلى أن تفعل من أجله هذا ، إذ لم يكن مثلاً زعيماً سياسياً أو قائداً عسكرياً يخططون له أن يخطف الملك من بنى العباس . ثم

هاهم أولاء البرامكة ، بكل هيلهم وهيلمانهم ، قد سقطوا بضربة واحدة من معول الرشيد . فمن يكون بشارًا بالنسبة لهم ؟

وكان برد أبو بشار عبدًا رقيقًا ، وكذلك أمه ، التي يسميها حماد عجرد في بعض أشعاره « غزالة » (٥) ، ثم أعتقا . كما كان ذلك الأب ، مثلما سلف القول ، طيئًا . وتذكر الروايات أنه كان لبشار أخوان معوقان يشتغلان بالجزارة هما بشر وبشير ، وكان أحدهما أعرج والآخر أتر . وكان بشار بارًا بهما ، إذ كان يتركهما يلبسان ما يشاءان من ملابسه رغم ما كان يعانيه من جراء ذلك ، عندما يلبسها بعدهما ، من وساخة وتتن ، مما كان ينتفسه عن نفسه بالتهكم الظريف ، إذ كان يقول عن ذلك إنه « شمة صلة الرحم » (٦) .

وقد تزوج بشار . ومع ذلك فلنا نجد ذكرًا لزوجته في شعره الذي بين أيدينا ، وإن كنت أظن أن قصيدته الدالية ربمًا تكون في رثاء تلك الزوجة ، وليس في رثاء امرأة أخرى كما جاء في الديوان (٧) . ولبشار رثاء في ابن له اسمه محمد (٨) ، وهو رثاء مؤثر ، وإن كان لا يصل إلى روعة رثاء ابن الرومي لابنته الأوسط . كما أن له رثاءً قويًا أيضًا في ابنته له (٩) . ولعلها نفس ابنته التي فاخرتها إحدى الأعرابيات فاشتكت لآبيها فأنشأ قصيدة هجائية فيها . ومع ذلك فإننا نسمع بابن له آخر (واسمه محمد كذلك) في عصر العباس بن الأحنف ، يأخذ الأدباء والعلماء عنه شعر أبيه ويتقربون إليه من أجل ذلك (١٠) . فإذا صح هذا كان معناه أن بشارًا ، بعد أن مات ابنه محمد ، قد وُلد له ولد آخر فسماه بنفس الاسم .

وقد وُلد بشار أعمى (١١) . ومع ذلك فقد ذكر ابن المعتز أنه أصيب بالعمى قبل أن يموت بأربعين عامًا (١٢) . ولا أدري من أين أتى ابن المعتز بهذا ، فإن بشارًا نفسه يقول :

عميت جنينا ، والذكاء من العمى فجنستُ عجيب الظن للعلم موئلا

وهو ، كما ترى ، كلام قاطع الدلالة على أنه قد نزل من بطن أمه أعمى . وقد كان

شعره هذا ردًا على معاصريه الذين كانوا يعجبون من إبداعه في صورته وتشبيهاته رغم أنه لم ير الدنيا قط (١٣) . كذلك فإن أبا هشام الباهلي قد هجاه بقوله :

وعبدى فقا عينيك فى الرّحم أيرّة فجنّت ولم تعلم لعينيك فاقيا (١٤)

وهو ما يشير بكل وضوح إلى أنه قد وُلد بعاهة العمى ، لا كما يقول ابن المعتز من أنه عمى بعدما كبر . وقد أجمعت الروايات على أن عماء كان من النوع المنقّر ، وأنه كان ضخم الجثة طويلا (١٥) .

وكان بشار معتدًا بنفسه أشدّ الاعتداد : يظهر ذلك فى فخره ، سواء افتخر بمواليه أو افتخر بأصله الفارسى . كما يظهر فى هجائه لمن كان يتعرض لأصله الأعجمى من الأعراب . وأيضا يظهر هذا الاعتداد فى كثرة إشادته فى قصائده بموهبته الشعرية ، على ما سوف نبين فيما بعد ، وكذلك فى أبياته التى يجيب بها من سألوه عن تأثير عماء على مواهبه العقلية والأدبية التى سقنا قبل سطور أول بيت فيها . وحتى فى غزله نراه ، على ما سوف نوضح فى موضعه من الكتاب ، يصوّر حبايبه على أنهن ربيبات القصور والترف ، بل إنه وصف إحداهن بأنها من « بنات الملوك » ، وهذا غير مسامتته كثيرا للملوك فى شعره ، كما سبقت الإشارة فى هذا الفصل وكما سوف نسوق عليه الشواهد فيما بعد .

وكان بشار ، ككثير من المعتدين بذواتهم ، صريح النفس لا يعرف المداورة والمداورة ، وذلك على عكس ما وصفه به د . طه حسين ، إذ اتهمه بالنفاق بل بالإسراف فيه . ودليله أنه كان زنديقًا ملحدًا ، ومع ذلك كان يتظاهر أمام الناس أنه يرى رأيهم . كما أنه قد مدح الأمويين أيام أن كان السلطان لهم ، ثم استدار مع الزمن ومدح العباسيين عندما أصبحت الدولة دولتهم (١٦) . وقد ردّد حنا الفاخورى هذا الاهتمام وراء د . طه (١٧) .

على أن طه حسين لم يكتف برمى بشار بالنفاق ، بل ادعى عليه أيضا الجبن

والأثرة ، إذ رآه يخاف من ضرب السوط والسيف ، ويخاف ممن يتعرض له بالهجم ، وقال إنه كان يبغض الناس ويزدريهم ويؤثر نفسه عليهم (١٨) .

فأما الزعم بأنه كان ينافق فى عقديته فقد فصلنا القول فيه تفصيلا شديداً فى فصل خاص بهذه المسألة من هذا البحث ، وبيّنا أن مثل بشار بصراحتة وردوده السريعة الحادة لا يمكن أن يكون منافقا . وكيف يكون منافقا من يسأله خال الخليفة عن صناعته عندما رآه ينشد بين يدي المهدي إحدى مدائحه فيه فينطلق كالقذيفة ساخرا متهكما غير مبال بقرابته من الخليفة ولا بالموقف والحاضرين قائلاً ، وهو الأعمى ، إن صناعته هى ثَقْبُ اللؤلؤ ؟ ثم عندما يبدي الخليفة استنكاره لاستهزائه بخاله أمام الملأ لا يعتذر ولا يحاول أن يلطّف الأمر ، بل يمضى فى تهكمه قائلاً ما معناه : وماذا عسانى كنت أقول له وهو يبرى شيئاً أعمى ينشد الخليفة شعراً ثم يسأله مع ذلك كله عن صناعته ؟ (١٩)

أو كيف يمكن أن يكون منافقا من يرى أحد موالى الخليفة المهديّ يفسّر النحل والعسل فى قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرّشون * ثم كُلى من كل الثمرات فاسلكى سُبُلَ ريك ذُللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » (٢٠) بأن النحل هم بنو هاشم ، وأن ما يخرج من بطونها هو العلم الذى اختصهم الله به ، فيرد عليه بكل عنف وهو فى قصر المهديّ فى جمع من الحضور ينتظرون الإذن بالمشول بين يدي الخليفة قائلاً : « أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غثائفة » (٢١) ؟

أو كيف يكون منافقا من ينقلب على الوزير المقرب إلى الخليفة ، يعقوب بن داود، عندما لا يعطيه ما كان يؤمّل منه ، فيهجوه هو وأخاه هجاءً مرا ، بل وشَفَعَهُما بالخليفة عندما يصرّ على إغلاق باب القصر فى وجهه بعد أن كان يُدنيه منه

ويتخذة نديماً فى أحلى ساعات سمره بين جواربه ، فيقول فيه بيتين مفحشين كانا هما ، فيما نرى ، سبب مقتله ، ولا يكتفى بهذا بل يأبى إلا أن يذهب إلى حلقة أحد النحويين ويتشدهما على مسامع من حضر ؟ وقد كان يستطيع أن يكتفى بنظمهما تنفيساً عن غيظه ، ولكن طبيعته الصريحة دفعته دفعا إلى هذه الخطوة التى أدت إلى أن يبلغ البيتان أذن الخليفة فيأمر بقتله كما تقول الرواية (٢٢) . وغير ذلك من التصرفات والمواقف التى تبين بقوة أن الرجل لم يكن منافقا .

ولو كان بشار يحسن النفاق لنزل على إرادة المهدي لَمَّا أمره أن يكف عن التشبيب بالنساء . ولكنه ظل ماضيا على ما كان عليه من قبل من تشبيب بهن . كل ما فعله أنه فى كل مرة يريد أن يتغزل كان يذكر نهى الخليفة له ثم يقول إنه لا يملك أن يعصى له أمرا ثم يأخذ فى الغزل رغم ذلك ملء كفايته .

أما أنه كان يخاف من السيف ومن السوط ، فباللَّه مَنِّ مَنَّا ، كما يقول د. النويهي بحق (٢٣) ، لا يخافهما ، وبخاصة إذا كان كبشار أعمى لا حول له ولا طول ولا عصبية تدرأ عنه عدوان العادين ؟

هذا ، ولم يكن بشار يخاف من الهجاء إذا صدر عمن يساويه مكانة بين الناس . ولكنَّه أمام أبيات عارية تافهة لأبى الشمقمق ، الذى كان يأتيه بين الحين والحين ماذا يده فيعطيه بشار مما أعطاه الله ، أثر السكون مفضلا أن يعالجها بالعلاج الذى يعرف أنه جد ناجع مع أبى الشمقمق . ألا وهو حفنة من الدراهم (٢٤) . إن الإنسان مَنَّا ، فى الوقت الذى يستقتل فيه فى الدفاع عن نفسه ضدَّ السنة من هم فى مثل مكاتته الاجتماعية ، يستنكف أشد الاستنكاف أن يردَّ على سباب بوابٍ أو كناسٍ أو سائق حنطور مثلاً .

وينبغى أن نفسَّر بمثل هذا التفسير تراجع بشار أمام أحد المصورين الذى تهدده بأنه إن هجاه فسوف يرسمه كما هو بعماه ووراءه قرد يفعل فيه (٢٥) ، إذ ماذا كان

بشار يستطيع أن يفعله أمام هذا التهديد ، لو صحت الرواية ؟

وشبيه بهذا موقفه من الرجل الذى تعرّض له ، وهو فى ظل قصر من القصور وحده لا به ولا عليه ، فتحكك به وآذاه بذكر عماء وأمه وسبه سباً مؤلماً . ولمّا حوى غيظ بشار وأخذ يتسامل عمن يكون الرجل كان ردة عليه أنه من عكّل (وهى قبيلة مشهورة بالحقارة والغباوة) وأن خاله يبيع الفحم بالمكان الغلاتى (وذكر مكاناً يبدو أنه منطقة حقيرة) ، ثم سأله هل يقدر بعد هذا كلّه أن يقول فيه شيئاً . يقصد : ما الذى يستطيع أن يقوله فيه أكثر مما صبّه الله عليه من نسبة الوضيع وصناعة أهله القنرة ؟ فما كان من بشار إلاّ أن أنهى الموقف بتلك القولة الرائعة بعدما فُشّ غليله : « لا شيء . اذهب ، أبى أنت ، فى حفظ الله » (٢٦) . وفى رواية أخرى مشابهة كان ردة على من شاغبه : « اذهب ، ويلك ! فأنت عتيق لؤمك . قد علم الله أنك استترت منى بحصون من حديد ! » (٢٧) . وماذا كان يمكن أن يرد به على هذا الأحقق اللامبالى غير هذا ؟

أما مدحه الأمويين عندما كانوا هم ذوى السلطان ثم دورانه مع الأيام ومدحه العباسيين عند استيلائهم على الحكم فهو لم يكن فى هذا إلا واحداً من شعراء عصره ، لا صاحب مذهب يتنكر له عندما تبرق مصلحته .

كذلك كان بشار يحب أصدقاءه ويمازحهم ويمازحونه كثيراً . وله أخبار وأشعار تدل على ذلك الودة الشديد الذى كان يربط بينه وبينهم ، وإن كانت صداقته لحماذ عجرد قد انقلبت للأسف مع الأيام هجاءً مقذعاً مؤلماً يهجو كل منهما به الآخر . وفى ديوان بشار أبيات من قصائد مختلفة تدعو إلى ترك عتاب الإخوان والأصدقاء والتسامح معهم وتقبّلهم على ما هم عليه ، لأن من فتش عن الكمال فلن يجده ، ومن يعاتب خلانه فى كل أمر يدعو إلى العتب فسوف يتلفت فلا يجد من لا يستطيع له عتاباً ، إذ إن مثل هذا الشخص لا وجود له . كما أن له شعراً فى حاجة الإنسان دائماً إلى

صديق بيته آلامه ويفضى له بذات صدره حتى يستريح . وهذا لعمرى دليلٌ على حب الأصدقاء ، والمغالاة بهم ومعرفة قيمة الصداقة في صحراء هذه الحياة القاحلة المحرقة . وكان بشار فكهاً ، وفكاهته من أمتع ما يكون . فحتى الفاحش منها يدل على حضور الذهن وسرعة الردّ المنغم والمقدرة العظيمة على إدراك المفارقات ومناحي السخرية فى طبائع البشر ومواقف الحياة .

وقد مرّ بنا ردةً على خال الخليفة حين رآه ، وهو الأعمى ، ينشد ابن أخته شعراً فسأله ما صناعته . كما مرّ بنا تهكمه الواخز بمن فسّر النحل وما يخرج من بطونها فى سورة « النحل » بأنها بنو هاشم وعلمهم . وكذلك مرّ بنا تعليقه على ما كان يلطخ أخواه به ملابسه من دماء وأوساخ بأن ذلك هو « ثمرة صلة الرحم ! » . ومن فكاهاته قوله لمن سأله معابثاً ، وكانا بالمسجد الجامع : « يا أبا معاذ ، أيعجبك الغلام الجادل ؟ » فقال : « لا ، ولكن تعجبنى أمه ! » (٢٨) .

ولكن بشاراً ، للأسف ، كان يتهدى إلى الهجاء المقذع والكلام السافل لا يجد فى ذلك لا هو ولا أصدقائه أو مهاجوه أى حرج . ويودّتا لو أنه استعلى على هذا العيب . ولكن ماذا نفعل ، ولله فى خلقه شؤون ؟

وقد أخذ عليه أنه كان شعوبياً يهاجم العرب ويهجوهم ويحقّرهم . والحق أن له فعلاً أكثر من قصيدة يفتخر فيها بأصله الفارسى ويقارن بين عيشة الفرس المتحضرة المترفة وبين الحياة البدوية الجلفة وجوع أهلها وطعامهم الغليظ المتوحش . ولكن هذه القصائد إنما أثاره إليها بعض أجلاف الأعراب الذين كانوا يشمخون عليه لمجرد أنه من الموالى ، فكانوا يظنون أن كونهم عربياً بالدم يُحل لهم أن يتكبروا على بشار وأمثاله رغم أنهم لم يُرزقوا شيئاً مما حياه الله به من علم ومواهب أدبية . فبشار إذن لم يعتد عليهم ، وإنما كانوا هم المعتدين . كذلك فإنه لم يسئ إلى العرب ، وإنما قصر هجومه على البدو الأجلاف ومعيشتهم الجافية .

وإذا كان قد تبرأ من ولاته للعرب في بعض قصائده فإن أحداً لم يقل إن هذا الولاء واجب ديني أو نظام حضاري حتى يُرْمَى كل من يخرج عليه أو يدعو إلى نبذ بما رُمى به بشار . إن الله قد خلق البشر ، عرباً وعجماً ، متساوين كأسنان المشط ، وليست عروية العرب بالتى تقربهم عند الله زلفى ، ولا أعجمية الأعاجم بالتى تباعد بينهم وبينه عز وجلّ . وإذا كان العرب قد تجاوزوا الحدّ المعقول في معاملتهم للموالى فثار بعضهم ، ومنهم بشار ، على هذا النظام فالذنب ذنب أجدادنا العرب ، لأنهم لو كانوا احترمو الآخرين لاحترمهم الآخرون .

وعجيب أمر بعض الباحثين الذين يربطون بين الاستكانة للعرب والإيمان ، بحيث إن من يشور من الأعاجم عليهم وعلى عنجهية بعضهم يعدّ عند أولئك الباحثين من الذين في قلوبهم مرض وفي دينهم نفاق . هذا ، علّم الله ، ظلّم شديد . فالإسلام لا يتطابق دائما مع العروية . صحيح أن لغة كتابه هي العربية ، ورسوله عليه السلام عربى ، والذين حملوا رايته في غزوات الجهاد الأولى أغلبهم عرب . لكن ذلك الكتاب وذلك الرسول قد دَعَوْا بلسان قوى مبين إلى نبذ العصبية العرقية وأكدوا أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح . فهل يعقل أن نرتد على أعقابنا ، وننسى هذا كله ، ونذهب نعظّم من شأن العرب لا لشيء إلا لمجرد أنهم عرب ، ونعتقد أنه يجب على الأعاجم أن يصبروا على أى خسفٍ أو تحقير ينزل بهم لا لشيء إلا لأنه قد وقع من العرب ؟

وقد طارت شهرة بشار كل مطير على أساس أنه يحرض في شعره على الفجور والتهاك وأن نساء البصرة وشبانها قد استهتروا بسبب ذلك أيما استهتار . وكان وعاظ تلك المدينة ينددون به وشعره (٢٩) . .

والواقع أن شعر بشار الغزلى هو فى عمومه شكوى من الهجر والحرمان والسهاد وتذلل للحبيبة . وأقصى ما يتناوله بشار فى شعره من وصف جسد المرأة التى يشبب

بها ... ديبها الذى يشبهه فى حلاته بالرياض والشباب الموشاة أو بالخمير المسكرة ، أو ريقها الذى يصفه بأن طعمه طعم التفاح أو الراح ، أو أردافها التى لا يخرج ذوقه فيها عن ذوق الشعراء العرب القدامى ، إذ هى دائما أرداف ضخمه ... ثم لا شئ غير ذلك .

صحيحٌ أن له الرائية التى يصور فيها ما كان بينه وبين فتاة صغيرة السن قليلة التجربة فيما يبدو . ولكن ليس فى هذه القصيدة إلا الحديث والنظر وقبلة فى خلال ذلك وعضة فى الذراع والشفة . بيد أن الطريقة التى صاغ بها بشار قصيدته تجعلها تفوح بما هو أتم من ذلك وأفجر . ومع ذلك فليس فيها شئ مما نجده عند امرئ القيس أو عمر بن أبى ربيعة أو مطيع بن إياس . إننا هنا لا ندافع عن الإثم ، ولكننا نريد أن نضع غزل بشار فى موضعه الصحيح بين غزل الشعراء الآخرين دون أن نجحف به . ذلك أننا نرى أن سمعته أشنع من شعره كثيرًا جدا . أقصد شعره الذى بلغنا ، فهو وحده الذى نستطيع الحكم عليه على أساس منه .

والى جانب الرائية هناك أبيات لا تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة يصف فيها عضوه التناسلى ومقدرته الجنسية ، وهى أبيات تدل على سخف ذوقى شديد ، وبخاصة من شاعر مشهور كبشار . ولكن كثيرًا من الشعراء ، كما قال فيهم القرآن الكريم ، هم فى كل واد يهيمون ، وغاؤون لا يتبعهم إلا الغاؤون .
ومثلها أبيات قليلة فى وصف متاع إحدى النساء .

وأغلب الظن أن سمعة بشار السيئة فى هذا المجال قد ارتبطت أكثر ما ارتبطت بزيارات بعض النسوة له فى بيته (٣٠) وأبيات جد قليلة فى التحريض على متابعة الدقّ على باب قلب المرأة حتى ينفتح ، ولا بد فى رأيه من أن ينفتح مهما بدا الأمر فى أوله عسيرًا مؤنسًا . ولكن كم من الشعراء قد قال هذا وأشنع منه ولم يشتهروا شهرة بشار السيئة !

إنما فحش بشار وإقذاعه موجودان ، لمن يريد البحث عنهما ، فى هجائه مع حماد وأبى هشام الباهلى ، ذلك الهجاء الذى لا يورى فيه ولا يتلطف ، بل يقذف به كما تقذف المجارى بنتنها وعفنها ، متلمظا بالألفاظ الدالة على السوءات والجماع دون أدنى وازع من حياء ، وإن كان الحق يقتضى أن نذكر أن مهجوتّه كانا لا يقلان عنه عنفا وفحشا فى هجائهما له . بل إن حمادا هو الذى بدأ بالفحش فاضطره إلى أن يرد عليه بالمثل (٣١) . ومع ذلك فلم يهتم القدماء الذين شنّوا عليه بهذا الجانب فى شعره ، بل ركزوا كل هجومهم على غزله .

وقد اتهم بشار بالزندقة والإلحاد . وتعزو بعض الرويات قتل المهديّ له إلى هذا السبب ، ولكن يغلب على ظنى أنه إنما قتله لهجائه إياه ببيتين شنيعين . وكان بشار حينذاك قد نيف على السبعين . وبعضهم ينزل به إلى الستين (٣٢) . وسوف ندرس هذه القضية فى فصل خاصّ بها .

وكان بشار يعيش على ما كان يأتيه من ممدوحيه أو ممن يخشون حُمة لسانه ، التى كان يتهددهم بها . وكان من ممدوحيه الخليفة العباسى المهديّ ، الذى قرّبه إليه زمنًا حبًّا فى صحبته وخفة روحه وحلاوة سمره وظرف منطقته وشعره . وبلغ من تقربه إياه أنه كان يُحضّره مجالسه الليلية مع جواريه ، اللاتى كن أيضا يشغفن بظله الخفيف ويتمنين على الخليفة لو كان أباهن حتى يبقى معهن على الدوام ، فيجيبهن الشاعر الخبيث قائلاً : « ونحن على دين كسرى » ، مشيرًا إلى أنه حتى لو كان والدهن فلن يمنعه ذلك أن ينال منهن ما يريد (٣٣) .

ويشار من مخضرمى الدولتين . وقد توفى سنة سبع أو ثمان وستين ومائة (٣٤) .

وكان يكتئى بأبى معاذ ، ويلقّب بالمرعّث . وقد اختلفوا فى سبب تلقيبه بذلك . ورَبِّما كان هذا راجعًا إلى أنه كان يلبس الرِّعَاط فى صغره ، أى القُرْط (٣٥) . وأيا ما

كان السبب الصحيح فإننا نراه يكثر فى شعره من تسمية نفسه بـ « المرعَّث » ، ونحسُّ فى هذا التسمّى برنة الفخر والعُجب . ولم ألاحظ أنه تسمى فى شعره بـ « بشار » إلاّ ثلاث مرات . ولم يحدث أن استعمل فى ذلك الشعر كنيته ، لا على لسانه هو ولا على لسان الآخرين أو الأخرىات ، كما هو الحال بالنسبة لاسم « المرعَّث » .

ولبشار ديوان شعر كبير لم يصلنا منه إلا إلى آخر حرف الراء ، مع بعض المقطوعات والأبيات المتفرقة التى استطاع الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ناشر ذلك الديوان ومحققه أن يظفر بها من بطون المظان المختلفة . ولكننا لا نصدّق أن شعره بلغ ما رُوى أنه ادعاه ، وهو اثنا عشر ألف قصيدة أو أكثر على ما سوف نبين فيما بعد ، فذلك أمر غير معقول .

الهوامش

- ١- الأغاني / مؤسسة جمال للطباعة والنشر / بيروت (مصور عن طبعة دار الكتب) / ٣ / ١٣٥ .
- ٢- انظر مقدمة محمد الطاهر بن عاشور لديوان بشار / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م / ١ / ٣ .
- ٣- انظر في ذلك د. نجيب محمد البهيبي / تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري / دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٩٨٢ م / ٣٣٦ - ٣٣٧ ، ود. مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء في العصر العباسي / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٦ / ١٩٨٦ م / ١٠٠ .
- ٤- انظر « تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري » / ٣٤٤ .
- ٥- الحيوان / تحقيق عبد السلام هارون / مصطفى الحلبي / ط ٢ / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م / ١ / ٣٥٤ و ٤ / ٤٥٣ .
- ٦- الأغاني / ٣ / ٢٠٨ .
- ٧- انظرها في الديوان / ٣ / ١١٦ - ١١٨ .
- ٨- الديوان / ١ / ٢٥٤ - ٢٥٥ .
- ٩- انظر هذا الرثاء في « الأغاني » / ٣ / ٢٢٩ - ٢٣٠ ، والديوان / ٤ / ٢٨ .
- ١٠- انظر « الموشح » للمرزباني / تحقيق علي محمد الجاوي / دار نهضة مصر / ١٩٦٥ م / ٤٤٧ - ٤٤٨ .
- ١١- الأغاني / ٣ / ١٣٦ .
- ١٢- طبقات الشعراء / تحقيق عبد السلام أحمد فراج / دار المعارف / ط ٢ / ٢٢ .
- ١٣- انظر « الأغاني » / ٣ / ١٤٢ .
- ١٤- الأغاني / ٣ / ١٤١ .
- ١٥- انظر مثلا « الأغاني » / ٣ / ١٣٨ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، وأمالى المرتضى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / عيسى البابي الحلبي / ط ١ / ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٤ م / ١ / ١٣٤ .

- ١٦- د . طه حسين / حديث الأربعاء / دار المعارف / ط ١٣ / ٢ / ١٩٢ - ١٩٣ .
- ١٧- حنا الفاخوري / تاريخ الأدب العربي / المطبعة البولسية / ٣٧٤ .
- ١٨- حديث الأربعاء / ٢ / ١٩٠ - ١٩١ .
- ١٩- الأغاني / ٣ / ١٥٩ .
- ٢٠- النحل / ٦٨ - ٦٩ .
- ٢١- الأغاني / ٣ / ١٥٨ .
- ٢٢- انظر « الأغاني » / ٣ / ٢٤٣ - ٢٥٠ .
- ٢٣- انظر كتابه « شخصية بشار » / دار الفكر / ط ٢ / ١٣٣ .
- ٢٤- انظر « الأغاني » / ٣ / ١٩٤ - ١٩٥ .
- ٢٥- السابق / ٣ / ١٥٢ - ١٥٣ .
- ٢٦- السابق / ٣ / ١٧٢ .
- ٢٧- السابق / ٣ / ١٥٩ .
- ٢٨- الأغاني / ٣ / ١٨٤ . وانظر بيته في الحمار الذي نهق بقره ذات مرة فخطر له بيت مفحش ولم يستطع أن يكمله ، حتى مرَّ به أحد أصدقائه فسلم عليه ، فعندئذ أكمله وقرأه على ذلك الصديق ، الذي اتجه إليه بعد تلك التكملة فحش البيت كله (الأغاني / ٣ / ١٧٣ - ١٧٤) .
- ٢٩- انظر في ذلك « الأغاني » / ٣ / ١٨٢ - ١٨٤ .
- ٣٠- انظر « الأغاني » / ٣ / ٢٢٣ - ٢٢٤ ، ٢٣٧ - ٢٣٨ مثلاً .
- ٣١- انظر « الأغاني » / ١٤ / ٣٤٦ .
- ٣٢- السابق / ٣ / ٢٤٦ ، ٢٤٩ .
- ٣٣- انظر ابن المعتز / طبقات الشعراء / ٢١ ، ٢٣ .
- ٣٤- السابق / ٢١ .
- ٣٥- انظر « الأغاني » / ٣ / ١٤٠ ، وكذلك مقدمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لديوان بشار / ١ / ٦ - ٧ .

عقيدته

لعلّ أقدم من كتب عن عقيدة بشار هو الجاحظ ، الذى اتهمه فى دينه وذكر أنه هجا واصل بن عطاء وسخر من طول عنقه بقوله :

مالى أشايح غرّألا له عنقُ كنعنق الدوّ إن ولى وإن مثلا ؟
عنقَ الزرافة ، ما بالى وبالكمو؟ أتكفّرون رجلا أكفروا رجلا ؟
وأنه « صوّب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، وقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مُذْ كانت النارُ
... وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : وعلى أيضا ؟ فأنشد :

وما شرّ الثلاثِ أمّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا «
وأن واصل بن عطاء عندئذ حرّض على قتله ، وإن كان قد أعلن فى نفس الوقت أنه يتحرج من اغتياله ، وإلاّ لبعث إليه من يبقّر بطنه وهو فى تعر بيته نائم (١) . كما ذكر أن بشارا كان كثير المدح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة ، وأن المعتزلة انقلبوا بعدها عليه وأخرجوه من البصرة فلم يعد إليها إلا بعد وفاة عمرو بن عبيد . ثم أورد ، كاملة ، قصيدة صفوان الأنصارى فى الرد على ما رُوى عن بشار فى تفضيل النار على الطين ، وكذلك أبيات سليمان بن الوليد ، أخى مسلم بن الوليد (٢) ، فى نفس الغرض (٣) . ومما جاء فى قصيدة صفوان اتهمه بشارا بهجو أبى بكر ، وخلع علىّ ، واتخاذ ليلى الناعظية نحلة (٤) ، والإيمان بالتناسخ والردّ . كما أشار إلى أنه جعل عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء كأتباع ديسان (٥) .

واللافت للنظر أن الجاحظ لم يذكر اسم بشار بين من ذكرهم من الزنادقة الشعراء فى كتابه « الحيوان » . ليس ذلك فقط ، بل قال إن بشارا كان ينكر عليهم (٦) . ومع ذلك فقد نُسب للجاحظ فى « أمالى المرتضى » أنه ذكر بشارا

ضمنهم (٧) .

أما ابن قتيبة فإنه ، فى ترجمته للشاعر فى « الشعر والشعراء » ، قد اكتفى بالقول بأنه « يُرْمَى بالزندقة ، وهو مع ذلك يقول :

كيف بيكى لمحبس فى طلولى من سيقصى ليوم حبس طويل ؟
إن فى البعث والحساب لشغلاً عن وقوف برسم دارٍ مُحيلٍ « (٨)

ثم قال : « وكان بشار هجا المهدي ، وذكر شغله بالشراب واللهو ، فأمر به فقتل تغريقاً فى الماء » (٩) ، فأرجع سبب قتله إلى هجائه المهدي لا إلى الزندقة ، التى أبدى (كما رأينا) شكه فى اتصافه بها ، إذ استبعد أن تصدق تلك التهمة عليه بينما هو صاحب البيتين اللذين يذكر فيهما البعث والحساب ذُكرَ المؤمن بهما المؤكد لوقوعهما .

وإذا كان ابن قتيبة قد شك فى أن يكون بشار زنديقا واكتفى فى التعبير عن شكه بهذه الإلماحة الموجزة ، فإن ابن المعتز ، بعد أن أورد عبارة ابن قتيبة هذه بنصها تقريبا وساق مثله البيتين السابقين مع بعض الاختلاف فى روايتهما ، قد عقب قائلاً : « وهذان البيتان يدلان على صحة إيمانه بالبعث ... والصحيح عند أهل العلم أن المهدي قتله بهجوه يعقوب بن داود وزيره بقوله :

بنى أمية ، هبوا . طال نومكمو
خليفة الله بين الزرق والعود

وقال قوم : بل قتله على قوله :

لا يُؤيسُّك من مخيأة
عُمر النساء إلى مياسرة
قول تغلظه وإن جرحا
والصعب يمكن بعدما جمحا

فقال المهدي : رميت جميع نساء العالمين بالفاحشة . والقول الأول أثبت « (١٠) .

وكان ابن المعتز قد أورد قبلاً الأقوال المختلفة فى سبب مقتل الشاعر : من ذلك أن بعض من يبغضه قد وشى به إلى المهدي ، الذى كان يحبه ويلذ مسامرتة ويقربه إليه

ويتخذها نديما ويُحضره مجلسه مع جواريه ، واتهمه بأنه يدين بدين الخوارج ، فقتله المهدي . ومنه أنه قيل له إنه يهجو ، فقتله . ومنه أنه رُمى بالزندقة ، فقتله . كما أورد ابن المعتز الاختلاف فى طريقة قتل بشار : فمن قائل إنه ضربه سبعين سوطا فمات ، ومن قائل إنه ضرب عنقه . وكذلك أورد الاختلاف فى السنة التى قُتل فيها : أهى سنة سبع وستين ومائة أم السنة التى بعدها ؟ (١١) والعجيب أن ابن المعتز يقول هنا أيضا : « والذى صح من الأخبار فى قتل بشار أنه كان يمدح المهدي والمهدي ينعم عليه ، فرمى بالزندقة فقتله » ، مع أننا قد رأيناه فى نهاية كلامه هذا يقول إن الذى صح عند أهل العلم أن المهدي قتله بهجوه يعقوب بن داود وزيره ... » . وقد كان ينبغى أن يعتمد إلى هذا التناقض فيزيله أو على الأقل يفسره . لكن لا بد مع ذلك من التنبيه إلى أن القول الذى انتهى إليه ابن المعتز هو ، كما أشرنا ، تبرئة بشار من الزندقة .

وقد حكى ابن المعتز (فى تفسير سبب الزندقة المدعاة على بشار) عن السدرى ، ابن أخى الشاعر (ولا أدرى ابن أى أخويه ، إذ كان لبشار كما هو معروف أخوان : بشر وبشير) ، أن عمّه « كان من أफقه الناس وأعلمهم بكتاب الله ، ولكنه عاش قوماً من الحرائطين فخبث دينه » (١٢) .

فإذا انتقلنا إلى « الأغاني » وجدنا الروايات تتعدد وتختلف فى تهمة الزندقة المنسوبة لبشار ، والعلة التى جرّت إلى مقتله . فبالى جانب ما قاله الجاحظ من أن بشارا كان يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة ويصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، وهجانه لواصل بن عطاء وتهكمه بطول عنقه الذى قال إنه يشبه عنق الزرافة (١٣) ، أورد الأصفهاني حكاية تقول إنه « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء ورجل من الأزدي ... فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدي ويختصمون

عنده . فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقى متحيراً مخلطاً، وأما الأزدي فمال إلى قول السُّمَيْيَةِ ، وهو مذهب من مذاهب الهند ، وبقي ظاهره على ما كان عليه « ، وإن عمرو بن عبيد اتهم ابن أبي العرجاء بإفساد الأحداث وختلهم عن الإسلام وإدخالهم في دينه . ثم إنه أورد أبياتاً لبشار يهجو فيها ابن أبي العرجاء هذا ويتهمه برقة الدين ، بل بالكفر والزندقة (١٤) .

كما حكى الأصفهاني حكاية ثانية مفادها أن بشارا كان مع بعض القوم في مجلس فغنتهم إحدى القيان أبياتاً من قصيدة له ، فلما فرغت قال وقد هزّه الطرب يمدح شعره : « هذا والله ... أحسن من سورة الحشر » (١٥) .

وقد رُوي عنه أنه حين كُلم في أنه لم يقم لصلاة الظهر ولا العصر ولا المغرب كان جوابه أن الذي يقبلها تفارق يقبلها جملة ، كما رُوي أن أصحابه كانوا يقومون إلى الصلاة حين وجوبها ويبقى هو لا يصلي (١٦) .

ومع ذلك فيروى الأصفهاني أن أحد أصحاب بشار كان يجادله في ميله إلى الإلحاد ويبين له سوء مذهبه ، وأن بشارا قد ردّ عليه أخيراً بقوله : « ما أظن الأمر ... إلا كما تقول ، وأن الذي نحن فيه خذلان . ولذلك أقول :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِئَ غَيْرِ مَخِيَّرِ	هَوَايَ ، وَلَوْ خُيِّرْتُ كُنْتُ الْمَهْدَبَا
أَرِيدُ فَلَا أُعْطَى ، وَأُعْطَى وَلَمْ أُرْدِ	وَقَصَّرَ عِلْمِي أَنْ أَنْالَ الْمَغْتَبَا
فَأَصْرَفَ عَنِ قَصْدِي وَعِلْمِي مَقْصَرًا	وَأَمْسَى وَمَا أُعْجِبْتُ إِلَّا التَّعْجَبَا » (١٧)

وفي سبب مقتله يقول صاحب « الأغاني » إن بشارا كان قد مدح المهدي ولكنه لم يحظ منه بطائل فهجاه قائلاً :

خَلِيفَةَ يَزْنِي بِعَمَاتِهِ	يَلْعَبُ بِالذَّبَّوقِ وَالصُّوْلُجَانِ
أَبْدَلْنَا اللَّهَ بِهِ غَيْرَهُ	وَدَسَّ مُوسَى فِي حِرِّ الْخَيْرَانِ » (١٨)

وكان قد قال في وزيره يعقوب بن داود البيهقيين اللذين أوردهما ابن المعتز وذكرناهما في

هذا الفصل من قبل ، فسعى ذلك الوزير به عند المهدي وأبلغه ما قاله بشار فيه ، فانطلق الخليفة إلى البصرة يريد بشارا ، فتصادف أن سمع أذانا في وقت الضحا ، وإذا بالمؤذن بشاراً وكان سكران ، فأمر بإحضاره ، وضُرب بالسياط سبعين سوطاً حتى أشرف على الموت ، ثم أُلقي به في سفينة حتى فاضت نفسه (١٩) . وفي رواية أخرى أن بشارا كان قد هجا صالحاً أبا يعقوب بن داود ، وكان قد ولي البصرة ، وأن يعقوب بن داود هو الذي أمر بضربه بالسياط (لا المهدي) حتى مات (٢٠) . وفي رواية ثالثة أن المهدي قد أمر عبد الجبار صاحب الزنادقة فضرب بشارا (٢١) . كما أورد الأصفهاني شعراً لأبي هشام الباهلي يصف فيه بشارا وحماة عجرد بالكفر ويؤكد أنهما قد صارا إلى النار (٢٢) .

وفي نهاية الفصل الذي خصه « الأغاني » لبشار وحياته وشعره يقول أبو الفرج إن المهدي لما ضرب بشارا أرسل يفتش منزله لعله يجد شيئا يؤكد زندقته التي اتهمه بها عنده وزيره يعقوب بن داود ، فلم يجدوا إلا صحيفة قد كتب فيها بعد البسملة : « إنى أردت هجاء آل سليمان بن علي لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسكت عنهم إجلالاً له صلى الله عليه وسلم ... إلخ » ، وأن المهدي قد بكى ندماً على أنه تعجل فصدق وشاية يعقوب بن داود به وقتله دون تثبت (٢٣) .

وجاء في « رسالة الغفران » للمعري أن مما نُسب إلى بشار قوله في تفضيل إبليس والنار على آدم والطين الذي حُلِق منه :

إبليس أفضل من أيكم آدم فتبتهوا يسا معشر الفُجَّار
النار عنصره ، وآدم طينة والطين لا يسمو سمّ النار (٢٤)

أما البغدادي فقد ذكر في « الفرق بين الفرق » أن بشارا كان ينتمي إلى فرقة الكاملية ، الذين كانوا يكفرون الصحابة لتركهم بيعة عليّ ، ثم يكفرون عليا أيضا لأنه

لم يقاتلهم ، وأنه فوق هذا كان يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، ويصوب رأي إبليس في تفضيل النار على الطين . والبغدادى يكفر هذه الفرقة ومعهم بشار (٢٥) .

ويسلك ابن النديم شاعرنا فى سلك الزنادقة المانويين (٢٦) .

ويعد ، فلعل هذا هو أهم ما جاء عن عقيدة بشار واتهامه فى دينه عند القدماء . أما المحدثون فإن المستشرق البريطانى نيكلسون لا يستبعد أنه كان لدى بشار ميل زرادشتية ، وإن سارع إلى القول بأن البروفسور بيثان قد لاحظ أنه لا يوجد أى دليل حقيقى على هذا وأن هذه التهمة لا تستند إلا إلى البيت المشهور الذى وصلنا عن طريق « الأغاني » غفلا عن السياق الذى قيل فيه ، وهو :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منذ كانت النار

ثم يعود نيكلسون إلى القول بأن الأفكار الزرادشتية أو المانوية لدى بشار ربما دلت عليها خصومته مع عدد من علماء الكلام المسلمين فى البصرة أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . ثم يختتم الكلام عنه بأنه قد قُتل على يد الخليفة المهدي هو وصالح بن عبد القدوس فى عام واحد (٢٧) .

ويقول كاتب مادة « بشار » فى الطبعة الأولى من « Encyclopaedia of Islam » إن الآراء الدينية عند بشار لا تزال مفتقرة إلى الوضوح ، وإنه فيما يبدو كان متذبذبا فى عقيدته . ثم يضيف أنه لم يكن شيعيا ، وذلك بسبب تحفظاته نحو الكميث والسيد الحميرى (الشاعرين الشيعيين) . ومع ذلك فقد أشار إلى أن شارل بلا يرى أنه كان يجمع بين بعض عقائد الشيعة الكاملة . ثم عاد كاتب المادة فقال إن بشارا كان يتمسك بآراء تفتقر إلى التجانس من بينها بعض العقائد المانوية المصبوغة بصبغة زرادشتية قوية ، إذ له البيت المشهور الذى يفضل فيه النار المشرقة على الأرض المظلمة ويعلن أن النار معبودة منذ أن وُجدت ، وذلك البيت الذى ردّ عليه صفوان الأنصارى بقصيدة كاملة . كما أن صاحب « الفهرست » يدرجه ضمن زنادقة

ومع هذا كله يختم كاتب المادة كلامه فى هذه المسألة بقوله إن بشارا ، بالإضافة إلى هذه الآراء ، كان صاحب شك عميق ممتزج بالاعتقاد فى الجبر ، وإن هذا وذاك قد أديا به إلى الإحساس بالتشاؤم والإيمان بمذهب اللذة (٢٨) ، ولكنه برغم هذا كان يتبع أسلوب التقية فيتظاهر بأنه يعتقد بعقيدة أهل السنة ويهجو الزنادقة الخارجيين عليها من مثل ابن أبى العوجاء .

وبالنسبة لمقتل الشاعر نراه يعزوه إلى هذه الزندقة وإلى سلوكه الفاضح ، مما جعل القوم يدبرون له مؤامرة أفسدت ما بينه وبين الخليفة وأضاعت مكانته عنده ، بل وجعلت الدولة تنزل النكال بكل الزنادقة من أمثاله . وكان مقتله ، كما يقول ، فى السبعين من عمره لا التسعين ، التى يرى أنها غلظة فى الرسم الكتابى لا أكثر (٢٩) .

ويرى جرجى زيدان أن بشارا كان من أصحاب الفلسفة المتحيرين فى الدين ، وأنه كان يعتقد أن الإنسان مسوق لا مخير ، والدليل على ذلك قوله :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِى غَيْرِ مَخِيرٍ هَوَاى ، وَلَوْ خَيْرْتُ كُنْتُ الْمَهْدَبَا
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَى ، وَأُعْطَى وَلَمْ أُرَدْ وَقَصَّرَ عِلْمَى أَنْ أَنْالَ الْمَغْيَا
فَأَصْرَفَ عَنْ قِصْدَى وَعِلْمَى مَقْصَرٍ وَأُشْسَى وَمَا أُعْقِبْتُ إِلَّا التَّعْجِيبَا

ثم يقول فى سبب موته إن المنصور ، بسبب القصيدة التى نظمها الشاعر فى هجائه أيام ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن عليه ثم غيرها بحيث أصبح الهجاء فيها موجهاً إلى أبى مسلم الخراسانى بعد سقوطه ، كان متغير الخاطر عليه وفى نفسه شىء منه . ثم جاء المهدي بعده فأظهر نحوه فتوراً ممّا أغضب بشارا ودفعه إلى مدح يعقوب بن داود فلم ينفعه فهجاه بالبيتين اللذين يقول فيهما :

بنى أمية ، هبوا طال نومكو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم ، فالتمسوا خليفة الله بن الرزق والعود

فكان أن بعث المهدي إليه صاحب الزنادقة فضربه حتى الموت (٣٠) .

أما العقاد فإنه يؤكد أن بشارا لم يكن من أولئك الذين يعنيه الإيمان أو الكفر أو التمدح بهذا المذهب أو ذلك من مذاهب الكلام ، وأن ما ورد عنه من الشعر لا يدل على عقيدة له ثابتة ، بل كان كلامًا من وحي الساعة يراد به التطرف أو إغاضة هذه الفرقة أو تلك ، فهو تارة يفضل إبليس على آدم ، وهو أخرى على مذهب الجبرية الذين يسقطون الحساب والتكلف :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فَيَّ غَيْرَ مَخِيرِ هَوَايَ ... إلخ .

وثالثة هو من المؤمنين الذين يعتقدون الحساب ويخشونه ، ومن ثم فهو يقول :

كيف ييكي لمحبس في ظللٍ من سيفضى لحبس يوم طويل ؟
إن في البعث والحساب لشغلا عن وقوف يرسم دار محيل

ويقول :

بدا لي أن الدهر يقدر في الصفا وأن بقائى إن حيينت قليلُ
فعمش خائفًا للموت أو غير خائف على كل نفس للجحيم دليل
خليلك ما قدمت من عمل التقى وليس لأيام المنون خليلُ

ثم يشير العقاد إلى ما قيل عن الصحيفة التي وجدوها عنده بعد موته وفيها أنه أراد أن يهجو أحد العلويين فمنعته من ذلك قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا دليل على أنه كان متشيعاً . ومع أن العقاد قد استبعد بحق حكاية الصحيفة تلك ، إذ لم يعهد عن شعراء العرب وبخاصة من كان كفيفا كبشار أن يسجلوا خواطرهم ونياتهم ، فإنه لا ينفي تشيع الشاعر للعلويين لقارسيته من جهة ولعدم رضاه تماما عن العباسيين من جهة أخرى . ورغم ذلك فهو لا يظن به الحماسة في تشيعه ، مثلما يستبعد تحمسه لأي عقيدة أو مذهب (٣١) .

ويتهم د. طه حسين بشارا بالنفاق بل بالإسراف فيه . ودليله على هذا أن بشارا كان زنديقا ومن أشد الناس إلحادا في الدين ، ومع ذلك فإنه كان يتظاهر أمام الناس

بأنه على رأى الجماعة فى الوقت الذى يزدرهم بينه وبين نفسه . ثم إنه لم يكن يكتفى بهذا، بل كان يتهم بالزندقة والإلحاد خصومه ، بل وأصدقائه أيضا كما فعل مع حماد مجرد مثلاً . ثم يقول د. طه إن زندقة بشار تتمثل فى أنه كان يدين بالرجعة ويكفر الأمة كلها بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها حادت عن طريق الدين . كما أنه كان يُؤثر النار على الطين ويفضل النور على الظلمة . وهو فى هذه النقطة الأخيرة متأثر بفارسيته مثلما كان متأثرا بها فى موقفه من العرب ، الذين هاجمهم فى شعره وحرّض الموالى أمثاله على التبرؤ من ولانهم (٣٢) .

ورغم ذلك كله فإن د. طه يرى أن الذى أدى إلى مقتل بشار ليس هو الزندقة بل هجاؤه للمهدى وليعقوب بن داود وأخيه صالح ، وإن كانت الزندقة قد اتُخذت وسيلة إلى قتله ، إذ سعى به يعقوب إلى الخليفة وأطلععه على ما قاله من هجو فيه شنيع واتهمه بالزندقة مؤكدا أن عنده البيضة القاطعة على هذا ، فضُرب حتى الموت . ثم يشير د. طه إلى ما وُجد فى أوراق بشار بعد موته من كلام يدل على إيمانه مما جعل المهدي يندم على قتله ، ولكنه يعلق بما يفيد أنه لا يظمن تماما إلى هذا الخبر ، إذ يقول : « سواء أضح هذا الخبر أم لم يضح فالهجاء وحده هو الذى قتل هذا الشاعر . ولم يكن من الميسور أن تُترك الحرية والحياة لشاعر كبشار يعلن فى المجمع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء » (٣٣) .

وممن درس بشارا وتكلم عن اعتقاده ومذهبه د. شوقى ضيف ، الذى يستدل بقتل المهدي بشارا على أنه كان ملحدا زنديقا ، ويرى فى بيته المشهور :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منذ كانت النار

إشادة بعبادة النار وتقديسها ، وأنه انطلقا من ذلك كان يفضل إبليس على آدم ، إذ حُلِقَ هذا من طين وذاك من نار ، وذلك فى قوله :

إبليس أفضل من أياكم آدم ... إلخ .

ويقول إن بشارا كان يصرّح بأنه لا يزمن إلا بالعيان وما شهده الحسن ، ومن ثم فهو لا يعتقد في البعث والحساب ولا الجنة والنار ، وإنه كان جبريا يقول بأن الإنسان لا إرادة له وليس هو الذى يخلق أفعاله .

ليس ذلك فقط ، بل يرى الأستاذ الدكتور أن بشارًا كان أيضا يدين بالرجعة ، أى عودة الإمام المختفى ، وأنه كان يكفر جميع الأمة .

كما علق الأستاذ الدكتور على رثاء الشاعر لواحد من أصدقائه بأنه بمثابة رثاء لهؤلاء الأصدقاء كلهم ، وكانوا يتهمون جميعا بالزندقة ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذى ينتظره مثلهم قتلا على يد المهدي .

ومع أن د. شوقي يشير ، فى سياق مقتل بشار ، إلى هجاء الشاعر ليعقوب بن داود هجاء مقذعا (كما قال) ، فإنه يؤكد أن قتل بشار إنما كان على الزندقة ، التى شهد بها عليه شهود عدول .

وقد ذكر الأستاذ الدكتور أيضا أن بشارا ، تحت تأثير ما كان يسمع فى حلقات المتكلمين ويقرأ مما ترجم من الفارسية فى آداب الفرس ودياناتهم ، قد حدث له فى بداية الأمر شك وحيرة امتلأت بهما نفسه ثم تحولا مع الأيام إلى زندقة وإلحاد (٣٤) .

وممن درسوا كذلك بشارا وتناولوا الكلام فى عقيدته د. محمد النويهى . ورأيه أن بشارا لم يكن ملحدا ولا كافرا ، بل ظل طوال عمره حائرا متشككا فى كل شيء ، وأن هذا التشكك كان جحيما عليه ، إذ جعلت مشكلة التوفيق بين عدل الله سبحانه تعالى وما يمتلىء به الكون من ظلم وشرّ وأثام تزرقه وترهق عقله طول حياته لا يجد منها مخلصا ، فىبقى حتى موته يتذبذب بين الإلحاد والإيمان . وهو ينفى أن يكون بشار قد آمن بأى من هذه النحل أو المذاهب التى اتهم بها . قد يكون مال حيننا إلى مذهب الرجعة أو غيره من مذاهب الهند ، وقد تكون استهوته زمنا عقيدة الفرس فى

عبادة النور وتقديس النار . كذلك فإنه كان يوماً ما على مذهب المعتزلة بل إماماً من أئمتهم . ولكن كل ذلك لم يقنعه إقناعاً تاماً . ويقف د. النويهى بنوع خاص أمام الأبيات الثلاثة التى يفضل فيها الشاعر النار على الأرض وإبليس على آدم ، مبيناً أنها إنما تدل على كراهيته للبشر جميعاً على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ، إذ يفضل عليهم إبليس وذريته ، فهو يعمل على إغاظتهم وإحناقتهم (٣٥) .

ولا يقبل الدكتور النويهى من كلام القدماء عن معتقد بشار إلا ما جاء عند الجاحظ من أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام أحدهم بشار ، وأن كلا منهم أخذ اتجاهًا خاصًا على حين بقى بشار « متحيراً مخلطاً » (٣٦) . وهو يرجع ذلك إلى طبيعة العصر الذى عاش فيه الشاعر بما فيه من انقلاب سياسى نقل الملك من بيت إلى بيت ووضع الفرس فى مكان الصدارة بعد أن كانوا فى المؤخرة طوال العصر الأموى ، إلى جانب الفتن والثورات والحروب الداخلية والخارجية وتلاطم المذاهب والعقائد من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ورافضة ومجوس ونصارى ويهود وصابئة ، فلا يعقل أن ينجو بشار ، وهو الذى كان من أئمة الاعتزال ، من تأثير هذا كله . وإن فى قصة تمرده على المعتزلة لدليلاً ، عنده ، على أن بشاراً لم يكن يكفر جميع الأمة كما ادعى عليه ، إذ كيف ينكر أن يكفر المعتزلة الخوارج لتكفير هؤلاء علياً ثم يكفر هو الأمة كلها ؟ إنه ، كما يقول ، كان يفضل أن يتسامح مع الفرق جميعاً (٣٧) .

ثم يؤكد د. النويهى أن بشاراً لم يكفر بالإسلام وأن ما قيل عن إهماله الصلاة لا يعدّ دليلاً على ذلك الكفر بل على صفاقة الذين كانوا يتجسسون عليه ويحاولون استطلاع دخيلته ، مخالفين بذلك سنة الإسلام ، الذى يكره التفتيش على أحوال الفرد الدينية (٣٨) .

أما ما نُسب إلى بشار مثلاً من قوله عن بعض شعره إنه أحسن من سورة الحشر فإن الدكتور النويهى لا يرى فى ذلك إلا أنه لون من الفخر اعتمد أسلوباً سىء

الأدب جمع به لسانه فى حالة الطرب (٣٩) .

ثم ينتهى إلى أن الشئ الوحيد الذى يمكن أن نطمئن إليه فى عقيدة بشار هو أنه كان على مذهب الجبرية . ويستشهد على ذلك بأبياته التى يقول فيها :

طُبعت على ما فى غير مخير هــواى ... إلخ (٤٠)

وفى موضع آخر يعود د. النويهى إلى لمس عقيدة بشار فيقول إنه إذا كان القدماء لم يستطيعوا أن يفرقوا بين الإلحاد والشك ومن ثم رموا بشارا بالإلحاد فينبغى ألا نلومهم ، فإنهم لم يدركوا أنه لم يختصر الشك عنادا بل كان مضطرا إليه اضطرارا ، كما أنه قد شقى به أيضا شقاء . ويؤكد أنه إذا كان بشار لم يقبل الإسلام ولم يبادر إلى الاعتراف بصحته وصدقه كما يفعل معاصروه فهو أيضا لم يقبل المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو سواها من الأديان ، بل ظل شاكا مرتابا طوال حياته (٤١) .

وبالنسبة إلى مقتله يؤكد الدكتور النويهى أن ما قيل من أن سببه هو فسقه وإفحاشه فى شعره وزندقته غير صحيح ، بل الصواب هو أن المهدي قد قتله تخوفا من لوم أهل عصره .

وهو يتساءل إذا كان المهدي ، كما يصورونه ، رجلاً شديد الغيرة على النساء والمحارم فكيف يسكت عن بشار قبل ذلك هذا السكوت الطويل ؟ بل كيف كان يقربه إليه ويتخذة نديماً له يجالسه بحضرة جواريه ؟ بل كيف قبل منه إكمال شطرة بيت ابتداء فيها وصف ما رآه من إحدى جوارينه حين وقعت عينه عليها فى الحمام مصادفة وهى تغتسل فمدت يدها فغطت سواتها كما تقول الرواية ، ثم خرج فعلم أن بشارا على باب القصر فأمر بادخاله وطلب منه أن يكمل ، فأنشد للتوّ أبياتا شديدة العرى تصف ما حدث وكأنه كان حاضرا وشاهد بأم عينيه ما كان ، والخليفة يستزيده ويظهر حبه ؟ علاوة على أن بشارا قد امتنع عن التشبيب بالنساء حين نهاه المهدي عن ذلك . كما أنه يتساءل أيضا : أين كان المهدي طوال هذه السنوات التى اشتهر فيها بشار بشكوكه وكان العلماء يحملون عليه أثناء ذلك ؟ (٤٢)

ثم يخلص إلى أن السبب الحقيقي فى قتل المهدي له إنما هو ضغط العلماء والوعاظ عليه من أمثال واصل بن عطاء وسوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار . وكانت عداوتهم له ، وتعنيفهم الخليفة على تقريبه إليه وخلع الجوائز والمنح عليه من الشدة والعنف بحيث لم يستطع المهدي الاستمرار فى تجاهل تقدمهم ، فتلمس حينئذ عنرا يقتل به بشارا . وجاء العذر فى الأبيات التى حملها إليه يعقوب بن داود وفيها هجاء شنيع له ، ثم فى المصادفة العجيبة التى جعلت بشارا يؤذن وهو سكران ساعة الضحى فى الوقت الذى كان الخليفة وحاشيته يقتربون من البصرة طلباً لمعاقبته (٤٣) .

ويعزو الدكتور النوبهى حملة واصل بن عطاء على بشار واتهامه إياه بالإلحاد وتحريض العامة عليه إلى خروج الشاعر على مذهب المعتزلة . وهو يرى أن هذه الحملة هى السبب فى هجاء بشار له دفاعاً عن نفسه (٤٤) .

وفى الدراسة القيمة التى قدم بها محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة الأسبق لديوان بشار (بتحقيقه) يذكر هذا العلامة أن بشارا قد نُسب فى تكفيره إلى دين الثنوية والمجوسية والبرهمية والسُّننية ، ونُسب فى إسلامه إلى الرفض وإلى الشيعية وإلى مذهب الرجعية القائلين بأن على بن أبى طالب سينزل مرة ثانية كما ينزل عيسى وأن جميع الأمة كفروا حين عدلوا عن بيعة على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما نُسب أيضا إلى الإلحاد المحض والتعطيل . ويذهب الشيخ ابن عاشور إلى أن بشارا كان مستهترا لا يتحرز فى أقواله التى لم يكن يقصد منها إلا إلى المزح والهزل . بيد أن هجاءه للعلماء والكبراء والشعراء والأمراء قد أغرى به الجميع وجعل تهمة مصدقة . وهو يؤكد أنه ، كما جاء فى أخباره وأشعاره ، كان ملتزما بالإيمان الصحيح مخبرا عن نفسه بأداء الصلاة والصيام والحج وسائر الشعائر الإسلامية وأنه شديد الحفاظ على دينه ، من مثل قوله فى ترك وصال خليلته فى رمضان :

فى ليلة خلف شهر الصوم ناقصة تسعا وعشرين قد أحصيتها عددا

حتى ارتقيتُ إليها فى مشيدة دون السماء تناغى ظلها صعدا
وقوله :

إنى حلفت يمينا غير كاذبة عند المقام ولم أقرب له فندا
وقوله :

وعجيب نكت الكريم ، وللنف س معاد ، وللحياة انقضاء
وقوله فى رثاء ابنه :

ولى كل يوم عبرة لا أفيضها لأحظى بصبر أو يحطّ ذنوب
ثم يقول فى مقتله إن هناك اتفاقا تاما بين الرواة على أنه قتل من الضرب
بتهمة الزندقة . ثم يعود فيقول إن هناك من يرجع سبب قتله إلى هجائه ليعقوب بن
داود والمهدى ، ولكنه يرى أن هذا مما اختلقه حساده عليه ، فإنه كما يقول كان يجمل
المهدى . ومع أنه كما رأينا قد نفى عنه سوء العقيدة وأثبت له إيمانا صحيحا فقد رجح
فجعل سبب مقتله ، إلى جانب الحسد والهجاء والفحش ، خفة دينه فى سيرته
وتهمته بسوء الاعتقاد .

ويلفت النظر فى موقف الشيخ ابن عاشور أنه لا يرى مؤاخذة الشعراء على ما
يقولون . وهو يقول إن أعداءه قد اهتملوا فرصة تتبع المهدي للزندقة والتنكيل بهم
وتغييره على الشاعر فوشوا به إليه فقتله ، ليكتشفوا بعد موته من تصفح أوراقه وكتبه
برأيه مما رُمى به (٤٥) .

ويرى أندريه ميكل أن بشارا كان ينطوى على نزعات مانوية أو زرادشتية ، وأنه
دفع حياته ثمنا لزندقته ومجونته واستهتاره (٤٦) .

وممن عرض لبشار وعقيدته أيضا د. عمر فروخ ، الذى يحكم عليه بأنه كان
زنديقا يميل إلى التفكير الحرّ ويأخذ بالشك وبالجبير . وفى مقتله يقول إنه قد طال
لسانه وتناول بالهجاء الخليفة المهدي ووزيره يعقوب بن داود ، فاتهم بالزندقة وبالفحش
والدعوة إلى الفسق فى شعره ثم قتل (٤٧) .

أما د. سيد حنفى حسنين فإنه يقرّو أن الأخبار التى وصلتنا عن فكر بشار وعقيدته متضاربة ومتناقضة : فبعضها يتحدث عن تقوى بشار وممارسته لفروض العبادة . وبعضها الآخر ، على خلاف ذلك ، يؤكد كفره وزندقته ورفضه لأداء الشعائر الدينية . وهو يشير إلى أن بشارا كان ينتمى إلى المعتزلة ثم نبذ مذهبهم فكرهوه وحملوا عليه ونادى واصل بن عطاء فى الناس محرّضا على قتله ، مما دفع بشارا إلى هجانه ببيتيه المشهورين اللذين يرى الأستاذ الدكتور أنهما يدلان على أخذ الشاعر بمذهب الشيعة الكاملية ، وهم كما سبق بيانه فرقة تكفّر الصحابة لانتزاعهم من علىّ حقه ، ثم تنقلب على علىّ فتكفّره بدوره لأنه ترك المطالبة بهذا الحق . ثم يتساءل الأستاذ الدكتور : « هل كان اعتناق بشار لمذهب بعينه هو اعتناق ثابت دائم ، أو هو رجل كثير الشك ينتقل من فرقة إلى فرقة ومن رأى إلى رأى وكأنه يبحث عن يقين ؟ » . ويرد قائلاً إنه يعترف صراحة بمذهب ربما غاب تفسيره عن الأقدمين ، إذ كان يقول : « لا أعرف إلا ما عاينته وعاينت مثله » . فهو فى رأيه من « أصحاب المذهب الحسىّ ، الذين يتخذون الحس رسيّلتهم للمعرفة » . ويضيف أن شك الشاعر وحيرته وتعدد مواقفه من الفرق المختلفة قد أدى به إلى القتل بتهمة الزندقة ، كما أن مجونه وسلوكه المستهتر ومعالنته بذلك كان سلاحًا فى يد خصومه لإثبات ما يريدون من تهم ، صدقت هذه التهم أو كذبت ، إذ رأوا أنه قد أفسد نساء البصرة وشبابها بمجونه وبشعره الذى يصور فيه هذا المجون . ورغم أن الأستاذ الدكتور قد ذكر عقب هذا هجاء بشار المقذع للخليفة ووزيره فإنه ، فيما لاحظت ، لم يربط بين ذلك وبين مقتله (٤٨) .

ويتحدث د. محمد زكى العشماوى عن الموقف الفكرى لبشار وكيف أنه رفض التقاليد الاجتماعية السائدة وثار عليها وشكك فيها ، وهاجم فى سخرية العقائد والسلطة التى تمثلها ، معلنا عن عقيدته الخاصة ، ومناديا باللذة والإباحية والتحرر الأخلاقى الجنسى ، مما جعل الفقهاء يحاربونه ويحرضون عليه الخليفة

حتى قتله (٤٩) . ومع أن الأستاذ الدكتور قد أشار إلى أن لِبشار « عقيدة خاصة » تختلف عن عقيدة المجتمع فإنه حين وصل إلى مناقشة التهم التي رواها القدماء عنه مستدلين بها على زندقته أو على الأقل رقة دينه أخذ يفندها واحدة واحدة : إما برفض الرواية ذاتها أو تأويل كلام بشار على نحو مقبول ، ثم انتهى إلى القول بأن آيياته في تفضيل النار على الأرض وإبليس على آدم لا تشكل مذهبا عقديا أو فكرا دينيا مناهضا ، بل هي عنده مجرد امتداد لموقف الشاعر المتبرم وتعبير عن رفضه وتشككه وسخريته من التقاليد والعقائد والسلطة وعن مذهبه في التحرر الأخلاقي الجنسي . ثم يرد حكم د. شوفى ضيف عليه بأنه كان زنديقا ملحنا ، مؤكدا أنه ليس لدينا فيه بيعة ، وعلى هذا فليس من المستطاع الخوض فيه (٥٠) .

هذا استعراض أرجو أن يكون واضحا ودقيقا لما قيل عن عقيدة بشار ومقتله عند عددٍ ممن كتبوا عنه في القديم والحديث . وهناك بطبيعة الحال كتاب ونقاد آخرون قد تناولوا بشارا ودرسوا فكره ودينه والتهم التي رُزَّ بها من هذه الناحية ، ولكنني اكتفيت بهؤلاء الكتاب خشية الإطالة ، مع الحرص في ذات الوقت بقدر طاقتي على أن يكون ما قاله هؤلاء ممثلاً لما قاله غيرهم ممن لم أذكرهم .

ومن هذا الاستعراض نلاحظ أن الجاحظ ، رغم كل ما قاله عن بشار ، لم يذكره صراحة ضمن زنادقة الشعراء الذين سماهم في كتاب « الحيوان » ، وأن ابن قتيبة قد دافع عنه أو على الأقل شكك في صدق تهمة الزندقة التي رُمي بها . ثم كان كلام ابن المعتز في الدفاع عن عقيدته أقوى وأوضح . ومع هذا فقد أورد صاحب الأغاني عدة رواياتٍ عن رقة دينه وإلحاده . ويبدو أن ما جاء في « الأغاني » هو الذي ثبت هذه التهمة عليه في كتب القدماء . أما في العصر الحديث فأغلبية الكتاب تعتقد زندقة بشار وكفره وخبث معتقده . ومن لا يزندقه ينسبه إلى الشك والجبر . والعجيب أن الذي انبرى للدفاع عنه وتبرئته من الحكم بإلحاده هو واحد من علماء

الدين . وكان المظنون أن يكون على رأس من يهتفون بسوء عقيدته وكفره ، ولكن يبدو أن معاشته طويلاً للشاعر وأخباره ، وديوانه بالذات ، قد عصمته من أن ينجر مع التيار . ولعل العقاد هو الكاتب الوحيد الذى لم يأخذ أشعار بشار فى إبليس وآدم والنار والأرض ولا كلامه الذى نُسب إليه مما قد يشى بالحاده وزندقته مأخذ الجدة ، إذ أكد كما شاهدنا أن ذلك كله لم يصدر عن الشاعر إلا من قبيل التظرف .

هذه هى مواقف العلماء والنقاد قديما وحديثا من عقيدة بشار ، فما قول كاتب هذه السطور ؟

إن أول ما يلاحظه الدارس على الاتهامات التى صُبت على بشار وتناولت معتقده أنها متناقضة ، فقد اتهم الرجل بأنه يفضل إبليس والنار على آدم والطين الذى خُلِق منه أبو البشر ، أى أنه كان مجوسياً ، ثم هم يتهمونه بأنه كان شيعياً كاملياً ، أى ينتمى إلى الإسلام وإن لم يلتزم جادته . فكيف السبيل إلى التوفيق بين مجوسيته وشيعيته ؟ كذلك فقد قيل عنه إنه كان يكفر جميع الأمة ، مع أن له بيتاً فى هجاء واصل بن عطاء يستنكر فيه استنكاراً واضحاً لا لبس فيه تكفير المعتزلة لجماعة الخوارج . فكيف ينكر تكفير فريق محدود العدد من المسلمين لقاء تكفيرهم رجلاً واحداً هو على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو فى ذات الوقت يكفر الأمة كلها ؟ ولنفترض أنه كان فعلاً يرى أن الأمة كلها قد كفرت بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، أفلا يدل هذا على أنه كان يؤمن بالرسول عليه السلام ودينه ؟ ثم إنسه لو كان خارجياً أكان يمدح المهدي لتقتيله إياهم ويصمهم بالنكث عن الهدى وبالكفر ؟ وذلك فى قوله :

قتلت الشراة الناكثين عن الهدى وقتعت بالسيف المتعق بالكفر (٥١)

وبالمناسبة ، فإن واصل بن عطاء عندما هتف ببشار فى مجالس وعظه يحرّض على قتله قد وقع فى تناقض لا يقلّ عن هذه التناقضات غرابة وشدة ، إذ فى الوقت الذى استحث فيه الناس أن يقتلوه واستنكر ألا يقوم بهذه المهمة أحد من المسلمين نراه

يعلن استنكاره للاغتيال مشيرا إلى أن كرهه لهذا العمل هو الذى منعه من أن يبعث إليه فى جوف الليل من يبقربطنه وهو نائم فى سريريه فى قلب بيته . وإننا لتسائل : فكيف كان واصل يريد أن يُقتل بشار اذن إذا كان يكره الغيلة ؟ أكان يتصور أن قاتله سيذهب إليه فى وضع النهار ويخبط على الباب مستأذنا مستأنسا ، فإذا خرج إليه الشاعر استسمحه أن يتركه فلا يتعرض له بدفاع عن نفسه حين يمد إليه يده ليقتله ؟ أم ماذا ؟

أما البيت الذى نُسب إلى بشار وقُضت فيه النار على الأرض فإنه قد وصل إلينا مخلوعاً من سياقه : سياقه الشعرى ، إذ قلنا ^{منفردا} ، وسياق الظروف والملابسات التى قيل فيها . ثم إنه من المستطاع أن يُجادل المجادلون فى أن ذلك البيت لو أخذ على ظاهره دون الالتفات إلى الكلام الذى قيل فيه ولا المعانى التى ألصقت به أو النوايا التى نُسبت إلى بشار بخصوصه فلن يجد فيه القارىء شيئا يتعلل به على الشاعر ، إذ من ذا الذى يجادل فى أن النار مشرقة على حين أن الأرض مظلمة ، وأن النار قد وجدت من الحمقى والمأفونين من يعبدونها ويجعلون من عبادتهم إياها دينا له طقوسه وعقائده وأتباعه ؟ إلا أننا ينبغي أن نسارع أيضا إلى القول بأن الأرض ، وإن لم تُعبّد فيما نعرف كالنار ، قد أُتخذت من صخورها وطينها وشجرها التماثيل والأصنام التى عبّدت كالنار . فكيف فات بشار ذلك ؟ أيا ما يكن الأمر فقد قال بشار هذا قبل أن يموت واصل بن عطاء بزمن طويل . وقد مات واصل قبل أن يموت بشار بسنوات طوال . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون هذا البيت (إن كان قد قاله أصلا) هو السبب فى مقتله .

على أى حال فالشيخ الطاهر بن عاشور يرى أن ذلك البيت وكذلك البيتين اللذين يفضل فيهما إبليس على آدم ويصف البشر بأنهم « معشر الفجار » ليست صحيحة النسبة إليه ، بل دسّها أعداؤه عليه ليشوهوا سمعته ويطعنوه فى دينه

وإيمانه (٥٢) . والملاحظ أن تلك الآيات الثلاثة لم ترد في الديوان . لكن البيت الأول قد نسهب الجاحظ إلى الشاعر في « البيان والتبيين » كما رأينا . كما أن صفوان الأنصاري ، وكان معاصراً لبشار ، قد أنشأ قصيدة بأكملها رداً عليه . قد يقول قائل : ولو ! إن من الممكن أن يكون المعتزلة مثلاً هم الذين وضعوا عليه هذا البيت إثر انفصاله عنهم وتسفيهه لعقائدهم وتصويره الساخر لإمام من أئمتهم . لكن ينبغي الالتفات إلى أنه لم يبلغنا أن بشاراً أنكر أن يكون قد قال هذا البيت . يتبد أنه لم يصلنا ردة منه على قصيدة صفوان أيضاً . ألا إنه لأمر محير ! أما البيتان الآخران فقد جاءا في « رسالة الغفران » للمعري ، أي بعد موت بشار بأزمان . فمن السهل نفى نسبتها إليه ، وإلا فأين كانا طيلة هذه المدة المتطاوله ؟ ولماذا لم يرده عليهما واحد من الذين انبروا للهجوم على بشار في حياته ؟ وحتى لو كان بشار قد قالهما فمن البيتين الواضح أنه لا يمكن أن يكون قد قصد معناهما حقاً ، فإن آدم ليس أبانا وحننا ، بل هو أبو بشار أيضاً . أم تراه قد خلقت ، أو على أقل تقدير كان يعتقد أنه خلقت ، مثل إبليس من نار فهو إذن واحد من ذريته لا من ذرية آيينا آدم ؟ لا أعتقد أن أحداً يستطيع أن يزعم ذلك . إن بشاراً واحداً من البشر ، الذين يناديهم بـ « يا معشر الفجار » . فإذا كان فعلاً يزاهم كذلك (وهذا لو سلمنا بأنه قائل البيتين) ، فهل يمكن أن نصدق أن يكون قد فاته أنه واحد من معشر الفجار هؤلاء ؟ إن بشاراً لو كان هو حقاً صاحب البيتين فلا أظن إلا أنه أراد بهما المغايظة وإثارة لفظ من حوله ومكايدهم ، ليستلذ بمخالفته إياهم وحنقهم عليه وعلى ما قاله فيهم . وهو نفس ما نرى أنه هدف إليه في البيت الأول .

ثم أليس ممّا له دلالته القوية أن يدافع عن بشار ابن قتيبة ، وهو العالم الديني الذي أخذ على عاتقه واجب المكافحة عن عقائد أهل السنة ، فيقول إنه « يُرْمَى بالزندقة وهو مع ذلك يقول :

كيف يكى لمحبس فى طللول من سيّقصى ليوم حبس طويل ؟

إن فى البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل «
 إن فى هذه العبارة على وجازتها رفضاً واضحاً لتهمة الزندقة والإلحاد التى رُمى بها .
 بشار . وفضلاً عن ذلك فإن ابن قتيبة يرجع مقتل الشاعر إلى هجائه للمهدى .
 ولا يقلل عن موقف ابن قتيبة فى دلالته ، بل ربما زاد عليه ، موقف ابن
 المعتز ، وهو الأمير العباسى حفيد المهدى ، الذى أمر بقتل الشاعر ، فقد قال بصريح
 العبارة عن هذين البيتين أنفسهما : « وهذان البيتان يدلان على صحة إيمانه
 بالبعث » ، وزاد فأكد أن « الصحيح عند أهل العلم أن المهدى قتله بهجوه يعقوب بن
 داود » .

ومما له دلالاته أيضاً أن المهدى ، الذى يقولون إنه قتل بشاراً على زندقته
 ومجوسيته ، لم يجد شيئاً فيما قاله بشار لجواريه أمامه حينما أبدين رغبتهم أن يبقى
 الشاعر معهم على الدوام ، وتمنّين من أجل ذلك لو كان أباهن فلا يفارقهن أبداً . لقد
 قال بشار رداً على هذه الأمنية : « نعم ، وأنا على دين كسرى » (٥٣) . أتدرون
 ماذا كان رد فعل الخليفة الذى تصوّره الروايات شديد الغيرة على الدين والنساء ؟
 لقد ضحك ، وأمر لبشار بجائزة (٥٤) ، ولم يجد فى قوله إنه على دين كسرى ولا
 الإشارة الجنسية الشنيعة فى كلامه (وإن كان الأمر كله مزاحاً فى مزاح) ما ينبغى
 التوقف عنده مجرد توقف .

أما ما رواه ابن المعتز عن السدرى من أن بشاراً كان من أफقه الناس وأعلمهم
 بكتاب الله إلى أن عاشر قوماً من الحرائيين فخبث دينه فهى دعوى غير معقولة ، إذ
 الإنسان وبخاصة إذا كان « من أफقه الناس وأعلمهم بكتاب الله » لا يتحول فى
 عقيدته ويخبث دينه بهذه السهولة وتلك السرعة . ثم من هؤلاء الحرائيون ؟ وأين
 عاشهم بشار ؟ وكيف كانت هذه المعاشرة ؟ إن أخبار الشاعر ، عدا هذه المعلومة
 المبتسرة ، تخلو من الإشارة إلى هؤلاء القوم تماماً ولا تذكرهم من قريب أو بعيد .
 أما « الأغاني » فقد أورد روايات متعددة ومتضاربة : فمرة نرى بشاراً متحيراً

مخلّطاً . ومرة نجده يفضل شعره على سورة من سور القرآن . ومرة يتهم ابن أبي العوجاء فى شعر له بالزندقة . ومرة يصرح بأن الإلحاد الذى كان عليه خذلان ، ولكنه مع ذلك يقول إنه مجبر فيما يعتقد ربراه ، ولو كان الأمر بيده لكان أفضل من ذلك . ومرة يجيب من يعاتبه بعدم قيامه للصلاة فى مواعيدها بما مفاده أنها تصحّ قضاءً مثلما تصحّ أداءً . ومرة يقال إن المهدي لم يجد فى دفاتر بشار بعد وفاته أى شىء ، يمكن أن يتخذ ذريعة ضده من ناحية العقيدة . وهى كلها مجرد روايات حُكيت عن الشاعر ، ولا ندرى مدى صحتها ، ومع ذلك فلننظر فيها :

لاشكّ أن التحير والتخليط شىء ، والكفر والإلحاد شىء آخر . ومع ذلك فقد اتهم بشار بالأميرين معاً . فكيف يصح ذلك ؟ ثم ألو كان زنديقا فكيف يرمى شخصا آخر بالزندقة ليرميّه هذا بدوره بها؟ إن المسألة لا تعدو أن تكون سفاهة وهزلا سخيفاً . وهذا الهزل السخيف ، فيما يبدو ، هو الذى جرّ كلا المتهاجيين إلى ذلك المصير الذى نعرف ، إذ ثبتّ عليهما التهمة التى تراميا بها وجعل خصومهما يرفعانها فى وجهيهما معا .

أما بالنسبة إلى الصلاة فإن الرواية لا تقول إن بشارا قد أنكر الصلاة ولا سخر منها ، وإنما أشار إلى أنه يمكن أن يؤديها قضاءً . وهذا لو صحت الرواية طبعاً . وبالنسبة لما قيل من أنه فضل شعره (الذى كانت تتغنى به إحدى الجوارى فى مجلس منادمة كان هو أحد حضوره) على سورة « الحشر » فإن فى نفسى أشياء من هذه الرواية : إذ ما العلاقة بين شعر غزلى خمري وسورة « الحشر » ؟ إنه لا الموضوع واحد ، ولا العبارات والفواصل مثلا متشابهة ، كما هو الحال فى مدحته لسفيح بن عمرو ، إذ وردت فى قوافيها كلمات مشتركة مع بعض فواصل سورة « مريم » (٥٥) . ثم لماذا سورة « الحشر » بالذات ، وهى فى يهود بنى النضير وجلاتهم عن ديارهم وخذلان المنافقين لهم ؟ لو قالت الرواية إنه فضل شعره على القرآن

بوجه عام لكان للتهمة شيء من المعنى . كذلك فإن عهدنا بمن اتهموا بمحاولة معارضة القرآن أو مقارنة كلامهم به أن يكون كلامهم هذا نثرا مسجوعا لا شعرا .

والطريف أن بشارا ، المتهم بالزواية على القرآن وتفضيل شعره على سورة منه ، هو نفسه الذى يحكى (فى رواية الشريف المرتضى) أن حماد عجرد قد أعلن فى جمع من الناس أن شعره أفضل من القرآن (٥٦) . وواضح أن الأمر مملوء بالتضارب . وأغلب الظن أن هذا كله ليس إلا شائعات مختلقة كان الناس يرددونها دون تثبيت .

كذلك فإن تعلل بشار فى شعره (حسب تفسير إحدى الروايات التى مر ذكرها) بأنه وإن كان يعرف أن الكفر الذى هو فيه وأمثاله خذلان فإنه لا يستطيع أن يختار طريقا آخر غيره هو كلام لا يجوز فى العقل . ذلك أن الأبيات الشعرية التى أوردتها الرواية لا تتحدث عن الفكر والاعتقاد بل عن الطبع والعطايا والمواهب التى يتفاوت فيها الناس . ثم إن بشارا ، حسبما تقول الرواية ، قد اعترف بأن الإلحاد الذى هو فيه خذلان ، وهذا الاعتراف هو نفسه دليل على أنه قد أقرّ بخطئه ، فأين الجبر هنا إذن ؟ فأمّا الأبيات فهل هناك من يعترض على ما جاء فيها من أن كثيرا مما فينا من طباع وما نأتيه من تصرفات وأفعال لا نستطيع إزائه شيئا رغم نوايانا المخلصة وورغبتنا الجادة فى معظم الأحيان أن نغيّره إلى أفضل منه ؟ وبشار نفسه ، هل حُيّر فيما رُوى به من عمى وقبح وجه وضخامة جثة مثلا ؟ وانفعاليته الحادة الجامحة فى كثير من المواقف ، هل كان دائما راضيا عنها ؟ وهل كان يمكنه أن يغيرها ؟ وهل استشير الرجل قبلا فى أن يكون مولّى يحتقره بعض الأعراب الأجلاف ويؤذونه رغم ثقافته الواسعة العميقة وموهبته الشعرية الرفيعة ؟ ربّما قيل إن بشارا قد عمّم الكلام وجعل كل ما فيه مفروضا عليه فرضا ، ولم يحترز فيجعل بعضه كذلك وبعضه من صنعه هو . بيد أن قائل ذلك ينسى أن هذا شعر لا بحث فى الفلسفة وعلم النفس والاجتماع ، وأن الشاعر قد قاله فى زفرة كمد وغضب . فهذا هو ما أراه فى هذه

الآبيات . أما القصة والحوار اللذان أُوردا مهاذاً لهذا الشعر فإنتى أحسب حسابنا قويا
أنهما قد ألصقا به إلصاقاً ، إذ لا صلة بين الإلحاد الذى جرد فيه الشاعر وبين ما
تتحدث عنه الآبيات من طباع الشخصية وتفاوت عطايا الله سبحانه لعباده .

ومع هذا جميعه فإنتى لا أعتقد أن المهدي قد أخذه الندم على قتله بشاراً فأراد
أن يجد فى أوراقه التى خلّفها وراءه شيئاً يمكن أن يسوّج به فعلته فلم يجد . فمتى
كان الخلفاء فى ذلك الوقت يبالون بشيء من هذا ؟ ثم هل كان بشار هو الشخص
الوحيد الذى قتله المهدي ، سواء بسبب الزندقة أو بسبب الإباحية التى قالوا إن الشاعر
كان يدعو إليها فى شعره ؟ وهل كان من تقاليد ذلك العصر عند الأدباء أن يكتبوا
يوميّاتهم وخواطرهم ، وبخاصة إذا كانوا مكفوفى البصر كبشار ؟ بل متى كان لبشار
كاتب خاص يسجّل أفكاره ؟ وعلاوة على ذلك فإن ما جاء فى هذه الحكاية من أنهم
وجدوا فى أوراقه أنه لم يشأ أن يهجو قومًا قربانهم من رسول الله يعارضه أنه هجا
المهدي وغيره من العباسيين وهم أيضاً أقرباء رسول الله عليه السلام . ثم إن المهدي ،
حسبما تقول الرواية ، قد بكى من الندم وأبدى حنقا شديدا على يعقوب بن داود ودعا
عليه لأنه لفق على الشاعر شهودا كذبة شهدوا بزندقته فقتله (٥٧) . فلم لم يعاقب
المهدي وزيره المضلل إذن ما دام ندمه قد بلغ هذا الحد ؟ لقد فات من يريدون البحث
فى عقيدة بشار ممن اتهموه بالكفر أن يبحثوا فى شيء آخر خلّفه وراءه فعلاً لا وهماً
وكان يمكن أن يهديهم فى هذا السبيل إلى ما يبغون . ذلك الشيء هو شعره ، إذ هو
النصّ الوحيد الذى يمكننا أن نظمّن إلى أن بشاراً قد قاله حقاً . أمّا ما نسب إليه
من حكايات وأقوال فليست لها هذه الوثاقّة ، وبخاصة إذا عورضت بحكايات وأقوال
أخرى تثبت عكس ما اتّهم به . لقد فعل ابن قتيبة وابن المعتز ثم الشيخ الطاهر بن
عاشور شيئاً من هذا ، بيد أن الأوّلين قد اعتمدا على نص واحد لا غير ، والثالث وإن
توسع بعض الشيء فإنه لم يستقص كل شعر الشاعر ، إذ لعلّه أن يكون فيه من جهة

أخرى دليل على ما زُنَّ به من إلحادٍ .

وقبل أن ننظر فى شعره نحب أن نورد الروايات الأخرى التى تدل على صحة إسلامه ، وكلها من « الأغانى » : من ذلك أن قومًا كانوا فى بيت بشار وفيهم رجل يجادل فى فضل اليمانية والمضربة ، فأذن المؤذن ، فطلب منه بشار أن ينصت إلى الأذان ، فلما بلغ المؤذن قوله : « أشهد أن محمدا رسول الله » سأله بشار : « أهذا الذى نودى باسمه مع اسم الله عز وجل من مُضَّر أم هو من صُداء وعكّ وحمير ؟ » ، فعندئذ سكت الرجل (٥٨) .

وعلى ذكر النبى عليه الصلاة والسلام فقد كان لبشار ابن اسمه « محمد » (٥٩) . ترى لو كان زنديقا يحقد على الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويعمل على تقويضه وزواله أكان يفكر فى اتخاذ اسمه الكريم لابنه ؟ وقد ورد فى « الموشح » للمرزبانى عن عمر بن شبة أنه قرأ شعر بشار (بعد أن اشتهر العباس بن الأحنف) على محمد بن بشار بن برد (٦٠) . فإذا صحَّ هذا كان معناه أن بشارًا ، بعد أن مات له ابنه الصغير محمد ، عاد فسَمَّى ابنه الذى وُلد له بعد ذلك « محمدا » أيضا ، ويكون هذا دليلاً آخر قويا على حبه وإجلاله للرَّسول عليه السلام .

كذلك فإن ردّه التالى ، وهو فى قمة فورة الغضب ، على عقبة بن ربيعة حين تحداه بأنه لا يحسن مثله أن يقول الرجز ، يدلُّ على إيمان بأن الله فضل أهل البيت على سائر الناس . وهذا لا يكون إلا من مسلم يؤمن بالله ورسوله والقرآن . لقد خرج بشار من المجلس غاضبًا وفى نيته أن ينظم رجزا ينطح به رجز عقبة ويفحمه فقال له هذا : أتستخف بى يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ؟ فكان رد بشار : « فأنت إذن من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (٦١) . لقد قال بشار هذا وهو فى سورة الغضب الشديد ، أى أنه قاله بلا تفكير ولا تدبير ،

فهو من ثم برهان على أنه قال ما يعتقد في قلبه .

وقريب من هذه الحكاية وهذا الرد ما جاء من أن اثنين من معارف بشار كانا يتفاخران ، فسبَّ أحدهما الآخر بأمه وأطال ، فلما رَدَّ الثاني يدافع عن نفسه هاج الأول وماج ، فاستغرب بشار أن يلحقه هذا الهياج لكلمة واحدة رَدَّ بها ذلك على سبابه الكثير لأمه . فقال الرجل لبشار : وهل أمه مثل أمى يا أبا معاذ ؟ فضحك بشار قائلاً (وهنا مغزى إيرادى هذه القصة) : « والله لو كانت أمك أم الكتاب ما كان بينكما من المصارمة هذا كله ! » (٦٢) . فهذا الرد السريع الساخر يشيء بيايمان بشار بالقرآن وتبجيله إياه ولام الكتاب .

على أن ذكر آل البيت يدعونى إلى التوقف قليلا عند الذى قيل عن تشيع بشار ورفضه . فثمة ثلاث روايات فى « الأغانى » تنقض هذه الدعوى :

أولى هذه الروايات ما حكى من أن بشارا لما سُئِلَ عن معنى « النحل » فى قوله تعالى : « وأوحى ريك إلى النحل أن اتخنى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كُلِّى من كل الثمرات فاسلكى سبل ريك ذُلًّا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ... » (٦٣) كان جوابه أنها « النحل التى يعرفها الناس » ، فأنكر السائل عليه هذا التفسير وأكد أن النحل فى الآية هم بنو هاشم ، وأن الشراب الذى يخرج من بطونها هو العلم ، فما كان من بشار إلا أن صغعه بهذا الرد الذى يغنى عن كل دليل فى نفي دعوى تشيعه ورافضيته . قال : « أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم فقد أوسعنا غشاة » ، فغضب الرجل وشمم بشارا (٦٤) .

وتتلخص الحكاية الثانية فى أن أحد أصحاب بشار كان يمازحه حول ذهاب بصره وما يمكن أن يكون قد عوّضه الله عنه ، فقال له بشار إن الله قد عوضه عن فقدان نور عينيه بألا يراه هو وأمثاله من الثقلاء . ثم نصحه بأنه إذا كان قد تاب

من سرقة الحمير وتحول رافضيا فإن الأفضل له أن يترك الرفض ويعود سيرته الأولى من سرقة الحمير « (٦٥) .

أما القصة الثالثة فهي أن بشارا قد نفى الشاعرية عن الكميت (والكميت من كبار شعراء الشيعة) ، فلما أنشد أمامه بيتان من شعره دليلاً على أنه يقول الشعر الجيد كان رده على المعترض عليه : « أتري رجلا لو شرط ثلاثين سنة لم يُسْتَحَلَّ من شرطه ضرطة واحدة ؟ » (٦٦) . فانظر كيف حقر الكميت ولم يعترف له بالشاعرية . ثم انظر ثانيا كيف يرى شعر الكميت كله ضراطاً ، وشعر الكميت كما نعلم معظمه في التشيع . فهل يمكن أن يقول هنا شيعي ؟ لقد كان كاتب مادة « بشار » في « Enclopaedia of Islam » على حقّ حين نفى عن بشار دعوى تشييعه اعتماداً ، كما قال ، على تحفظاته نحو الكميت والسيد الحميري . بيد أن كلمة « تحفظات » هذه أقل كثيراً جداً مما ينبغي أن يقال في موقف بشار من الكميت كما شاهدنا .

والآن إلى شعره . ولكن قبل النظر فيه ينبغي أن نجيب على اعتراض من المتوقع أن يُطرح ، إذ يمكن أن يقال إن معظم شعر بشار قد ضاع ، فقد رُوي عنه أن له اثني عشر ألف قصيدة (٦٧) . فإما أن شعرا كثيراً لبشار قد ضاع فهذا أمرٌ من السهل إدراكه من مجرد النظر إلى ما طبع من ديوانه ، الذي وقف في أثناء حرف الراء (في الغالب في أواخر هذا الحرف) . ولكن هذا لا يعني أن آلاف القصائد له قد ضاعت ولا حتى أن الذي ضاع هو معظم شعره فمن غير المعقول أن يكون بشار قد نظم اثني عشر ألف قصيدة ، وإلا لكان معنى ذلك أنه ظل ينظم ، على مدى بضع عشرات من الأعوام ، كل يوم قصيدة . وهذا ، كما لاحظ د. نجيب البهيبتي بحق (٦٨) ، لا يمكن أن يكون ، فالشاعر ليس آلة لإنتاج الشعر . ولكن يمكن أن يُعترض مع ذلك بأنه ربما كان في الشعر الذي ضاع ما يثبت إلحاد بشار وزندقته . ورداً على ذلك نقول إنه لا يعقل أن يتصادف أن يكون شعر الشعر الإلحادي قد تجمع

كله فيما بعد حرف الراء . وحتى لو أمكن تصادف ذلك ، فلماذا لم يورده من اتهموه فى عقيدته وأنكروا عليه من معاصريه ومن أعقبهم ؟ لقد لاحظنا أنهم لم يوردوا له إلا نصين مبتورين من سياقهما فى تفضيل النار على الأرض ، وقد استبعدنا على الأقل نصًا منهما ، وهو الأطول المكون من بيتين ، ورأينا أن الثانى لا يدل بالضرورة على مجوسية وإلحاد ، بل هو نسي الغالب (إذا صح أنه له) قد أريد به المغايظة والكياد لإثارة من حوله والتلذذ برؤيتهم غضابا ساخطين . وعلى أية حال فقد استطاع الشيخ ابن عاشور أن يجمع له شعراً آخر بعد حرف الراء وعلى الحروف التى تسبق حرف الراء ، فلم يوجد فيها (بغض النظر عن هذين النصين) ما يدل على زندقة .

وبعد ، فهذه نصوص من شعره ، ومعظمها فى الهجاء والغزل ، وهما الغنآن اللذان لا يتعمل فيهما الشعراء مراعاة التقاليد الاجتماعية والدينية أو ترديد ما يتوقعه منهم الآخرون كما هو الحال مثلا فى المديح ، الذى لم أتوسع فى الاستشهاد به :
 إن بشارا يؤكد أن الله هو المحيى والمميت ، إذ يقول عن نفسه مثيراً عطف حبيته عليه :

ما تأمرين بعاشق عى الطيبُ به وطئُه ؟
 قدمات أو هوميت إن لم يعاف الله رُبه (٦٩)
 كما أنه هو المانع المانع :

ما للفتى غير ما أعطى الإله ، وما
 يمتنع فذلك شىء غير موجود (٧٠)

* * *

فانهض بجدّ أو أقم منتظرا سيب الإله ، فإنه مقدور (٧١)

* * *

قالت : ولا ذنب لى إن كنتُ جارية قد خصنى بالجمال الخالق البارى (٧٢)
 وهو يقرّ له سبحانه بالوحدانية :

هذا مقالى لكم ، والله يرشدكم ويعلم الله رضى الواحد الصمدُ

أن قد نصحتُ لكم بالجود من جدتي وهل تجود يد إلبما تجد؟ (٧٣)
وبأنه يقول للشئء : « كن » فيكون :

درة حيثما أديرت أضعاء ومشمّ من حيثما شمّ راحا
وجنّات قال الإله لها : « كو نى » فكانت رُوحا ورُوحا وراحا (٧٤)
كما أنه يذكّر حبيبه بأن الله تواب يقبل توبة العائدين :

وأتوب مما تكرهين لتقبلى والله يقبل حسن فعل التائب (٧٥)
وهو يعلن أن الله هو وحده مولاه لا هذا الفريق أو ذاك من البشر ، وأن أحدا
لا يساميه سبحانه ، فهو أجلّ من كل جليل وأكرم وأكبر :

أصبحت مولى ذى الجلال ، وغيرهم مولى الثرّيب ، فخذ بفضلك فافخر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر! (٧٦)
وهو يعود به سبحانه إذا عرض البلاء :

هجرتُ الآتسات ، وهن عندى كماء العين فقدّهما سواء
وقد عرضن لى ، والله دونى أعوذ به إذا عرض البلاء (٧٧)
وهو حريصٌ على حكاية ما قالته له ، فيما يبدو ، إحدى حباته فى رسالة
بعثت بها إليه :

أعيذك بالرحمن من دحس حاسد ينام وما نامت بلبيل عقاربة (٧٨)
وقد لاحظتُ أنه يكثر من الإشارة إلى النبى عليه الصلاة والسلام فى شعره ،
مما يدل على امتلاء ذهنه وقلبه وضميره به ، فإن الإنسان لا يلهج بذكر بشئء إلا إذا
كان هذا الشئء شغلاً شاغلا . قال مثلاً يهجو أحد العباسيين :

نعم الفتى من قرئش ! لا ندافعه عن النبى ولو كان ابن كلاًم (٧٩)
وفى مديح رجلٍ آخر من العباسيين يقول :

دم النبى مشوب فى دمانهمو كما يخالط ماء المزنة الضرب (٨٠)
وفى مدحه لروح بن حاتم أحد ولادة المهدي :

- هو ذَبَّوا عن عَظْمِ دين محمد . بأسياقهم إذ ليس فينا مذنبُ (٨١)
ويقسم على شدة حبه بانه ، إحدى حبيباته ، قائلاً :
- والله رب محمد . إنسى بيانة مُعَجَّبُ (٨٢)
ويقول مفتخراً بدور الفرس في تحويل الملك من البيت الأموي إلى العباسيين
« أهل النبي العربي » كما يسميهم :
- حتى رددنا الملك في أهل النبي العربي (٨٣)
وفي مدح المهدي نراه يقول :
- عهد النبي وسمت القائم الهادي . إن لهم
نفسى الفداء لأهل البيت ، إن لهم
...
إنسى لَعَادِ فمستأدٍ ومنتجعٍ
يا رهط أحمد ، ما زالت أمتكم
...
منكم نبي الهدي يقرؤ محاسنه
ويقول هاجياً أبا هشام الباهلي :
- وجنت (٨٥) حتى ما تصلى ركعة
ويعمد المهدي قائلاً :
- أبناء ذى التاج ذو رُعَيْنِ ورهـ
ويكثر في شعره ذكر القضاء والقدر والتسليم به ، مثل
فوقهم بِشَرُّ (٨٧) عـ المصطفى ليس فوقهم بِشَرُّ
- من غدٍ . لا بد من مَرِّ القضا (٨٨) وفؤادى كجناحسى طائر
- * * *
فارض بالقسمة من قسامها يُعْدِمُ المرء ويفقدو ذا نَسْراً (٨٩)
* * *
وما ذنب مقدور عليه شقاؤه من الحب عند الله فى سابقِ الكُتُبِ (٩٠)
* * *

سبقت إلى الشام ، وما ساقها إلا الشقا والقدرُ الجالبُ (٩١)

* * *

لا تُجبلُ القدرُ المكتوبَ مَوْتَهُ فاستأن . لا يسبقُ العجلانُ ما طلبا (٩٢)

* * *

ولو متَّ كان الموتُ خيرَ من الشقا وما للفتى مما قضى الله مخرج (٩٣)

* * *

لا يُعبدُ الناسُ ما يدنو القضاءُ به ولا يقرّنه شيءٌ إذا بقُدا (٩٤)

* * *

غى الفتى ورشده مقدورُ (٩٥)

* * *

لا تلوموا ، بنى سلامة ، فيما قدرَ الله للفتى تقديرا (٩٦)
وإذا كان التركيزُ فى هذه الآيات على أن القدر لا يغالب ، بما يوحى بعجز
الإنسان تماما أمامه ، فذلك لأن هذا الشعر كله هو فى وصف آلام العشق التى يشعر
المحبون بالعجز المطلق أمامها وأن عليهم اصطلاها فى يأس . ثم إن الحب أصلا إذا
غزا قلب إنسان فليس عن اختيار من صاحب القلب يكون ذلك ، بل على رغم أنفه
وإرادته .

وفى ملك الموت ، وعذاب القبر ، والبعث والحشر ، وظلّ العرش ، والجنة نقرأ
له هذه الآيات على سبيل الاستشهاد والتمثيل :

وبدا لى ملك الموت يغشيني وفاتنى (٩٧)

* * *

والله والله ما جتته لعمدٍ وما كان من همتى

وإلا فممتَ إذن ضائعا وعذبنى الله فى ميتتى (٩٨)

* * *

فما تشفى عيناى من دائم البكا عليك ولو أنى بكيتُ إلى الحشر (٩٩)

* * *

وعجيبٌ نكحَ الكريم ، وللنفـس معاذٌ وللحياة انتضاءُ (١٠٠)

* * *

إن في الحشر والحساب لشغلا عن وقوفٍ بكل رسمٍ مُحيل (١٠١)

* * *

فأذكرني ، ذُكرتِ في ظلِّ العرشِ بغير ، تفرجي بعض كربي (١٠٢)

* * *

ظللنا بذاك الديدن (١٠٣) اليوم كله كأننا من الفردوس تحت خلود (١٠٤)

* * *

جنية الحسن مرتجٍ روادفها كأنها من جوارى الجنة الخُلدِ (١٠٥)

* * *

إن البخيلة لو يميل بها الصبا كالقنو مال على أبي الدحداح (١٠٦)
وهو إذا أبدى ، أو أبدى غيره على لسانه ، إعجابا فكثيرا ما يكون سبيل
التعبير عن ذلك هو التسبيح بقدره المولى جلَّ وتعالى :

إذا رآها نساء الحى قلن لها : سبحان من صاغها ! يفرقن إطنابا (١٠٧)

* * *

وتقال الأرداف مهضومة الكشاح كفضن الرياحان يهتز رطبها

إن أمتَّع بها فيا نعمة الله ! وإن ينحرم فويلي محبا ! (١٠٨)

* * *

ولمَّا جلاها الشمع سبَّح ناظرٌ وكبَّر رقاد وسار فأرهبوا (١٠٩)

* * *

وخدَّ أسيل ، وكفَّ إذا أشارت لقوم بها سبَّحوا (١١٠)

* * *

تلقي بتسيحة من حسن ما خلقتْ وتستفز حشى الرائي بارعادِ (١١١)

* * *

سبح خليلي وقل: يا حسن تصويرا راحت سليمي تهادي في المقاصير (١١٣)
ويلحق بذلك هذه الأبيات التي يبارك فيها الله ويكبره ويسبّحه ، ولكن في سياق آخر غير سياق الإعجاب بالجمال :

تبارك من ألقى وجهي بوجهه ومن خلق الخنزير والكلب والقردا (١١٣)

* * *

كبرت لما رأيت الصبح منبلجا يحدو توالى جون بان أو كادا (١١٤)

* * *

سبحانك الله ! لو شئت امتسختهما قردين فاعتلجا في بيت قراد (١١٥)
وهو يدعو الله دعاء المؤمن الضارع :

فدعوت ربي دعوة جمعت رغب المحب وشدة الرغب
ألا نراك بنا متيمة فأجاب دعوة عاشق ربي (١١٦)

* * *

حدثتني العيون عنها لخالف المصلى أدعو إلهي مكيا
كدعاء المكروب في لجة البحر ينادى الرحمن رغبا ورهبا
فاستجاب الدعاء واستوجب الشكر إله قريب أزداد قريبا (١١٧)

* * *

وانى لأهواها ، وإن كنت كاذبا فلا رُفعت في الصالحين صلاتي (١١٨)

* * *

جزى الله عن قومي سفيحا كرامة وعن رجل يهدى له الحمد والودا (١١٩)
ويستشهد الله على ما هو فيه من تباريح الحب :

ريم ، قد تبنت وطالت عشرتي شهد الله ، ودعمي شهدا (١٢٠)

وعلى أنه لم يأت ما يلام عليه :

أيها اللانمى ولم أت بأسا يشهد الله والثلاث الشهود (١٢١)

ويبث تشكواه إلى الله :

إلى الله أشكوه حلجته فقد تقامت
عقل حمدت في القلب غير مؤيب (١٢٣١)

دفعلى حبيى (١٢٣٢) عيوبلى
وإلى اللسان شكاتى (١٢٣٤)

دفعلى اللسان شكنا
وى مع اللسان اللجوى (١٢٣٥)

أشكوه إلى اللسان شوقا لا يفقر طيبى
ووشوقا فى سواد القلب شطوط (١٢٣٦)

إلى الله أشكوه أن بالقلب كبرية
من الشوق لا تقلى ولا تشوق (١٢٣٧)

وهو كثيرا ما يذكر تقوى الله . فيقول نوى عفاقة التقوى يوم القليقة :

ومرأسة التقوى طحت سوت
كبرم الحصاد . ومن اللسان حبيى (١٢٣٨)

ويقول فى رثاء ابنه محمد . والصبر على بليقة موهه :

صبرت على خير الفتوى وثقت
وأولمولا لقتناء اللسان طال . نجيبى

...

ووفى كل يوم غيرة لا أبيضها
لا تظنى بصير . أو حطد ذنبوب (١٢٣٩)

ويقول لجليلته صغارا لا ترفيق قلبها
ولست بجلاب حبها :

ذقت لى اللسان حبيى وحبوى
بمفلساء العاشوق . ككروى

...

ترثى لمرأسة اللسان فى موهه
يلبس لما قد دخلت بالاعتبيز (١٢٤٠)

أما فى البليت اللسان فله من يصح ما إن تقوى الله هى التى دفعه دور وحيته من

الإلام بالإلم :

دفعلى التقوى واحتمو ووجت شبيبة
نعتد هنا لى بيننا رومنا لى (١٢٤١)

وتراه فى البليت اللسان ريز الحلى
أمرأة افتخرت على رابتة رقة :

لشتان ما بينى وبينك فى التقى وفى الحسب الزاكى وفى العيش والحفد (١٣١)
ويقول متعزياً عن عماء :

إذا أصر المرء المروءة والتقوى فلن عمى العينين ليس يضيرُ (١٣٣)
ويقول فى مغنية واصفاً المتعة النفسية التى يجنيها سامعوها من صوتها الرائع
الجميل :

لعوب بألباب الرجال ، وإن دنت أُطيعَ التقى ، والفقى غير مطاع (١٣٤)
ويكثر صدور المعانى الإسلامية فى شعره صدوراً طبيعياً لا مراعاة فيه ولا
تكلف . يقول مادحا عمر بن أبى هبيرة ومشيراً إلى بلائه فى محاربة المارقين الضلال :

قود المطايا بعمى مارقٍ عوتب فى الله فلم يُعْتَبِ (١٣٥)
وفى مدح أحد العباسيين نجده يقول :

أبناء أملاك من صلى لقبلتنا فكلهم مَلِكٌ بالتاج معتصبُ (١٣٦)
وفى الكلام عن قلبه وهمه يقول واصفاً ما يلقاه فى الحب بسبيهما :
قد كلفانى عملاً خائباً وعامل الله الذى لا يخيبُ (١٣٧)
ويقول فى سياق آخر :

وما خاب بين الأجر والحمد عامل له منهما عند العواقب زادُ (١٣٨)
وفى التذكير بالموت وأن الله لا يغفل أبداً يقول :

خليلى ، إن الموت ليس بناهل وليس الذى يَهْدِي المنايا بغافلِ (١٣٩)
ويقول مذكراً بيوم الحساب ، يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة إلا من أتى الله
بعمل تقى سليم :

خليلُك ما قدمت من عمل التقى وليس لأيام المنون خليلُ (١٤٠)
وليست المعانى الإسلامية وحدها البارزة فى شعر بشار بل الصور المستمدة من
الإسلام وعقائده وعباداته وشعائره كذلك . وهذه أمثلة على ما نقول :
حسدتى حين أصبتُ النفسى ما كنتُ إلا كابن حواءِ

لا قى أخاه مسلما محرما	بطعنة فى الصبح نجلاء (١٤١)
* * *	
مثل المصلّى الساجد الثواب (١٤٢)
* * *	
.....	وكان الرباب أم الكتاب (١٤٣)
* * *	
لا تخافى على مكانك عندى	عوض ما هلل الحجيج ولئى (١٤٤)
* * *	
لوت حاجتى عند اللقاء ، وأنكرت	مواعيد قد صامت بهن وصلت (١٤٥)
* * *	
وأنت الحجر الأسـ	سود لو يخلسو لقتلتك (١٤٦)
* * *	
لها هفتات حولها يستلمنها	كما استلم الركن النواسك بالراح (١٤٧)
* * *	
يمشى النعمام بجوها	مشى النساء إلى المساجد (١٤٨)
* * *	
وذكرت من رمضان آخر ليلة	طلعت كواكبها على سعودا
إذ نلتقى حلقا ونسرق الهوى	سرق العفارىت السماع مذودا (١٤٩)
* * *	
يغدو الخليفة مره وما نطيف به	كما يطيف بييت القبلة الحادى (١٥٠)
* * *	
كاننى إذا ما أطممت فى لقائها	على دعوة الداعى إلى جنة الخلد (١٥١)
* * *	
يا رب ، إنى عشقت رؤيتها	عشق المصلين جنة الخلد (١٥٢)

* * *
عشقتُ فاهَا وعينيها ورؤيتها عشق المصلين جناتٍ لأبرارٍ (١٥٣)

* * *
وكأنها بـرد الشـرا ب صفا ووافق منك فطراً (١٥٤)

* * *
وجارية خلقت وحدها كأن النساء لديها خدم
دُوار العذارى ، إذا زرنها أطفن بحوراء مثل الصنم
يظنن يمسحون أركانها كما يمسح الحجر المستلم (١٥٥)

* * *
يطوف العفاة بأبوابه كطوف الحجيج بيت الحرم (١٥٦)

* * *
ختم الحب لها فى عنقى موضع الخاتم من أهل الذم (١٥٧)

* * *
كأنها يوم راحت فى محاسنها فارتج أسفلها واهتز أعلاها
حوراء جاءت من الفردوس مقبله فالشمس طلعتها والمسك رثاها (١٥٨)

ومع ذلك ، فلا بد من الاستدراك بأن بعض صورته فى وصف جمال محبوبته تقوم

مثلا على تشبيها بالصليب الذى يقده النصارى أو الصنم الذى يعبد الجاهليون :

فقد شغفتُ بـجها شغف النصارى بالصليب (١٥٩)

* * *
الا يا صنم الأزد الذى يدعونه رثا (١٦٠)

* * *
أنا مشغوف بـسلمى كالنصارى بالصليب (١٦١)

* * *
فلستُ بسالٍ ماتتت حمامة وما شاق رهبانَ النصارى مسيحها (١٦٢)

تفدو ثَقَالًا ، وتُؤسَى في مجاسدها كأنها صنم في الحقِ معبودٌ (١٦٣)

من كل مقبله الشباب كأنها صنمٌ لأعجم لا ينسى معبودا (١٦٤)
على أن مَتَّحَهُ من الإسلام لا يقتصر على الصور ، إذ هو كثيرًا ما يقتبس من القرآن الكريم والحديث الشريف بعض تعبيراتهما أو يستلهمها، مثل :

وإن تَعَلَّسْتُ إلى زُلْمَةٍ أَكَلْتُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ (١٦٥)

ألم أَرْتَن تاجِكَ الذَّقِيَا

بِالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ تُحَيِّي (١٦٦)

فزار غَبَا كى يُزَاد حُبَا (١٦٧)

فى جنان خُضِرٍ وقصر مشيدٍ قيصري حفت به الأعنابُ (١٦٨)

وَكَلَّتْ بِسَى جَارَتِى أَسْهُودَةٌ شَرًّا مَا وَكَلَّ بِالْجَارِ الْجُنُبُ (١٦٩)

دعهن للمسهب الضليل مورده يا قلبُ، كل امرئ رهن بما اكتسب

قد حصص الحق وانجابت دجنته وعرض الجهر شطريه لمن حلبا (١٧٠)

كل امرئ رهن بما يؤدى (١٧١)

ما العيش إلا لحمد أبي عمير لم يدر أن له ربا بمرصاد (١٧٢)

فَبَسَّسَ الْوَرْدَ بِأَلْفِهِ الْوَرُودَ (١٧٣)	فَقَدَّتْ الْحُبَّ مِنْ شَرِّعٍ لَصَادٍ
*	* * *
بِحَرْبٍ إِلَى أَنْ يُقْعَدَ الْحَرْبَ مَقْعَدًا (١٧٤)	إِذَا آذَنَتْهُ الْحَرْبَ آذَنَ نَوْمِهِ
*	* * *
وَلَمْ أَجِدْ عَنْ جِوَارِ فَيْكِ مَلْتَحِدًا : (١٧٥)	فَقَلَّتْ إِذَا شَهِدْتَ عَيْنِي بِحَيْكَمِي
*	* * *
مِنَ الشُّوقِ أَوْ صُنِّعَ التَّوَانِثُ فِي الْعَمْدِ (١٧٦)	كَأَنَّ فِرَّادِي نَفْسِي خَوَانِي حَمَامَةٍ
*	* * *
وَبَيْتِكَ بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى الْعَمْدِ (١٧٧)	مَقَامِكَ مَغْمُورٍ ، وَأَنْتَ مَدْفَعٌ
*	* * *
وَلَمْ تَسْتَحْيِ قَاصِنِعَ مَا تَشَاءُ (١٧٨)	إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي
*	* * *
عَلَى عِبْدِهِ حَتَّى يَغْيَرَهَا الْعَبْدُ (١٧٩)	أَيُّ مُسْلِمٍ ، مَا غَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَةً
*	* * *
يَهْوَاكَ حَتَّى تَقْعَ الْوَاقِعَةَ (١٨٠)	يَا عَبْدَ ، خَافَى اللَّهُ فِي عَاشِقٍ
*	* * *
كَمَا مَاتَ عَرُوةَ غَمًّا بِغَمِّ (١٨١)	وَقَالَتْ : هَوَيْتَ ، فَمَتَ رَاشِدًا
وَفِي الْبَيْتِ التَّالِيِ يَتَحَدَّثُ عَنْ بَرَكَةِ الْقُرْآنِ فِي فَكِّ السَّحْرِ :	
عَنِّي بِحَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ مَكْتُوبِ (١٨٢)	يَرْمُونَ قَلْبِي بِأَسْحَارٍ ، وَأَمْحَقُهَا
وَهُوَ إِذَا أَقْسَمَ فَكَثِيرًا مَا تَلَوْنَ قِسْمَهُ تَلَوِّنَاتٍ إِسْلَامِيَّةٍ وَاضِحَةٍ مَأْخُودَةٍ مِنْ	
	شَعَائِرِ الدِّينِ ، وَبِخَاصَّةِ شَعِيرَةِ الْحَجِّ :
شَعْنًا أَسَارِيْبَ خَلْفَهَا سُرْبٌ	إِنِّي وَمَنْ لَيْسَتْ الرِّفَاقُ لَهُ
ذَيْبَعًا ، وَلَكِنْ أَطَاعَنِي التَّجْبُ (١٨٣)	مَا جِئْتُ سَلْمَى طَوْعًا لِتَجْعَلَنِي
*	* * *

إنسى والمقام والحجر الأسود والبيت مشرفا كالسحابة
أشتهى أن أدس قلبك فى التراب لكى تصحى بنا كالمصابه (١٨٤)

* * *

لا ، ومن سبح الحجيج له ، ما كان ظنى اتقاء عين الرقيب (١٨٥)

* * *

والله رب محمد إننى بيانه معجب (١٨٦)

* * *

والله رب محمد ما إن غدرت ولا نوتته (١٨٧)

* * *

يا عبده ، أقسم بالذى أنا عبده وله المقام وما حوت عرفات (١٨٨)

* * *

حلفت بمن حج الملبون بيته وبالخيف والرامين للجمرات

لتقبيل خديها ومص لسانها الذى من الباكين فى عرفات (١٨٩)

* * *

ولقد حلفت برب مكة والمحلقه السواجد

ما نال فضل بنى المهله ب منذ كانوا جود جاند (١٩٠)

* * *

إننى حلفت أليه صدقت بفناء بيت الواحد الصمد

لتركتنى صبا يحكمو وقتلتنى (قتلا؟) بلا قود (١٩١)

* * *

حلفت بالقبلة البيضاء مجتهدا وبالمقام وركن البيت والشور (١٩٢)

* * *

حلفت بمنحر البندن الهدايا وأحلف بالمقام وبالجمار (١٩٣)

أما الآيات الآتية فى بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعل فيها

ردًا على من شنّوا على الشاعر أنه كان يعتقد بكفرهم بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، إذ لا يذكرهم فيها إلا بكل احترام وتجلّة :

ساقى الحجيج أبوه الخير ، قد علمتُ عُلْيَا قريش ، له الغايات والقَصَبُ

...

والفضل عند ابن عباسٍ تُعَدُّ له في دعوة الدين آثَارٌ ومُحْتَسَبُ (١٩٤)

* * *

يهز أبا الفضل بها أولى قريش بالنبي (١٩٥)

* * *

وما كنت إلا كالأصم ابن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقي له حمدا (١٩٦)

* * *

بنى لك عبد الله بيت خلافةٍ نزلت بها بين الفراقد والنُسُرِ (١٩٧)

* * *

وأبقى لك العباس يوماً مشهراً إذا سرّته في الذكر جلّ عن الذكر (١٩٨)

* * *

لنا بطحاء مكة والمصلّى وما جاز المحصّب والجمارُ

وميراث النبي وصاحبيه تلامدا لا ياع ولا يعار (١٩٩)

ولعل في شعر بشار الذي يؤكد حق العباسيين في الخلافة وينقض دعوى من يخالفهم دليلاً على أنه لم يكن يعتقد بأحقية عليّ فيها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى أنه من ثمّ لم يكفّر الصحابة بحجة أنهم ، كما يقول الشيعة ، قد غصبوا عليا حقه ، ولا كفّر عليّا لتركة المطالبة بهذا الحق . وفي الشاهد التالي كفاية عن ضرب أمثلة أخرى . قال في المهدي :

بنى لك عبد الله بيت خلافةٍ نزلت بها بين الفراقد والنُسُرِ

وعندك عهد من وصاة محمد فرعت بها الأملاك من ولد النضر

ورثت عليّا (٢٠٠) شيمه أريحية وصنت ابن عباس وأيدت بالشكر

وأحرزت ميراث النبى محمد على رغم قوم ينظرون على دَعْر (٢٠١)
ويبقى إبليس ، الذى اتُّهم بشار أنه آثره على آدم وفضل النار التى خُلِق منها
على عنصر الطين الذى صُنِع منه جِلّ البشر . وقد وجدت لبشار أبياتا يتحدث فيها
عن النار وأخرى عن الشيطان والجنّ ، وكلّها تتم عن أن اعتقاده فيها هو اعتقاد
المسلمين .

فأمّا النار فهى فى الدنيا هذه النار العادية التى نستخدمها فى أغراضنا
اليومية ويشبّه المحبون بها آلامهم التى تكويهم وتحرق أكبادهم ، وفى الآخرة هى النار
التى أعدها الله للكفرة والعصاة . ومن ذلك قوله :

وبتّ بحاجة فى الصدر منها تَحَرَّق نازُها بين الحجاب (٢٠٢)

* * *

ماء الصبابة نار الشوق تحرقه فهل سمعتم بماءٍ فاض من نار؟ (٢٠٣)

* * *

مقامك بيننا دَكْسٌ علينا فليتك غائب فى حرّ نار (٢٠٤)

* * *

لو عاش حمادٌ لهونا به لكنه صار إلى النار (٢٠٥)
وأما الشياطين فإنها تسترق السمع فى السماء ، ولكنها لا تبوء إلاّ بالفشل ،

إِ- تُذاد ذودًا بالشهب المحرقة . يقول واصفا عَنو ثور منطلق فى سرعة الشهاب :

ومضى يزل على المتنان كأنه نجمٍ لمسترقٍ هوى بشابه (٢٠٦)

ويقول فى تصوير لقائه مع حبيبته :

إذ تلتقى حَلَقًا ونسترق الهوى سَرَقَ العفاريت السماعَ مذودا (٢٠٧)

وهو يسمّى الأكل كما كانت العرب تسميه « مخاط الشيطان » . وقد ذكره رمزا

على الكذب والأمل الخادع الذى يرهق الإنسان سعيا وراء تحصيله ثم لا يحصل شيئا :

ومن القوم ذو غناء ووعد كمخاط الشيطان فيه اضطرابُ (٢٠٨)

والجنّ تؤذى الإنسان وتصيبه بالمرض ، فهي إذن مصدر من مصادر الشرور والالام . يقول الشاعر عن نفسه وما ابتلى به من حركات الحب وحيرة الناس في علاجه :

وقالوا : به داءٌ أصاب فؤادَهُ من الجنّ أو سحرّاً بأيدي المواردِ (٢٠١)
وفي البيتين التاليين يهجو إنسانا فيصمه بكل خزي وانحطاط جاعلا إياه شيطانا مريدا . ولعلّ فيهما وحدهما أبلغ نفى للتهمة التي ألصقت ببشار من جهة إبليس :

يقوم به القليل إلى المخازي ويخذله عن المجد القعودُ
غبى العين عن طلب المعالي وفي السومات شيطانٌ مريدٌ (٢١٠)
أما البيت الأخير من البيتين التاليين ، وهما في بنى العباس ، فهو ينسف نسفاً ما قيل عن بشار في هذا الصدد ، إذ يصوّر « الجنّ العفاريت » كلهم ، لا إبليس وحده ، وقد سجدوا لجيش العباسيين . وهذا الجيش بطبيعة الحال من البشر ، أى أنه إذا كان إبليس قد رفض السجود لأدم بحجة أنه من نار وآدم من طين فهام أولاء الجنّ الناريون أجمعون ، لا إبليس وحده ، يسجلون لبعض أبناء آدم :

إذا حاربوا قوما رأيتَ لواهم يقود المنايا بارقاتٍ ورُعُدا
بأرعن (٢١١) تسمى الأرض منه مريضة وتلقَى له الجنّ العفاريت سجداً (٢١٢)
والشيطان يسوّل للحاسد حسده ، والحسد مذموم عند كل البشر . ولبشار في الحسد وتقبيحه أبيات كثيرة سوف تتعرض لها في موضع آخر من هذا البحث . قال في عقبة بن سلم :

وزير أمير المؤمنين وسيفه إذا نفخ الشيطان في أنف حاسدٍ (٢١٣)
وينبغي أن نلاحظ أن رذيلة الحسد هي التي نفخت في أنف إبليس وسوّلت له أن يستكبر فلا يسجد لأدم ، عاصيا بذلك أمر ربه .
ثم هاهو ذا بشار يضع نفسه في مواجهة الجنّ مواجهة العداوة ويجعلهم يخشون

شعره ويرتعبون منه :

انا المرعوث يخشى الجنُّ بادرتهى ولا ينام الأعداى من مزاميرى (٢١٤)

ومثل ذلك هذا البيت ، وهو فى هجاء أبى هشام الباهلى :

فلن كنت مجنوننا فعندى سوطه وإن كنت جنيا فجدك أعثرُ (٢١٥)

وكذلك هذا البيت :

قد أدعُرُ الجنُّ فى مسارحها قلبى مضىءٌ ، ومِقُولى ذَرِبُ (٢١٦)

ثم هذا البيت الذى يعلن فيه لصديق له اسمه « عون » أنه إن لم يعنه على

ما يصطلبه من لواعج الحب ونيرانه فإنه سيكون حينئذ « عون الشيطان » عليه :

أنت عون الشيطان إن لم تعنى فارغ ما قلتُ تشفِ منى قِمَاحا (٢١٧)

كذلك فإن له فى هجاء حماد عجرد أبياتًا يحمل فيها على عبادته للرأس

والرأسين ويتهمه بأنه كافر بالله وبدين محمد ولا يؤدى فرائض الإسلام . وقد فعل مثل

ذلك مع ابن أبى العوجاء . وسواء كان هجاؤه هذا فى حماد جدًا أو هزلاً فلا أظنه ،

لو كان زنديقا أو ثنويا ، يقوله . قال فى حماد :

أوثر الرأس على رتبه ... إلى ... (٢١٨)

* * *

سُيِّتَ عيد الرأس من حبه قد علم الحاضر والبادى (٢١٩)

* * *

إن سرك الطعن من قُبْلِ ومن دُبْرِ فأت ابن سيمين ذا الرأسين حمادا (٢٢٠)

* * *

وتعبدُ رأسا تصلى له وأما الإله فلا تعبدُ

وتظهر حسب نيسى الهدى وأنت به كافر تشهد

وتشرك ليلة شهر الصيام حلالا كما نظر الأرد

...

وإن قيل : « صلّ فقد أدنوا » زمعت كما يزعم المُقَعَّدُ (٢٢١)

* * *

ابن نُهَيْمًا ، رأسٌ على ثَقِيلُ واحتمال الرأسين خطب جليلُ
ادع غيرى إلى عبادة الاثني عشر من ، فإنسى بواحد مشغول (٢٢٢)
وقال فى عبدالكريم بن أبى العوجاء :

قل لعبد الكريم : يا ابن أبى العو جاء ، بعث الإسلام بالكفر مُوقًا
لا تصلى ولا تصوم فلن صمتت فبعض النهار صوما رقيقًا
...

ليت شعرى غداة حُلِّيت فى الجيد حنيفًا حُلِّيت أم زنديقًا ؟ (٢٢٣)
وفى شعره تحمُّس للإسلام وفخر به :
هناك عاد الدين مستقبلاً وانتصب الدين على المنصب (٢٢٤)

* * *

نغضب لله وللـ إسلام أشرى الغضب (٢٢٥)

* * *

لنا بطحاء مكة والمصلى وما حاز المحصب والجمارُ
وساقية الحجيج إذا توافوا ومبتدر المواقف والنقارُ
وميراث النبى وصاحبيه تلادا لا يباع ولا يُعارُ (٢٢٦)

ولكن رُبَّ قائل إن بشارا منافق يتظاهر بما لم يكن يعتقد فى نفسه . ولقد
رمى د. طه حسين بشارًا بالنفاق فعلاً ، وتابعه على ذلك بعض من درسوا الشاعر من
المعاصرين ، كحنّا الفاخورى ، الذى اتهمه بالكذب والنفاق بل جعله « من أكبر
المنافقين » (٢٢٧) ، والدكتور محمد نبيه حجاب ، الذى قال إنه كان يتظاهر بالإسلام
والإسلام منه براء (٢٢٨) .

والحق أن بشارا كان أبعد ما يكون عن النفاق ، فقد كان حاد الطبع ساخراً
وسريع الجواب عنيفه ، لا يبالي عادةً الموقف الذى يكون فيه ولا الأشخاص الذين
حولهم . ولقد رأيناه وهو يصك أحد موالى المهدي ، حين فسّر « النحل » فى القرآن وما

يخرج من بطونها بأنها بنو هاشم وعلمهم ، إذ قال له من فوره : « أرانى الله طعامك وشرابك وشفائك فيما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غشاة » (٢٢٩) . ومن ذلك أنه كان واقفا ذات مرة بين يدى المهدي ينشده مدحةً له فيه فدخل خال الخليفة ، وكان فيه غفلة ، فسأله : يا شيخ ، ما صناعتك ؟ فما كان منه إلا أن أجابه مستهزئاً ساخرًا غير عامل للخليفة ولا خاله حساباً : « أثقب اللؤلؤ » . ولما أظهر الخليفة إنكاره قائلاً : « أتتنادر على خالى ؟ » كان اعتذاره امتداداً لاستهزائه الأول وسخره ، إذ قال : « وما أصنع به ؟ يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعراً ويسأله عن صناعته ؟ » (٢٣٠) . ومن قبل فى عصر بنى أمية حدث أن قصد سليمان بن هشام بن عبد الملك يمدحه لعله ينال منه عطاءً كبيراً ، لكن سليمان لم يشبهه إلا بخمسة آلاف درهم استقلها الشاعر وتركها وانصرف مغضباً ثم هجاه (٢٣١) . وهذا ليس من تصرفات المناققين . إنما هو تصرف رجل لا يعرف كيف يدارى ما فى قلبه بل يعلنه ولو كان فيه ما فيه ، ثم إن قصائده العنيفة فى الردِّ على من كان يحاول التقليل من شأنه لأنه مولى هى أيضاً برهان ساطع على أنه إذا جاش فى ضميره شعور لم يكن يتعمل فى إخفائه أو على الأقل فى تلطيف التعبير عنه ، بل كان يقذفه من قلبه كالحمم . ولعل من المناسب أن نذكر هنا فخره المضطرم بنفسه وجنسه أمام المهدي حينما سأله هذا عن أصله (٢٣٢) . وحتى حينما نهاه المهدي عن التشبيب بالنساء لم يلتزم بذلك النهى ، بل كان يكتفى بالإشارة إليه وأنه لا يسعه إلا الطاعة ثم ينطلق يشبب بهن ويتغزل فيهن بما يحلو له كعادته من قبل . ولو كان مناققاً لسارع فى الحال إلى تنفيذ ما طلبه منه الخليفة وراعاه بقية عمره . هذا ، وينبغى ألا ننسى ما أشرنا إليه قبل صفحات من أن الشعر الذى استشهدنا به على سلامة عقيدته هو فى الغالب من شعره الغزلى والهجائى حيث يصعب على المتشككين أن يقولوا إن الشاعر قد كان يراعى التقاليد الاجتماعية والدينية وما ينبغى أن يقال ، فإنه فى هذين اللونين

من شعره إنما كان يغنى لنفسه غير واضح أخذًا في حسابه .

وأيضا فإن الشاعر كان لا يتبوع أحيانا عين ذكر الإخلاق وعقائده وعباداته في سياقات لا تناسب الدين جلالاً واحتراماً (٢٣٣) . ولو كان متافكاً ما فعل هذا في شعر يطلع عليه الناس .

على أنني حين أقول إن بشاراً كان مطلقاً فليعلم العقيدة . لا أعنى أبداً ، ولا يمكن أبداً أن أعنى ، أنه كان متديناً حقياً ، فإن القول بسلامة العقيدة لا يستلزم أداء فروض العبادة مثلاً ولا الامتناع بالضرورة عن الآثام . إن الإيمان درجات ، وفي المؤمنين المطيعون والعصاة . وبشار كان لا يتبوع عين اللهجر في القول في كثير من أهاجيه ، إذ كان يذكر ألفاظ للعورات والسومات بلا أى تحرج ، وكان يتهم مهجويه بالزنا واللواط وعدم الغيرة على أمهاتهن وأخواتهن وبناتهن غير مكتر في ذلك ولا بأذى أى قدر من الجهد في تخفيف فحش كلامه (٢٣٤) . وقد تكررت إشارته في شعره إلى أنه كان يشرب الخمر . ومع ذلك فربما كان يصلى كما يقول أيضاً في ذلك الشعر (٢٣٥) ، وإن جاء فيه كذلك أنه قد ترك بعض الصلوات انشغالاً بهذه الحبيبة أو تلك (٢٣٦) . لكن ينبغي حمل هذا على الاتساع في القول والمبالغة فيه كناية من الشاعر عن شدة هيامه ، مثله مثل قوله في قصائد أخرى إنه من فرط تولّيه بحبيبته لم يكن يعرف كم عدد الركعات التي صلاها أو إنه كان يستعين بمن يحصيها له (٢٣٧) . وهو في إحدى سدائحه للمهدى يصف أتباعه وجنوده « بالصلاة والصبر » (٢٣٨) . وفي دلالة هذه الالتفاتة ما فيها .

والآن ، إذا كانت عقيدة بشار سليمةً فما سبب مقتله إذن ؟ لا أظن أن السبب هو تشييبه بالنساء وضيق المهدي بذلك حسبما تقول الرواية التي تصوّره شديد الغيرة . إن هناك عدة روايات أخرى تصور ذلك الخليفة مجيئاً للكلام في الغزل والجنس مثيلاً عليه . جاء في « الأغاني » أن بشاراً دخل على المهدي وعنده جارية تغنيه فأطربته

فطلب من بشار أن يقول فيها وفي صوتها الجميل شعرا ففعل (١٣٩). وفيه أيضا أنه بعث إليه ، فلما حضر طلب منه أن يقول شعراً في الحب بحيث يجعله قاضيا بين المحبين . فنظم الشاعر ما أراه الخليفة ، فكافأه بألف دينار (٢٤٠). وفيه كذلك أن المهدي فاجأ إحدى جواريه وهي تغتسل فلما نذرت به مدت كفها فغطت سواتها ، فأراد أن يصف فلطأ شعراً ولكنه لم يُفْتَح عليه إلا بشطرة واحدة هي : « نظرت عيني لِحَيْثِي » ، فأمر بأن يُدَخَّل إليه من بباب القصر من الشعراء ، وكان بشاراً ، فطلب منه أن يكمل الشطرة التي نظمها ، فأخذ بشار يصور الأمر وكأنه كان حاضراً وشاهده بأمر عينه ، والمهدي يستزده وقد شمله الطرب والسرور ، ثم كافأه على هذا الشعر الفاحش (٢٤١). وأنا ، مع ذلك ، لا أصدق الرواية كما وُويت بالضبط ، فما كان بشار عالماً بالغييب حتى يصف ما كان بين المهدي وجاريتته وصف الذي حضر ورأى . ويبدو لي ، إذا كانت الرواية صحيحة ، أن المهدي قد أخبر الشاعر بما حدث وطلب منه أن ينظمه شعراً .

ويعضد أن المهدي لم يكن بتلك الغيرة التي ينسبونها إليه أنه لما نهى بشاراً عن التشبيب بالنساء في شعره لم يأخذ بشار هذا النهى بجد ، بل كان يكتفى بالإشارة إليه ثم يأخذ في نهجه المعتاد من الانطلاق متغزلاً مشبها . وليست هناك تقريباً قصيدة مدح فيها بشار ذلك الخليفة بعد هذا إلا وفيها غزل وتشبيب . ولم يحدث هذا مرة واحدة ولا اثنتين ولا ثلاثاً ، بل تكرر مرارا . والذي يرجع إلى الديوان ، رغم أنه غير كامل ، يستطيع أن يتعرف هذا بنفسه . فلو كان قتله بسبب تشبيهه بالنساء فلم انتظر المهدي عليه كل هذه المدة الطويلة ؟ ومتى كان التشبيب بالنساء يؤدي بالشعراء إلى حتفهم ؟

الحق أني لا أستطيع أن أعثر على سبب لمقتل بشار غير هجانه للخليفة في لحظة من لحظات الطيش . لقد كان الشاعر مقرباً إليه ويحظى بحبه وعطاياه ويحضر

مجالس سمه حتى أخص الخصوصى منها مع جواريه . ثم جفاه الخليفة وأبعده عنه ولم يعد يعطيه على مدائحه فيه شيئاً . ويبدو أن ذلك كان بتأثير ممن حوله ، وبالذات يعقوب ابن داود وأخوه ، اللذان كان بشار قد هجاهما من قبل . وكانت الحجة الظاهرية هى أن بشاراً كان يشبب بالنساء . وإننا لنتساءل : أى مداح فى ذلك العصر لم يكن يشبب بهن ؟ ومن الواضح أن بشاراً لم يصلح أن هذا هو السبب فى إقصاء الخليفة إياه فظلاً ينظم الشعر الغزلى ويخلطه بمدح الخليفة مع الإشارة فى كل مرة إلى أن المهدي قد نهاه عن ذكر النساء وأنه قد أقلع عن ذلك احتراماً لأمره . بيد أن المهدي ظل على جفائه للشاعر لا يفتح له باب القصر ولا يحلّ له كيس دنائره أبداً ، فاعتاظ أشد الغيظ . وهذا أمر طبيعى ، إذ إن من تعود على معاملة خاصة من أحد يؤله أنفع الأمل أن تتغير هذه المعاملة ويحرم مما أصبح ينظر إليه على أنه حق له مفروغ منه لا يتصور فى يوم من الأيام أن يتوقف وصوله إليه . وفى لحظة من لحظات الغيظ وعدم التبصر نظم بشار هجاءً مقذعاً فى المهدي يتلوه فيه أن الخليفة يزنى بعماته ويدعو الله أن يبذل الأمة به غيره وأن يدس موسى (٢٤٢) فى « ... » الخيزران زوجة الخليفة . ولم يكتف الأحمق بذلك ، بل ذهب به إلى حلقة موسى بن حبيب النحوى . ولما اطمأن إلى أنه ليس فى الحلقة غريب ينبغى احتشامه ألقى بشعره فى مسامع الموجودين . وقد كانت النتيجة أن بَلَغَ الشعرُ وزيرَ الخليفة المضطغن على الشاعر فوصله إلى المهدي (٢٤٣) .

هذا ، ولعلّ المهدي ، لما عاقب الشاعر بضربه سبعين سوطاً ، قد سَوَّغ ذلك لنفسه بأنه إنما ينفذ حد القذف فيه ، فقد رماه بأنه يزنى بعمّاته ، وإن كان يمكن الاعتراض بأن الخليفة لم يحقق فى التهمة ولم يتأكد من صدور ذلك الشعر من الشاعر . ولكن متى كان الخلفاء دائماً يراعون تعاليم الإسلام بحذائيرها ؟ وقد اقتصر الخليفة على سبعين سوطاً ولم يبلغ بها الثمانين ، عقوبة حد القذف ، لأن الموت كان قد ظهر

فى بشار فُتْرِك ليموت .

إلاّ أن اثنين من الباحثين قد استبعدا أن يكون بشار قد قال ذلك الهجاء البنىء فى المهدي : فأما ابن عاشور ناشر ديوانه ومحققه فاكفى بالقول بأن هذا مما اختلقه حساده عليه (٢٤٤) ، وأما د. يوسف الصمىلى فإنه أنكر نسبة هذا الهجاء إليه بحجة غشائة ألفاظه وسماجة معانيه ، على عكس هجائه الآخر الذى كان ، كما يقول ، يصدر من أعماق قلبه (٢٤٥) .

والواقع أن على البيتين المشار إليهما سمات بشارية لا تخطنها العين : فكلمتا « دسّ » و « جرّ » من الألفاظ التى تكررت فى شعر بشار على نحو يشد الالتفات . والهجاء بعدم الغيرة على أعراض الأمهات والأخوات ومن فى حكمهن بل بالقوادة عليهن والزنى بهن هو هجاء قد تكرر عند الشاعر أيضا . ثم إن لبشار شعرا خفيفا لم يبذل جهدا فى صياغته وإحكامه . وما قول النقاد فى « ربابة ربة البيت » وأمثالها عتّا بغريب . كذلك كان بشار قد مدح موسى الهادى فى بعض شعره وحرص المهدي أباه على أن يجعل ولاية العهد له بدلاّ من عيسى بن موسى (٢٤٦) ، وذكر معه مرة الخيزران أمه ، فيبدو أن عدم تشفع موسى له عند جفوة أبيه إياه قد أضغنه عليه فالحقه بأبيه فى الهجاء .

أمّا قول الدكتور محمد النوبهى إن واصل بن عطاء ومالك بن دينار وسوار بن عبد الله قد ظلوا يضغطون على المهدي حتى قتل بشارا (٢٤٧) فهو وهم ، لأن واصلًا ومالكًا كانا قد ماتا فى عام ١٣١هـ ، وسوارا مات فى ١٥٧ هـ فى عهد المنصور (٢٤٨) ، أى أن هؤلاء الثلاثة لم يمتد بهم العمر لعهد المهدي ، بل لم يمتد العمر بالأولين إلى العصر العباسى أصلاّ . لقد ذكر صاحب « الأغانى » أنهم قد زجروا بشارا كثيرا ووعظوه كى يقلع عن شعره الغزلى المحرض على الفاحشة (٢٤٩) . لكن هذا شىء ، والقول بأنهم « أخذوا يعنفون فى لوم المهدي على صحبته بشارا وتقريبه إياه

واصطفائه مسامرا وندىما وإعطائه المنح والجوائز ، فخانتته شجاعته الأدبية ولم يستطع الاستمرار فى تجاهل تقدمهم ، وكان عداؤهم من نوع لا يخمد إلا قتل بشار ... فتلمس المهدي عذرا يقتل به بشارا إرضاءً لهم وتخلصا من وطأة التقرير « (٢٥٠) هو شىء آخر . ذلك أن الموتى الذين استحالوا إلى تراب من زمن طويل لا يحرضون بل لا يتكلمون . وإن عبارة صاحب « الأغاني » هى المسؤولة عن ذلك ، إذ بعد أن ذكر إنكار هؤلاء العلماء الثلاثة قال : « فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي ... إلخ » ، فجاء د. النويهى ولم يمحص المسألة ووقع فى هذا الوهم (٢٥١) .

الهوامش

- ١- البيان والتبيين / دار الفكر للجميع / ١٩٦٨ م / ١ / ١٥ .
- ٢- مع أن سليمان هذا قد أتهم بأنه قد لقن عقيدته المنحرفة عن بشار . انظر د . شوقي ضيف / العصر العباسي الأول / دار المعارف / ط ٦ / ٢٥٤ . والدكتور شوقي يحيل ، فيما يحيل عليه ، على الجاحظ في « الحيوان » (٤ / ١٩٥) ، مع أن عبارة الجاحظ هناك لا تعنى هذا . إنما تعنى ، فى الغالب ، أنه أخذ عن بشار فكرة أن الجسد هو هيكل الروح .
- ٣- انظر « البيان والتبيين » / ١ / ٢٦ / ٢٢ - ٢٧ .
- ٤- السابق / ١ / ٢٥ .
- ٥- ليلي الناعظية امرأة من روافض الشيعة كانت معاصرة لمحمد بن الحنفية ، وكانت تستقبل أولئك الغلاة سرًا . وقد ذكرها الجاحظ بين النساك والزهاد من أهل البيان ، وذكر معها من نساء الغالية الصدوف وهذا . انظر « البيان والتبيين » / ٢ / ٨ .
- ٦- الحيوان / تحقيق عبدالسلام هارون / مصطفى البابي الحلبي / ط ٢ / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م / ٤ / ٤٤٧ - ٤٤٨ .
- ٧- انظر « أمالي المرتضى » / ١ / ١٣٦ .
- ٨- الشعر والشعراء / تحقيق أحمد محمد شاكر / دار المعارف / ٢ / ٧٥٧ .
- ٩- السابق / ٢ / ٧٦٠ .
- ١٠- ابن المعتز / طبقات الشعراء / ٢٤ - ٢٥ .
- ١١- السابق / ٢٦ .
- ١٢- السابق / ٢٢ - ٢٣ .
- ١٣- الأغاني / ٣ / ١٤٥ - ١٤٦ .
- ١٤- السابق / ٣ / ١٤٦ - ١٤٧ .
- ١٥- السابق / ٣ / ٢١١ .
- ١٦- السابق / ٣ / ١٨٦ .
- ١٧- السابق / ٣ / ٢٢٧ .

- ١٨- الخيزران هي أم موسى الهادي وهارون الرشيد ولدى المهدي .
- ١٩- الأغاني / ٣ / ٢٤٢ - ٢٤٤ .
- ٢٠- السابق / ٣ / ٢٤٤ - ٢٤٥ .
- ٢١- السابق / ٣ / ٢٤٧ ، ٢٤٩ .
- ٢٢- السابق / ٣ / ٢٤٨ - ٢٤٩ .
- ٢٣- السابق / ٣ / ٢٤٩ .
- ٢٤- رسالة الغفران / دار صادر / بيروت / ١٥٩ - ١٦٠ .
- ٢٥- البغدادي / الفرق بين الفرق / مكتبة أنس بن مالك / ١٤٠٠ هـ / ٣٩ ، ٤٢ .
- ٢٦- الفهرست / ٣٣٨ .
- 27- R. A. Nicholson , A Literary History of the Arabs , Cambridge University Press , 1979, pp. 373 - 374 .
- ٢٨- سوف نرى بعد قليل أن مجمل رأى د . محمد التويهي في عقيدة بشار يشه إلى حد كبير ما جاء في هذه الفقرة .
- 29- Encyclopaedia of Islam , 1st ed. , art , « Bashshar » .
- ٣٠- انظر جرجي زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية / تعليق د . شوقي ضيف / دار الهلال / ٢ / ٥٨ - ٥٩ .
- ٣١- انظر عباس محمود العقاد / مراجعات في الآداب والفنون / دار الكتاب العربي / بيروت / ١٩٦٦ م / ١٠٦ - ١٠٨ .
- ٣٢- انظر « حديث الأربعاء » / ٢ / ١٩٢ - ١٩٣ .
- ٣٣- نفسه / ٢ / ٢١١ .
- ٣٤- انظر د . شوقي ضيف / الفن ومذاهبه في الشعر العربي / دار المعارف / القاهرة / ط ٨ / ١١٢ - ١١٣ . وانظر كذلك كتابه « العصر العباسي الأول » / ١٧٣ ، ٢٠٢ - ٢٠٣ .
- ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ٢١٣ - ٢١٤ .
- ٣٥- انظر د . محمد التويهي / شخصية بشار / ٧٦ - ٧٩ .
- ٣٦- السابق / ٧٩ .

- ٣٧- نفسه / ٨٠ - ٨٢ .
- ٣٨- نفسه / ٨٢ .
- ٣٩- نفس المرجع والصفحة .
- ٤٠- السابق / ٨٢ - ٨٣ . وكما ترى فإن مجمل رأى الدكتور النويهي فى عقيدة بشار يشبه شبهها كثيرا رأى كاتب مادة « بشار » فى « Encyclopaedia of Islam » ، كما سبق أن أشرت .
- ٤١- نفسه / ٩٤ .
- ٤٢- نفسه / ١٣٨ - ١٣٩ .
- ٤٣- نفسه / ١٤٢ - ١٤٥ .
- ٤٤- نفسه / ١٤٥ - ١٤٦ .
- ٤٥- مقدمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لديوان بشار / ٢٠ - ٢٩ .
- 46- André Miquel , La Littérature Arabe , " Que sais-je " (no. 1355) , Paris , p. 49.
- ٤٧- انظر د . عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى - الأعراس العباسية / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٩٣ .
- ٤٨- انظر د . سيد حنفى حسنين / بشار بن برد - دراسة فى النظرية والتطبيق / دار الثقافة للطباعة والنشر / القاهرة / ١٩٧٨ م / ١٠٣ - ١١٣ .
- ٤٩- انظر د . محمد زكى العشماوى / موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى / دار النهضة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ١٩٨١ م / ١٠٣ - ١٠٤ .
- ٥٠- نفسه / ١٢٩ - ١٣٤ .
- ٥١- الديوان / ٣ / ٢٨٦ .
- ٥٢- انظر ديوان بشار / ٤ / ٧٨ .
- ٥٣- يقصد أنه هو أيضا يتمنى هذا ، لأن الأب فى دين كسرى (أى المجوسية) يحل له نكاح بناته .
- ٥٤- انظر ابن المعتز / طبقات الشعراء / ٢٣ .

- ٥٥- انظر هذه القصيدة فى الديوان / ٣ / ١٢٠ وما بعدها ، وفيها هذه القوافى :
- « إذا - مدا - الودا - رفا - وفدا - عهدا » .
- ٥٦- انظر « أمالى المرتضى » / ١ / ١٣٤ .
- ٥٧- انظر « الأغاني » / ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٠ .
- ٥٨- السابق / ٣ / ١٥٢ - ١٥٤ .
- ٥٩- انظر الأبيات التى يرثى بها الشاعر ابنه ذاك فى الديوان (١ / ٢٥٤ - ٢٥٧) ، حيث ذكر اسم ذلك الطفل عدة مرات . والغريب أن الحكاية التى تشرح ظروف نظم هذه الأبيات تصور بشارا ساخطا ، على حين أن الشعر يبنى عن رضا بالمقدور ابتغاء الحصول على أجر الصابرين . انظر الديوان / ١ / ٢٥٤ - ٢٥٥ (بالهامش) ، والأغاني / ٣ / ١٦١ . على أن الجاحظ قد أورد فى « البيان والتبيين » (٢ / ١٠٦) هذه الكلمات التى نسبتها « الأغاني » لبشار منسوبة لشيخ من بنى أسد ، مما قد يشكك فى أن يكون بشار هو قائلها . وكان أحدهم ، حسب الرواية ، قد قال له يعزبه : « اصبر ... ، فإنه فرط افتقرته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته » ، فقال مجيبا له : « ولد دفنته ، وتكل تعجلته ، وغيب وعدته . والله لئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد » .
- ٦٠- الموشح / تحقيق محمد على البجاوى / ٤٤٧ - ٤٤٨ .
- ٦١- الأغاني / ٢ / ١٧٤ - ١٧٥ .
- ٦٢- السابق / ٣ / ٢١٢ .
- ٦٣- النحل / ٦٨ - ٦٩ .
- ٦٤- الأغاني / ٣ / ١٥٨ - ١٥٩ .
- ٦٥- السابق / ٣ / ١٦٧ - ١٦٨ .
- ٦٦- نفسه / ٣ / ٢٢٥ .
- ٦٧- نفسه / ٢٣ / ١٤٤ .
- ٦٨- د . نجيب البهيتى / تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى / ٣٤١ .
- ٦٩- الديوان / ١ / ١٧١ .

- ٧٠- نفسه / ٢ / ٢٠٣ .
- ٧١- نفسه / ٣ / ٣٠٣ .
- ٧٢- ١٦٩ / ٣ .
- ٧٣- ٢٩٦ / ٢ .
- ٧٤- ٣٣ / ٤ .
- ٧٥- ١٨ / ٤ .
- ٧٦- ٦٢ / ٤ .
- ٧٧- ١٠٤ / ١ .
- ٧٨- ٢٤٣ / ١ .
- ٧٩- أى مهما كان بعيداً عنه صلى الله عليه وسلم فى النسب (الديوان / ١ / ١٢٤) .
- ٨٠- نفسه / ١ / ٢٣٧ . والضرب : العسل الأبيض الغليظ .
- ٨١- ٣٤٦ / ١ .
- ٨٢- ٣٥٩ / ١ .
- ٨٣- ٣٧٩ / ١ .
- ٨٤- ٢٩٨ - ٢٩٩ . وساقى الحجيج : العباس . ومُتهب الزاد : هاشم بن عبد

مناف .

- ٨٥- كذا . وقد تكون : « وَجُنَيْتَ » .
- ٨٦- الديوان / ٢ / ٣٢٢ .
- ٨٧- ١٩٩ / ٣ .
- ٨٨- ١٢٢ / ١ .
- ٨٩- ١٢٣ / ١ .
- ٩٠- ١٨٨ / ١ .
- ٩١- ٢٢٦ / ١ . والكلام عن حبيبتة ورحلتها إلى الشام وتركها إياه .
- ٩٢- ٣٥٥ / ١ .

. ٩٥ / ٢ - ٩٣

. ٦٨ / ٣ - ٩٤

. ١٧٩ / ٣ - ٩٥

. ٣٣٤ / ٣ - ٩٦

. ٣٧ / ١ - ٩٧

. ٢٨ / ٤ - ٩٨

. ٧٧ / ٤ - ٩٩

. ١١٥ / ١ - ١٠٠

. ١٥٢ / ٤ - ١٠١

. ٢٦٨ / ١ - ١٠٢

. ١٠٣ - الكلام هنا فى وصف النشوة بغناء جارية .

. ١٦١ / ٢ - ١٠٤

. ١٤٢ / ٣ - ١٠٥

. ١٢٨ / ٢ - ١٠٦ . وأبو الدحداح هو أحد من ثبتوا فى هزيمة أحد ، وقتل شهيدا

يومها . وقال فيه النبى عليه السلام : « كم من عذق رداح لأبى الدحداح » (انظر الهامش

رقم ٦ من الديوان فى الموضوع المذكور هنا) .

. ٢٠٩ / ١ - ١٠٧ الديوان

. ٣٨٣ / ١ - ١٠٨

. ٩٥ / ٢ - ١٠٩

. ١٠٨ / ٢ - ١١٠

. ٣١٩ / ٢ - ١١١

. ٢٢٠ / ٣ - ١١٢

. ٨٨ / ٣ - ١١٣

. ٩٨ / ٣ - ١١٤

- ١١٥ - ٤ / ٣٧ .
- ١١٦ - ١ / ٢١٤ . وهو يدعو لها بكل قوة وضراعة ألا تذوق في حبه ما يذوق هو في حبا ، ضنا بها أن تقاسى من لهيب الحب ما يقاسى .
- ١١٧ - ١ / ٣٨١ .
- ١١٨ - ٢ / ٤١ .
- ١١٩ - ٣ / ١٣٢ . وسفيح : هو سفيح بن عمرو ، أحد ممدوحيه .
- ١٢٠ - ٣ / ١٢ .
- ١٢١ - ٣ / ٢١ .
- ١٢٢ - ١ / ٢٥٦ .
- ١٢٣ - حبي (بتشديد الباء وفتحها) : اسم حبيته .
- ١٢٤ - الديوان / ٢ / ٣٨ .
- ١٢٥ - ٢ / ٧٢ .
- ١٢٦ - ٢ / ٧٧ .
- ١٢٧ - ٢ / ٩٢ .
- ١٢٨ - ١ / ٢٥٢ .
- ١٢٩ - ١ / ٢٥٥ .
- ١٣٠ - ١ / ٢٧٠ .
- ١٣١ - ٢ / ٤٤ .
- ١٣٢ - ٣ / ١٥٣ .
- ١٣٣ - ٤ / ٥٢ .
- ١٣٤ - ٤ / ٩٩ .
- ١٣٥ - ١ / ١٥٠ .
- ١٣٦ - ١ / ٢٣٧ .
- ١٣٧ - ١ / ٣٦١ .

- ١٣٨ - ٣ / ٤٩ .
- ١٣٩ - ٤ / ١٤٤ .
- ١٤٠ - ٤ / ١٥١ .
- ١٤١ - ١ / ١٣٠ .
- ١٤٢ - ١ / ١٤١ .
- ١٤٣ - ١ / ٣٥٤ .
- ١٤٤ - ١ / ٣٨١ . وَعَوْضُ مَا : مادام .
- ١٤٥ - ٢ / ٩ .
- ١٤٦ - ٢ / ١٥ .
- ١٤٧ - ٢ / ١٢٠ . والنصّفات : الخادِمات . والراح : الأيدي .
- ١٤٨ - ٢ / ٢٤٣ .
- ١٤٩ - ٢ / ٢٥٩ .
- ١٥٠ - ٢ / ٣٠٥ .
- ١٥١ - ٣ / ٨ .
- ١٥٢ - ٣ / ٦٦ .
- ١٥٣ - ٣ / ١٦٨ .
- ١٥٤ - ٤ / ٥٥ . يشبّهه حبيبتَه بالشراب البارد الذي يتناوله الصائم عند إفطاره وهو حرّان الجوف .

- ١٥٥ - ٤ / ١٥٧ .
- ١٥٦ - ٤ / ١٦٢ .
- ١٥٧ - ٤ / ١٦٦ .
- ١٥٨ - ٤ / ٢٣٠ .
- ١٥٩ - ١ / ١٧٤ .
- ١٦٠ - ١ / ٢٠٢ .

١٦٦ - ١ / ٢٢١ .

١٦٢ - ٢ / ١٤٣ .

١٦٣ - ٢ / ٢٦٩ .

١٦٤ - ٢ / ٣٢٧ .

١٦٥ - ١ / ١٣٠ . والأكل فى سبعة أمعاء هو كناية عن الكفر . وهو من قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « الكافر يأكل فى سبعة أمعاء » (انظر الهامش رقم ٣ فى الموضوع المذكور من الديوان هنا) .

١٦٦ - ١ / ١٣٩ . وقوله « الباقيات الصالحات » موجود بنصه فى الآية / ٤٦ من سورة « الكهف » .

١٦٧ - ١ / ١٤٠ . وهو من قول الرسول عليه السلام : « زُرْ غَيْثًا تَزِدُّدُ حُبًّا » (انظر الهامش / ٣ فى ذلك الموضوع المذكور من الديوان هنا) .

١٦٨ - ١ / ٣٣٤ . وقوله : « قصر مَشِيد » مأخوذ من الآية / ٤٥ من سورة « الحج » .

١٦٩ - ١ / ٣٤٨ . وعبارة « الجبار الجنب » قد وردت فى الآية / ٣٦ من سورة « النساء » . والأسهودة : السهد والأرق .

١٧٠ - ١ / ٣٥٦ . والعبارة الأولى التى تحتها خط هى من قوله تعالى : « كل امرئ بما كسب رهين » (الطور / ٢١) ، والثانية هى نفسها عبارة قرآنية وردت على لسان امرأة العزيز فى سورة « يوسف » / ٥١ .

١٧١ - ٢ / ٢٣٩ . وهى مثل قوله : « كل امرئ بما اكتسب » فى الشاهد السابق .

١٧٢ - ٣ / ٢ . والشطرة الثانية هى من قوله تعالى : « إن ريك لبالمرصاد » (الفجر / ١٤) .

١٧٣ - ٣ / ١٧ . وهو مأخوذ من قوله سبحانه : ينس الورد المورود » (هود / ٩٨) .

١٧٤ - ٣ / ٤٣ . وهو مستوحى من العبارة القرآنية : « فَأَذَّنُوا بحرب من الله

- ورسوله « (البقرة / ٢٧٩) .
- ١٧٥- ٣ / ٦٨ . والشطرة الثانية من قوله تعالى : « ولن أجد من دونه ملتحدا »
(الجن / ١٢) .
- ١٧٦- ٣ / ٧٠ . وقد جاء فى الآية الرابعة من سورة « الفلق » الاستعاذة من « شر
النفاثات فى العقد » .
- ١٧٧- ٣ / ١١٣ . والإشارة فى البيت إلى قوله تعالى : « وإن أوهن البيوت لبيت
العنكبوت » (العنكبوت / ٤١) .
- ١٧٨- ٤ / ٧ . وهو من قول الرسول عليه السلام : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت »
(انظر الهامش رقم / ٤ فى ذلك الموضع المذكور من الديوان هنا) .
- ١٧٩- ٤ / ٤٤ . وهو مأخوذ من قوله سبحانه (الأنفال / ٥٣) : « ذلك بأن الله لم
يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .
- ١٨٠- ٤ / ٩٨ . وفى أول آية من سورة « الواقعة » نقرأ : « إذا وقعت الواقعة » .
و « يا عبد . : ترخيم « يا عبدة » ، حبييته .
- ١٨١- ٤ / ١٥٨ . و « غمًا يغمّ » عبارة موجودة بنصها فى الآية / ١٥٣ من سورة
« آل عمران » .
- ١٨٢- ١ / ٢٦٢ .
- ١٨٣- ١ / ١٩٠ .
- ١٨٤- ١ / ١٩٣ .
- ١٨٥- ١ / ١٩٨ .
- ١٨٦- ١ / ٣٥٩ .
- ١٨٧- ٢ / ٢٥ .
- ١٨٨- ٢ / ٣٦ .
- ١٨٩- ٢ / ٥٨ .
- ١٩٠- ٢ / ٢٥٦ .

- ١٩١ - ٢ / ٢٦ .
- ١٩٢ - ٢ / ٢٦٣ .
- ١٩٣ - ٢ / ٢٧١ .
- ١٩٤ - ١ / ٢٣٦ . وساقى الحجيج هو العباس ، رضى الله عنه . وقد تكررت الإشارة إليه فى الديوان بهذه الصفة . انظر مثلا ١ / ٢٥٧ ، ٣٣١ ، و ٢ / ٢٩٩ .
- ١٩٥ - ١ / ٣٧٩ . وأبو الفضل : هو العباس ، رضى الله عنه .
- ١٩٦ - ٢ / ٥٨ . والمقصود عيد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأبوه هذا هو جعفر الطيار ، رضى الله عنهما .
- ١٩٧ - ٢ / ٢٨٤ . والإشارة إلى عيد الله بن العباس ، رضى الله عنه .
- ١٩٨ - ٢ / ٢٨٥ .
- ١٩٩ - ٢ / ٢٥١ . وصاحبا النبى عليه السلام هما بطبيعة الحال أبو بكر وعمر ، رضى الله عنهما .

٢٠٠ - « على » هنا هو على بن عبد الله بن العباس ، جد المهدي .

٢٠١ - الديوان / ٢ / ٢٨٤ .

٢٠٢ - ١ / ٢٤٨ .

٢٠٣ - ٤ / ٦١ .

٢٠٤ - ٢ / ٢٢٢ .

٢٠٥ - ٤ / ٦٦ .

٢٠٦ - ١ / ٢٨٧ .

٢٠٧ - ٢ / ٢٥٩ .

٢٠٨ - ١ / ٣٣٩ .

٢٠٩ - ٢ / ٢٦١ .

٢١٠ - ٢ / ١٩ .

٢١١ - الأرعن : الجيش الكثيف .

- ٢١٢- الديوان / ٣ / ٤١ .
- ٢١٣- ٨٢ / ٣ .
- ٢١٤- ٢٢٣ / ٣ .
- ٢١٥- ٢٦١ / ٣ .
- ٢١٦- ٢٤١ / ٢ .
- ٢١٧- ١٢٣ / ٢ . والقِمَاح : ظمأ الإبل مع وجود الماء أمامها ، ولكنها لعلجة فيها لا تستطيع شربه .
- ٢١٨- ٩٥ / ٣ . و« أوثر » : هل هي « آثر » ؟ أم هل هي « يؤثر » ؟
- ٢١٩- ٩٦ / ٢ .
- ٢٢٠- ٩٩ / ٣ .
- ٢٢١- ١٢٣ / ٣ . وزمغ : مشى بيظه .
- ٢٢٢- ١٣٦ / ٤ .
- ٢٢٣- ١١١ / ٤ . والموق : الحمق والغباء .
- ٢٢٤- ١٥٤ / ١ .
- ٢٢٥- ٢٨٠ / ١ . وانظر المستشرق بيستون (Beaston) فى كتابه
 « Selections from the Poetry of Bssar » (Cambridge University Press, 1977, p.5)
 حيث يبرز دعوى بشار فى هذه القصيدة أن الفرس لا العرب هم المتمسكون الحقيقيون بالإسلام ،
 إذ إنهم هم القوة الرئيسية التى أزال ملك بنى أمية ، أعداء الدين فى نظره .
- ٢٢٦- ٢٥١ / ٣ .
- ٢٢٧- حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى / ٣٧٤ .
- ٢٢٨- د . محمد نبيه حجاب / معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسى الأول / دار
 المعارف / ط ٢ / ١٩٧٣ م / ١٣٦ .
- ٢٢٩- الأغاني / ٣ / ١٥٨ - ١٥٩ .
- ٢٣٠- السابق / ٣ / ١٥٩ .

- ٢٣١ - نفسه / ٣ / ٢١٧ - ٢١٨ .
- ٢٣٢ - انظر القصيدة فى الديوان / ٤ / ١٥٦ - ١٦١ .
- ٢٣٣ - انظر الديوان / ١ / ١٣٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، و ٢ / ١٠٨ ، ١٩٠ - ١٩١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، و ٣ / ١٤ مثلاً .
- ٢٣٤ - انظر الديوان / ١ / ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٣٦٧ ، و ٣ / ١١٤ ، ١٢٤ ، ٢٥٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ مثلاً .
- ٢٣٥ - انظر الديوان / ٢ / ٤١ ، ٥٤ مثلاً .
- ٢٣٦ - انظر الديوان / ٢ / ٣٠ ، ١٢٧ ، ١٧٤ ، ٢٠٦ مثلاً .
- ٢٣٧ - انظر الديوان / ٢ / ١٥٦ ، ٢٧٢ .
- ٢٣٨ - ٢ / ٢٨٣ .
- ٢٣٩ - انظر « الأغاني » / ٣ / ١٨٨ - ١٨٩ .
- ٢٤٠ - السابق / ٣ / ٢٢٢ .
- ٢٤١ - السابق / ٣ / ٢٣٠ - ٢٣١ .
- ٢٤٢ - موسى هو الهادى ابن الخليفة المهدي .
- ٢٤٣ - انظر « الأغاني » / ٣ / ٢٣٩ - ٢٥٠ .
- ٢٤٤ - انظر مقدمة الديوان / ١ / ٢٨ .
- ٢٤٥ - انظر د . يوسف الصميلي / بشار بن برد - شخصيته ومنهجه الشعرى / دار الوحدة / بيروت / ٣٥ .
- ٢٤٦ - انظر الديوان / ٢ / ٤٥ - ٤٦ ، ٢٧٧ وما بعدها .
- ٢٤٧ - انظر د . محمد التويهي / شخصية بشار / ١٤١ .
- ٢٤٨ - انظر فى وفاة الأوتلين « الأعلام » للزركلى ، وفى وفاة سوار « الكامل » لابن الأثير / دار الكتاب العربى / بيروت / ط ٣ / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م / ٥ / ٤١ .
- ٢٤٩ - انظر « الأغاني » / ٣ / ١٨٢ .
- ٢٥٠ - شخصية بشار / ١٤١ .

٢٥٦- وانظر كذلك د. أحمد كمال زكى / الحياة الأدبية فى البصرة إلى نهاية القرن
الثانى الهجرى / دار المعارف / ٤٧٧ ، حيث يأخذ كلام صاحب « الأغاني » على ظاهره .

بشار والشعوبية

الشائع أن بشاراً متلوناً في ولاته : لأنهم رأوه يفتخر مرة بولانه في بنى عقيل

فيقول :

إنسى من بنى عقيل بن كعب
ومرة بولانه في قيس :

أرى قيساً قُضِرَ ولا تُضَارُ
كأن الناس حين تغيب عنهم
وقد كانت بتدمر خيلُ قيس
بعثى من بنى عيبلان شوس
وما نلقاهموا إلا صدزنا
ومرة يتبرأ من العرب فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال ، وبعضهم
مولاك أكرم من تميم كلها
فارجع إلى مولاك غير مدافع
مولى العُرب ، فخذ بفضلك فاقخر
أهل الفعال ومن قرش المشعر
سيحان مولاك الأجل الأكبر (١)

ورابعة يهاجم الأعراب هجوماً قاصفاً عاصفاً فينشىء فيهم على البديهة رائيته الصاعقة الماحقة ، وذلك فى مجلس مجزأة بن ثور السدرسى الذى كان ينشد فيه الحاضرين شعراً ، وإذا ببندى عنجهى يقتحم المجلس ويبدى استصغاره لبشار وشعره بعدما عرف أنه من الموالى . وهى القصيدة التى يقول فيها :

سأخبر فاخر الأعراب عنى
أحين كُسيَتَ بعد العُرى خَزاً
تُفاخر يا ابن راعيِّ وراع
وكنتَ إذا ظننتَ إلى قراح
ويُسيك المكارمَ صيدُ فار (٢)

وخامسةً يقول :

وَبَيَّتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ يقولون : « من ذا ؟ » وَكُنْتُ الْعَلَمُ
ألا أيها السائلى جاهدا ليعرفنى ، أنا أنف الكرم
نَتَتْ فى الكرام بنى عامر فروعى ، وأصلى قريشُ العجم
فيفتخر بأصله الأعجمى ويمرأه فى بنى عامر وولائه فيهم ، جامعًا بهذه الطريقة الفخر
بالعجم والعرب معًا (٣) ... وهكذا .

والحقيقة أن بشارًا كان يعتز بولائه فى بنى عقيل ، ولا تعرف أنه انقلب ففض
من شأنهم قط . كذلك فرائيته التى صكَّ بها وجه الأعرابى الأحقق المتفطرس وأتفه
وعينيه ليست موجهة إلى العرب (٤) ، بل إلى الأعراب الذين يمثلهم ذلك البدوى .
وبشار يقول بصريح اللفظ : « سأخبر فاخر الأعراب » . ويقول أيضا فى نفس
القصيدة : « يا ابن راعية وراع » . وكل العيوب التى شنع عليه بها إنما هى
عادات الأعراب فى طعامهم وشرابهم ، وليست عادات العرب كلهم . وهذا أمر معروف
لا يحتاج إلى فضل إيضاح . ويؤكد هذا أن مجزأة بن ثور السدوسى صاحب البيت الذى
كان القوم مجتمعين فيه يستمعون إلى شعر بشار لم يشعر أن الكلام موجه إلى العرب
جميعًا ، وإلا لكان (وهو واحد من العرب) قد غضب وأخذته الحمية وشتم بشارا
وطرده ، بل لما سمح له من البداية حين استأذنه أن يرد على ذلك الأعرابى . وإن
تعليق مجزأة على قصيدة بشار التى صبَّها كالنحاس المذاب على رأس البدوى المتعجرف
ليغنى عن كل كلام ، إذ قال لذلك الأعرابى : « قَبَّحَكَ إِلَه ! فأنت كسبت هذا الشرَّ
لنفسك ولأمثالك » (٥) . فانظر كيف ضيق دائرة من يشملهم هجاء بشار فجعلها لا
تضم إلا هذا الأعرابى المعتدى وأمثاله . وعلى أية حال ، فبشار فى هذه القصيدة إنما
يدافع عن نفسه . وليس يهلى المنتصف بعد ظلمه من سبيل . ولا شك أن اعتراض هذا
البدوى الجلف يدل على ضيق أفق ذميم وغباء ما بعده غباء (٦) . لقد خدم بشار
وغيره من الموالى من الشعراء والكتاب لغة القرآن الكريم خدمة جليلة ونفخوا فى حياتها

أنفاسًا عطرة ، فما معنى الاستهانة بأقذارهم ومواهبهم والغض منهم ومن جهودهم ؟
ثم حتى لو كان بشار افتخر بأصله الأعجمي دون أن يثيره أحد أو يعتدى عليه
فلا أظن أن عليه في ذلك من بأس ، فقد كان العرب يفتخرون ابتداءً ، دون أن
يهيجهم أحد ، بعروبتهن وماضيهم الجاهلي فلا ينكر عليهم ذلك منكر ، فلم ينبغي
الإنكار على الأعجمي إن سلك هذا السبيل ؟ لقد كان من الأفضل بطبيعة الحال ألا
ينزلق المسلمون إلى هذا . أمّا وقد تسومح مع العرب فيه فليتسامح مع الموالى أيضا ،
فليس أولئك أفضل من هؤلاء ، بل الجميع بشر وعبادٌ للمولى الأكبر جل وعلا . ولسنا
بهذا ننصر الأعاجم على العرب . لا ، بل نحن نحاول أن ننظر إلى الأمر نظرة عادلة
منصفة . ونحن بعدُ مسلمون نعتز بديننا وكتابنا الذي نزل بلسان عربى مبين ورسوله
العربى الكريم ، ونعرف للعرب الأوائل فضلهم العظيم فى حمل رسالة الإسلام ونشرها
شرقًا وغربا ، والتضحية بالنفس والولد والنفيس فى هذا السبيل . ولكننا لا نوافقهم
إذا رأينا أنهم قد سهوا عن شيء من مبادئ الإسلام .

على أن هناك من يأخذ على بشار أنه كان ساكتا مطاطنا رأسه أيام دولة بنى
أمية فلم ينبس بكلمة عن أصله الأعجمي بل كان يفتخر بالعرب وحدهم ، ثم لما قامت
دولة بنى العباس نفى عن نفسه ذلك وأبدى خبيثة ضميره فانقلب على العرب وعلا
صوته بالتمدح بأعجميته . والحقيقة أن الذى روى رائية بشار المتقدمة وعلق عليها هو
أبو عبد الله المقرئ الجحدري الذى كان يقرأ فى المسجد الجامع للبصرة (٧) ، وهو
ما يجعل من الممكن ، نظرًا على الأقل ، أن تكون تلك الحادثة قد وقعت أيام أن كان
بشار يعيش فى البصرة فى عصر بنى أمية ، فراوينا رجل من أهل البصرة ، وفى
القصة مجزأة بين ثور السدوسى ، وكونه من سدوس ربما دلّ على أنها حدثت عندما
كان بشار يسكن إلى جوار بنى سدوس وبنى عقيل فى البصرة (٨) ، فإن واصل بن
عطاء عندما أعلن ضيق ذرعه به (وواصل مات سنة ١٣٠هـ ، كما بينت فى موضع

آخر من هذه الدراسة ، أى فى العصر الأموى) قال ما معناه أنه لولا عدم رضاه عن أسلوب الغيلة فى التخلص من الخصوم لدسّ إليه من يقتله وهو فى قلب داره ولكان من يقوم بهذا الأمر واحداً من بنى عقيل أو من بنى سدوس (٩) ، أى واحداً من الذين ينزل بشار بينهم فى البصرة ويمت إليهم بصلة الولاء (١٠) . وقد حاولت أن أعرف شيئاً عن مجزأة بن ثور هذا ومتى مات لأصل من ذلك إلى أن أحدد بالضبط متى قيلت هذه القصيدة وهل كان ذلك فى العصر الأموى فعلاً أو فى العصر العباسى ، ولكنى لم أعثر فى كل ما رجعت إليه من كتب التراجم والتاريخ إلا على مجزأة بن ثور الصحابى ، وهو سدوسى أيضاً .

وفى « الأغاني » أن رجلاً شريفاً من بنى زيد قد جاء إلى بشار وعنتفه قائلاً له : « لقد أفسدت علينا موالينا . تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم فى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل » ، فرد عليه بشار هذا الردّ العنيف الملتهب : « والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولقرعى أزكى من عمل لأبرار ، وما فى الأرض كلب يوة أن نسبك له بنسبه . ولو شئت أن أجعل جواب كلامك كلاماً لفعلتُ ، لكن موعدك غداً بالمريد » ، فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشاراً يحضر معه المرید ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المرید فوجد رجلاً ينشد هذا لشعر لبشار فيه وفى قومه :

شهدتُ على الزيدى أن نساءه ضياع إلى أئير العقيلى تزفرُ

...

بَلَوْتُ بنى زيد فما فى كبارهم حلوم ولا فى الأمغرين مُطَهَّرُ

...

أجدهم ولا يتقون دنيّة ولا يؤثرون الحقّ والخير يُؤثَرُ

...

يريدون مسعاتى ودون لقاتهم قناديل أبواب السماوات تزهرُ

ويقولون إن ذلك الزيدى رجع من فوره إلى بيته ولم يدخل المرید حتى مات (١١) .
والذى أحب أن ألقت الانتباه إليه هو أن بشاراً قد واعد الرجل المرید وأنشدت
قصيدته فيه فى ذلك السوق فى اليوم التالى ، أى أنه كان حينئذ فى البصرة . بيد أننا
لا ندرى أكان ذلك فى العصر الأموى أم بعد قيام الدولة العباسية . ذلك أن بشاراً عاد
إلى البصرة وعاش فيها أواخر العصر الأموى وصر الدولة العباسية قبل أن ينتقل إلى
بغداد (١٢) .

وقصيدته الميمية التى أوردنا منها الأبيات التى يقول فيها :

نمت فى الكرام بنى عامر فروعى ، وأصلى قريش العجم
وإن كان قد قالها فى عصر بنى العباس (فى تضاعيف مديحه لعمر بن العلاء أحد
قواد المنصور) فإنه لا يهاجم فيها العرب رغم تمدحه بأصله الأعجمى ، بل بالعكس
يجمع بين فخره بهم وفخره بالأعاجم كما هو بين ظاهر . بل إنه حين أراد التمجيد من
شأن القوم الأعاجم الذين انتسب إليهم نراه قد شبههم بقريش فى العرب ، مما يدل على
أنه يجعل العرب أصلاً يقيس عليهم قومه ، أى أنه كما فى العرب قريش فكذلك
للأعاجم قريشهم أيضاً .

ثم انتهى الأمر إلى أن رفع صوته مجلجلاً بهذه القصيدة التى يقول فيها مشهداً

العرب على ما يقول :

هل من رسول مخبر	عنى جميع العرب
من كان حيا منهمو	ومن ثوى فى التُّرب
بأتنى ذو حسب	عبال على ذى الحسب ؟
جذى الذى أسمو به	كسرى ، وساسان أبى
وقيصر خالى إذا	عددت يوسا نسي
...	
ولاحدا قط أبى	خلف بعير أجرب

ولا أتى حنظلة يتقها من سغب

...

ولا شويها ولا منضضا بالذئبي

ولا تقصت ولا أكلت ضب الحزب

... إلخ .

وقد تسأل د. سيد حنفي حسنين قائلاً : هل كان من الممكن أن يقول بشار والدولة
الأموية بعصبيتها العربية :

هل من رسول مخبر عنى جميع العرب ... إلخ ؟ (١٣)

والحقيقة أننا في حالة بشار لا نستطيع أن نجزم جزماً بشيء في الجواب على هذا
السؤال . لكن حتى لو كانت الإجابة بالنفي فما على بشار وأمثاله من حرج إن هم ردوا
أيام العباسيين بالافتخار على العرب الذين كثيراً ما شمخوا عليهم واستطالوا في عهد
بني أمية (١٤) .

الهوامش

- ١- انظر فى ذلك « الأغاني » ٣ / ١٣٩ .
- ٢- الأغاني ٣ / ١٦٦ .
- ٣- السابق ٣ / ١٣٨ .
- ٤- على عكس ما جاء مثلا فى كتاب د . مصطفى الشكعة « الشعر والشعراء فى العصر العباسى » ٢٥ / .
- ٥- الأغاني ٣ / ١٦٧ .
- ٦- وهناك قصيدة أخرى ، ولكن أصغر من هذه ، قيلت فى ظروف تشبه ظروف إنشاء هذه القصيدة ، ولنفس الغرض ، إذ إن إعرابية قد افتخرت على ابنة بشار ، فما كان من بشار إلا أن امتشق حسام شعره وانهاه به على الأعراب . وهى القصيدة الدالية الموجودة فى الجزء الثالث من الديوان / ص ١٥١ .
- ٧- انظر « الأغاني » ٣ / ١٦٦ .
- ٨- الأغاني ٣ / ٢١٠ .
- ٩- نفسه ٣ / ١٤٦ .
- ١٠- نفسه ٣ / ١٣٦ - ١٣٧ .
- ١١- انظر القصة والشعر فى « الأغاني » ٣ / ٢٠٤ .
- ١٢- انظر د . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / ٢٠٢ .
- ١٣- انظر كتابه « بشار بن برد - دراسة فى النظرية والتطبيق » / ١٤١ .
- ١٤ . ومع ذلك فقد رفع إسماعيل بن يسار صوته مفاخرًا بأصله الأعجمى أيام بنى أمية . كما أن بعض الشعراء من ذوى الخؤولة الأعجمية قد تمدحوا آنذاك بهذه الخؤولة . بل إن جريرا قد مدح الموالى فى بعض أشعاره مدحًا شديدًا (انظر د . شوقى ضيف / العصر الإسلامى / دار المعارف / ط ٧ / ٢١٢ - ٢١٤) .

الملامح الفنية لشعر بشار

سمات الغزل عنده

لكل شاعر أسلوبه الفني الخاص الذي يتميز بملامحه ألفاظا وعبارات وتراكيب وصوراً ومعلّاتى . وهذا التميز يتمثل فى جماع هذه الملامح ، إذ ما أكثر أن يتكرر فى أسلوبه أئيب أو شاعر آخر هنا اللفظ أو ذلك التركيب مثلاً ، بيد أن العبرة باجتماع هذه الملامح كلها معاً . ويمكن تشيل ذلك بمعارف الوجه فى الإنسان ، فإنه من الاستحيل أن يتفرد شخص بشكل عينيه فلا تشاركهما فى ذلك عينا إنسان آخر ، أو يلبون بشرته أو شعره أو التندية التى على يمين أنفه أو فلع أسنانه أو الغضون التى على جبهته . ولكن الذى يميّزه هو التركيبة الناشئة من تجمع كل هذه الملامح فى وجه واحد على ذلك النحو .

وقد لاحظت عدداً من السمات اللفظية والتصويرية فى شعر بشار :

من ذلك استعماله عدداً من الراء فى غزله كلمة « دمى » ، كما فى الأبيات

التالية :

- أنهى أن أئسّ قبلك فى الشز ب لكى تصيحى بنا كالمصابه (١)
- • •
- دست إلى التبان تخيرنى عنها فمئى ورمما كذبا (٢)
- • •
- وهست فى الكتاب إلى : بنى - وقتك - لو أرى خلا مضيت (٣)
- • •
- دست إليها منطفى ، وكوتها مناسب مثل الوشى بالحيرات (٤)
- • •
- دست إليها يا مجتز ولى نصى إن أصاب اعتزم (٥)

* * *

أبدننا الله به غيره ودرّسى حير الغيزران (٦)
ومما تكرر عنده فى شعره الغزلى أيضا، ولكن على نحو أوسع ، كلمة
« مَجَسَّد » وجمعها « مجاسد » . والمجسد نوع من الملابس النسائية ذو يدين على
هيئة الجسد ومصبوغ بالزعفران ، كانت النساء يلبسنه فى تلك العصور . وهو يستعمل
هذه الكلمة فى سياق التغزل بحبيباته عادة :

زينن المجاسد ، مثلها يُشْفَى به خِفْنُ القلوب (٧)

* * *

كالشمس ، إن برقت مجاسدها تحكى لنا الياقوت والذهب (٨)

* * *

فى مجسديها ظبى برثى قلبى عليها هالك متميت (٩)

* * *

شريت بكأس العاشقين ، وزارنى هلال عليه مجسد وعقود (١٠)

* * *

بيننا كذا إذ برقت برقة بين رداء الخيزر والمجسد (١١)

* * *

هى بدر السماء ، لا بل هى الشمس س تدلت فى مذهب وجساد (١٢)

* * *

حور أوانيس كالدمى أو كالأهله فى المجاسد (١٣)

* * *

لعوب بألباب الرجال ، كأنها إذا سمرت بدر بدا فى المجاسد (١٤)

* * *

فلما اشتكت حر السموم وأهلها قريب وملت مشيها فى المجاسد (١٥)

* * *

تعدو الساق وتشمس في مجاسدها كأنها صنم في الحى معمود (١٦)

* * *

من بنى مالك بن وهبان كالشما دن جلى في مجسد وعقود (١٧)

* * *

وصفت مجاسدها روادف نعمة ومهفها قلق الوشاح خضيدا (١٨)

* * *

وإذا غدت ذكرته وبدت لعينك فى المجاسد (١٩)

* * *

ذهب بألباب الرجال كأنها إذا برزت برديّة فى المجاسد (٢٠)

* * *

جنية الحسن ، لا بل فى مجاسدها ما لم تر العين بين الجن والبشر (٢١)

* * *

وعروس يشرب فى المجاسد والحيّا أيام فضل جمالها مذكور (٢٢)

ولا تدري بالضبط لماذا تكرر ذكر « المجسد » فى غزل بشار على هذا النحو اللافت للنظر ، والرجل كفيف تستوى عنده الملابس جميعا . أتراه كان هو التقلية فى ملابس النساء فى ذلك العصر ورأى بشار الناس يكثرون من ذكر هذه اللفظة فأعجبته وأكثر من إدخالها فى شعره ليكون عصريا مثلا ؟ لكن هل تشيع هذه الكلمة فى شعر المعاصرين له ؟

أيّا ما يكن الأمر فهناك كلمة أخرى تدل على نوع آخر من الملابس تتكرر فى شعر بشار الغزلى رغم أنها ليست من الألفاظ الشائعة فى شعر الشعراء لا قديما ولا حديثا ، وهى كلمة « قرقر » . و « القرقر » (وبعضهم يرى أن الصواب « قرقل ») هو ثوب نسائي لا كتين له :

أسيّت قرقر العفاف وفى الغيّ — من دواءً للناظرين وداء (٢٣)

* * *

وآخر عهد لى بها يوم أقبلت تهادى عليها قرقرّ وردداهُ (٢٤)

* * *

كأن فى قرقرٍ تضمّنها سفرجلا طيبا وتفاحا (٢٥)

* * *

إذا واجهتها يومئذ تجرّ القرقر العجرا (٢٦)

* * *

تُعقى أنثرى عمدا بجرّ المرط والقرقر (٢٧)

ويكثر عنده وصف الحبيبة بضخامة الأرداف وثقلها ومن ثم بطء حركتها ، وإن

كانت مع ذلك هزيمة الحشا :

سلمى نعال الردف مهضومة يأبى سواها قلبى الخالبُ (٢٨)

* * *

وتنال الأرداف مهضومة الكشح كصن الرياحن يهتزّ رطباً (٢٩)

* * *

كانها قمر رابٍ روادفه عذب الثنايا بدا فى عينه دمعُ (٣٠)

* * *

برحمتٍ بأطلع فى قلائده وغدت تهزّ روادفا رُجحا (٣١)

* * *

مبتلئة فخمسة فعمّة هضيم الكشح بوضها أذبحُ (٣٢)

* * *

ريا الروادف ملوآح منقمة يا حينذا كل ريا الردف ملوآح (٣٣)

* * *

فأعطيتها كفّ الصفاء فأعرضت ثقيلة أذعاص الروادف رودُ (٣٤)

* * *

تكاد إذا قامت لشيء تريده تميل بها الأرداف ما لم تشدّد (٣٥)

* * *

رُجُح الروادف والشَّوَى لا يأتزرن على الرفائند (٣٦)

* * *

وثقيلة الأرداف مُخَطَّفة الحشا مثل الغزالة مقلتين وجيدا (٣٧)

* * *

وتقال إذا راحت، كسول إذا غدت وتمشى الهوينى حين تمشى تأودا (٣٨)

* * *

عجزاء من نسوة منعمة هيف ثقالب أردافها خُرُود (٣٩)

* * *

وتقال الأعجاز قطعن قلبى بحديث لذٌ ودهر قصير (٤٠)

* * *

رُجُح الروادف كالظبا . تعرضت حُونا ووظفا (٤١)

وبالمناسبة ، فقد كان هذا هو ذوق العرب فى الجمال النسائى فى القديم . وما أكثر ما وصف الشعراء ضخامة أرداف المرأة التى يتغزلون فيها .

وهناك بيت آخر بنفس المعنى والصورة الموجودين فى الشاهد الثانى من هذه

الشواهد، ونصه :

قامت لتركب فارتجت روادفها فى لين غصن من الريحان منآد

ظن د. عبدالفتاح صالح نافع أن الشاعر يشبه فيه أرداف المرأة بقصن الريحان ، ورأى فى ذلك خروجا على المألوف ، لأن الشعراء إنما يشبهون بالقصن قوام المرأة لا روادفها (٤٢) . لكن الحقيقة أن بشارا لم يخرج على مألوف الشعراء العرب ، فهو يقول إن أردافها ترتجُ فى الوقت الذى يأود فيه قوامها مثل غصن الريحان .

هذا ، وقد نقل البروفسور بيستون البيت الثالث من الشواهد المارة هنا كالتالى :

كأنها قمر راب روافده عذب الثنايا بدا فى عينيه دَعَجُ

باستبدال كلمة « روافده » بـ « روادفه » (٤٣) ، مع أنه ينقل عن نفس المصدر الذى

أنقل منه . ويبدو لي أن الأمر مرجعه إلى السهو . على أن هذا ليس بيت القصيد، بل
 " She is like a moon full-rounded , sweet of smile and :
 " with swelling black of eye " (٤٤) ، ثم علق عليه مفسراً « راب روافده » بـ
 " buttocks " ، أى « ضخم الأرداف » . وهذا فعلاً ما عناه الشاعر ، كما هو
 واضح . إلا أن البروفسور بيستون قد زاد فقال إن عبارة « راب روافده » تعنى
 « البدر » ، وإن « البدر » صورة عربية لوصف الوجه الجميل (٤٥) . وهذا إغراق
 فى النزاع وإخطاء للرمية تماماً ، فمراد الشاعر أن حبيبته ذات وجه مشرق كالقمر ،
 وتتمتع بأرداف ثقالة ضخامة . هنا كل ما هنالك . أما التفسير الذى أتى به المستشرق
 فقد جرّته إليه قراءته البيت خطأ فيما يبدو .

كما يكثّر عند بشار وصف المرأة بأنها « حوراء » . وهو هنا أيضاً يجرى
 على الذوق العربى القديم . قال :

حوراء كانت هوى نفسى ومنيتها لو قرب الدهرُ من لُقيانها أمداً (٤٦)

* * *

حورٌ أو أنس كالدمى أو كالأهله فى المجاسد (٤٧)

* * *

وجوارٍ حور المدامع لذات الأمانى كالنظم نظم الفريد (٤٨)

* * *

أحورٌ عيسى لنا حبانله بالحسن ، لا بالرئسى ولا القعد (٤٩)

* * *

ظلت على قلبها الحوراء ممكّة من طاعن حرك الأحياء والكبداء (٥٠)

* * *

أفالأّن إذ مالست إليها صبايتى أعزّى عن الحوراء ذات المجاسد ؟ (٥١)

* * *

لا تحسبني كمن تجرى مدامعه من الوعيد مع الحور الرعايد (٥٢)

* * *

حوراء كالريم أعلاها ، إذا خرجت تهتز في كفل كالذعص مرمار (٥٣)

* * *

حوراء ، في مقلتها حين تبصرها سحر من الحسن لا من سحر سحار (٥٤)

* * *

الشمس تدنو ولا تصطاد ناظرها ولو بدت هي صادت كل نظار (٥٥)

* * *

وأحور محسود على حسن وجهه يزين السموط نحره وترايبه (٥٦)

* * *

وحوراء من حور الجنان غريرة يرى وجهه في وجهها كل ناظر (٥٧)

* * *

جوراء جاءت من الفردوس مقلبة فالشمس طلعتها والمسك رباها (٥٨)

وهو يسمى النساء اللاتي يتعلق بهن بـ « الأوانس » (أو « الأنسات »)

و « الغوانى » (أو « الغانيات » ، أى اللاتي بلغ من جمالهن أنهن يستغنين عن

أى حلية أو زينة) :

وأقعدنى عن الغر الغوانى وقد ناديت ، لو سُمع النداء (٥٩)

* * *

هجرت الأنسات وهن عندي كماء العين ، فقدهما سواء (٦٠)

* * *

فقل للغانيات يقرن ، إنسى وقرت وحن من غزلى انتهاء (٦١)

* * *

إن الغوانى لا يُغنين مسألة ولا ترى مثل ما يسلبنا سلبا (٦٢)

* * *

حسوز أوانس كالدمى أو كالأهلهة فى المجاسيد (٦٣)

* * *

أنى شبابك قد مضى محمودا ودع الفوانى إن أردن صدودا (٦٤)

* * *

أعادك طيفُها وبما يعوذُ وحب الغانيات جوى يؤوذُ (٦٥)

* * *

لم أقهر عن الأوانس حتى مستى من عبيدة التسهيدُ (٦٦)

* * *

ثم بدلتُ صفحتى للفوانى كل شىء إلى يلى مردودُ (٦٧)

* * *

لو ان الغانيات ملكن قلبى لكان محلّ عبدة فى السوادِ (٦٨)

* * *

فحسبى من مهازلة الفوانى ومن كأس لسورتها فسادُ (٦٩)

* * *

يقول إذا راح الأوانسُ حَيْضًا : فديتُ خليلًا لا يحيض ولا يلدُ (٧٠)

* * *

ورغبتُ عن أنس الأوانس تجتنى طُرفَ الهوى وعينهنّ قميْرُ (٧١)

* * *

صدتُ الأوانس كالدمى وسقيتهنّ الخمر صرفًا (٧٢)

* * *

فلا يحسب البيض الأوانس أن فى فزادى سوى سَعْدَى لغانيةٍ فضلًا (٧٣)

* * *

نهانى أمير المؤمنين عن الصبا فدون الفوانى عومة لا أعومها (٧٤)

كذلك ف «الشهاد» و «الأرق» والتقلب على «الوساد» من الألفاظ

والمعانى التى تبرز فى غزل بشار :

فتقلبتُ ساهرا مقشعسِرَ الذوائسِ (٧٥)

* * *

أهدى لعينى ذكرُكم سَهْداً من غير ما سقم ولا طيبَ (٧٦)

* * *

أقاسى بكِ تسهيدا ولو أسطبع حوكتُنة (٧٧)

* * *

بل كيف يحمل طولَ ليلته قلقُ الوسادِ بيوتَ مُجتبِحا ؟ (٧٨)

* * *

أرقى لشخص ما يفارقنى ويحببه قلبى وإن نزعها (٧٩)

* * *

لقد هاج دمعى نازح بنزوحه ونومى إذا ما نوى الناس أنزحُ (٨٠)

* * *

أسكتِ شقة نفسه فأذاعها وبخلتِ فاتخذ الهموم وسادا (٨١)

* * *

يا شوقها لفراقنا وتقلبى فوق الوسائدُ (٨٢)

* * *

ولا صاحبٌ أشكو إليه فأشتفى إذا ما شكا رأسى مكان الوسائدِ (٨٣)

* * *

قطعَتِ الليالى فى هجره رقادا ، ويقطعها ساهدا (٨٤)

* * *

لم أقصر عن الأوانس حتى مسنى من عبيدة التسهيدُ (٨٥)

* * *

كانى ممن هواك أخو فراشٍ يفوق بنفسه قلقُ الوسادِ (٨٦)

* * *

فآلى على الهجر الرقاد ، ولم تزل نجيا لضيغان الهموم مهتدا (٨٧)

* * *

أشادن ، قد مضى ليل وليل أكابده وقد قلق الوساد (٨٨)

* * *

فبات هجورا للوساد ، وقد يرى على ما بعينه مكان الوسائد (٨٩)

* * *

وكيف يُغفى قلق الوساد ، جن عليه الليل بالسهاد ؟ (٩٠)

* * *

نبا بك خلف الظاعنين وساد ومالك إلا راحتك عماد

لخذك من كفيك فى كل ليلة إلى أن ترى وجه الصباح وساد (٩١)

* * *

لم أسهد من المراح ، ولكن طال ليلى بها وكان قصيرا (٩٢)

وكذلك لفظا « الكآبة » و « الكمد » :

أبيت وعينى بالدموع رهينة وأصبح صبا والفضاد كيب (٩٣)

* * *

فأجرع الضوح لا ترعى مسارحه كل المنازل مبثوث بها الكآب (٩٤)

* * *

طرقتنا بالزايين الرباب ربة زور عليك منه اكتئاب (٩٥)

* * *

سألانى وصف ما ألقى ، ولا أستطيع الوصف . إنى مكتئب (٩٦)

* * *

دعنى وسلمى أعش بلذتها إن ساعفت أو أمت من الكمد (٩٧)

* * *

نظروى لىذاك الزمان نصرفُفه طيبا ، ونشقى به صدى الكمدِ (٩٨)

* * *

أفما أنسى لك يا عبيدة أن تشفى أخا الأحزان والكمدا ؟ (٩٩)

* * *

وقد شفنى ألا تزال كليفةً تصبى فيها فأصبح مُكَمِّداً (١٠٠)

* * *

سوى شوق عينى إلى وجهها وأنسى إذا فارقت أكمداً (١٠١)

الهوامش

- ١- الديوان / ١ / ١٩٣ .
- ٢- ١ / ٣٢٥ .
- ٣- ٢ / ٦ .
- ٤- ٢ / ٤٦ .
- ٥- ٤ / ٧٥٨ .
- ٦- ٤ / ٧٠٧ .
- ٧- ١ / ٣٨٩ .
- ٨- ١ / ٦٧٩ .
- ٩- ٢ / ٣٤ .
- ١٠- ٢ / ٣٤٩ .
- ١١- ٢ / ٥٧٩ .
- ١٢- ٢ / ٦٨٩ .
- ١٣- ٢ / ٣٤٣ .
- ١٤- ٢ / ٧٥٢ .
- ١٥- ٢ / ٣٦٢ .
- ١٦- ٢ / ٦٦٢ .
- ١٧- ٢ / ٣٧٢ .
- ١٨- ٢ / ٧٢٣ .
- ١٩- ٣ / ٤٥ .
- ٢٠- ٣ / ٧٧ .
- ٢١- ٣ / ٦٣٢ .
- ٢٢- ٣ / ٣٠٢ .
- ٢٣- ١ / ١١٧ .

- ٢٤- ١ / ١٢٦ .
- ٢٥- ٢ / ١٥٤ .
- ٢٦- ٣ / ٢٣٨ .
- ٢٧- ٣ / ٣٠٤ .
- ٢٨- ١ / ٢٢٦ .
- ٢٩- ١ / ٣٨٢ .
- ٣٠- ٢ / ٧٧ .
- ٣١- ٢ / ١٠٢ .
- ٣٢- ٢ / ١٠٩ .
- ٣٣- ٢ / ١٣٤ .
- ٣٤- ٢ / ١٦٣ .
- ٣٥- ٢ / ٢٠٨ .
- ٣٦- ٢ / ٢٤٣ .
- ٣٧- ٢ / ٢٦٠ .
- ٣٨- ٣ / ٣١١ .
- ٣٩- ٣ / ٦٦ .
- ٤٠- ٣ / ٢٠٥ .
- ٤١- ٤ / ١٠٨ .
- ٤٢- انظر كتابه « الصورة في شعر بشار » / دار الفكر / عمان / ١٩٨٣ م / ٢٠٢ .
- ٤٣- انظر « Selections from the Poetry of Bassar » / ص ٦ .
- ٤٤- السابق / ٣٢ (السطر الأخير) .
- ٤٥- السابق / ٣٣ (السطران ٦ ، ٧ من أسفل) .
- ٤٦- ٢ / ١٩٢ .
- ٤٧- ٢ / ٢٤٣ .

. 275 / 2 - 2A
. 77 / 2 - 2A
. 78 / 2 - 00
. 77 / 2 - 01
. 207 / 2 - 02
. 171 / 2 - 03
. 177 / 2 - 04
. 00 - 2 / 77
. 11 / 2 - 05
. 80 / 2 - 06
. 220 / 2 - 07
. 20 - 1 / 2 - 08
. 20 - 1 / 2 - 09
. 16 - 1 / 2 - 10
. 207 / 1 - 11
. 222 / 2 - 12
. 227 / 2 - 13
. 12 / 2 - 14
. 20 - 2 / 2 - 15
. 22 / 2 - 16
. 20 / 2 - 17
. 01 / 2 - 18
. 20 - 2 / 2 - 19
. 228 / 2 - 20

. ١٠٩ / ٤ -٧٢

. ١٢٩ / ٤ -٧٣

. ١٨٧ / ٤ -٧٤

. ١٦٣ / ١ -٧٥

. ٢٦٣ / ١ -٧٦

. ١٥ / ٢ -٧٧

. ٩٨ / ٢ -٧٨

. ٩٩ / ٢ -٧٩

. ١٠٥ / ٢ -٨٠

. ١٦٥ / ٢ -٨١

. ٢٤٥ / ٢ -٨٢

. ٢٦٤ / ٢ -٨٣

. ١٤٨ / ٣ -٨٤ وقد ورد هذا البيت بنفس النص تقريبا في ٣ / ١٤٨ .

. ٢٠ / ٢ -٨٥

. ٢٢ / ٢ -٨٦

. ٢٢ / ٢ -٨٧

. ٥٠ / ٢ -٨٨

. ٧٦ / ٢ -٨٩

. ٩٢ / ٢ -٩٠

. ١٢٥ / ٢ -٩١

. ٢٢٤ / ٢ -٩٢

. ١٧٩ / ١ -٩٣

. ٢٢٩ / ١ -٩٤

. ٢٢٢ / ١ -٩٥

- . 289 / 1 -97
- . 187 / 2 -97
- . 7 / 2 -98
- . 27 / 2 -99
- . 87 / 2 -100
- . 121 / 2 -101

التعبير عن الإغراء الجنسي أو العاطفى بلفظ « الصيد »
 الإغراء الجنسي والعاطفى هو لون من ألوان المطاردة يحاول المحب أن يفوز فيه
 بقلب حبيبته ويقتنصه . وكثيرا ما يحتاج الأمر إلى الصبر والتخطيط والترصد والتظاهر
 بعكس ما هو واقع ... إلخ ما يلجأ إليه الصائد للإيقاع بفريسته . وكثيرا ما عبّر
 الشعراء عن الأسلوب الذى ينتهجه المحب للفوز بقلب حبيبته بلفظ « الصيد »
 ومشتقاته . من ذلك قول طرفة عن سلمى حبيبته :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله فهل غير صيد أحرزته حباته ؟
 وقول امرئ القيس يفتخر بأنه لم يقع صيدا سهلاً فى جباله « هِرَّ » ، التى
 وقع فيها غيره من الرجال :

وهرّ تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حُجْر
 وعلى عكسه المرقش الأكبر ، الذى يتشكى من أنه يصاد ولا يستطيع
 الاصطياد :

فما بالى أفسى وُخَانُ عهدي ؟ وما بالى أصاڈ ولا أصيد ؟
 ويقول عدى بن الرقاع :

يصطاد يقظان الرجال حديثها وتطير بهجتها بروح الحالم
 ويقول سُهَيْم :

لهند وأتراب لها شَبَهِ الدمى يصدن فما ينجو لهنّ سليمُ
 ويقول عمر بن أبى ربيعة على لسان إحدى صواجه :

ليست المغيرى الذى لم نجزه فيما أطال تصيْدى وطلابى
 كانت تردّ لنا المنى أيامنا إذ لا نُلام على هوى وتصابى
 ويقول أيضا :

تراءت لى لتقتلنى فصادتسى ولم أصيدِ
 ويقول جميل :

ولكنما يظفرن بالصيد كلما جلون الثنايا الفرّ والأعين النُجلاً
ويقول القطامي :

وفى الخدور غمامات برقن لنا حتى تصيدتنا من كل مصطاد
ويقول أعشى همدان مصورا العلاقة بينه وبين الحسنات على أنها علاقة صيد
من كلا الطرفين للآخر :

أصيد الحسان ويصطدنتى وتعجبتى الكاعبُ الْمُعْصِرُ
ويصف جرير حبيبته بـ « صائدة القلوب » :

طرقتك صائدة القلوب، وليس ذا وقت الزمارة ، فارجمى سلام
ويقول الوليد بن يزيد :

أضحى فؤادك، يا وليد، عميدا صبًا قديما للحسان صيودا
وليس قليلاً تصوير بشار هو أيضا للحبِّ وأغراياته بألفاظ « الصيد » :

من المصيدات بكل تَبَلٍ تسيل إذا مشت سيل الحباب (١)
* * *

أَسَدٌ تصيده غزالٌ شادنٌ ما اصطاد قبلك شادنٌ آسادا (٢)
* * *

أطرف مقلتيك المريضة صديته ؟ ما إن سمعتُ بمثله مصطادا (٣)
* * *

من حُبِّ ظبي صاده يا من رأى ظبيا يصيدُ ؟ (٤)
* * *

وتقارسُ قمد زانها حلقُ غدائرها تصيدُ (٥)
* * *

كالحلى حُنن حديتها ودلالها إحدى المصيدُ (٦)
* * *

بيضاء كالدرة الزهراء غرتها تصطاد عينا ولا تُرجنى لمصطاد (٧)

* * *

أجـدك لا أنت تدنيننى ولا الصيدُ مَبَعٌ صائدا (٨)

* * *

غداة يروقه كَفَلٌ نبيـل وعينٌ فى النـقاب لها صيـودُ (٩)

* * *

أذكرتُ نفسى عشية الأحـدِ من زائر صاننى ولم يعـيدِ (١٠)

* * *

لقد صاننى ريمٌ أردت اصطياده وما كتُّ لولا ما أردتُ أصادُ (١١)

* * *

صـدتُ الأوائس كالدـمى وسقيتُهـن الخـمر صـرقا (١٢)

الهوامش

- ١- ١ / ١٤٩ .
- ٢- ٢ / ١٦٦ .
- ٣- ١ / ١٦٨ .
- ٤- ٢ / ٣١٤ .
- ٥- ٢ / ٣١٦ .
- ٦- ٢ / ٢٤٥ .
- ٧- ٢ / ٣١٩ .
- ٨- ٣ / ٣ . وقد ورد هذا البيت بنفس النص تقريبا في ٣ / ١٤٧ .
- ٩- ٣ / ١٥ .
- ١٠- ٣ / ٦٥ .
- ١١- ٣ / ١٣٦ .
- ١٢- ٤ / ١٠٩ .

لعوب بألباب الرجال

- هناك عبارة غزلية تكررت في شعر بشار أربع مرات على الأقل مع تغيير الكلمة الأولى فيها ، وهي قوله : « لعوب / شغوف / ذهوب بألباب الرجال » :
- لعوبٌ بألباب الرجال كأنها إذا سَفَرَتْ بدرٌ بدا في المجاسدِ (١)
- * * *
- ذهوبٌ بألباب الرجال كأنها إذا برزتُ برديةً في المجاسدِ (٢)
- * * *
- لعوبٌ بألباب الرجال ، وإن دنت أطيعَ التقى ، والغى غَيْرُ مطاعِ (٣)
- * * *
- وجاريةٌ يُغلى بأمثالها الفتى شغوف لألباب الرجال فتونِ (٤)

الهوامش

١- ٢ / ٢١٠ .

٢- ٣ / ٧٧ .

٣- ٤ / ٩٩ .

٤- ٤ / ٢١٩ ، وإن كان الكلام فى البيت ، على ما يبين الشيخ ابن عاشور ، عن

القصيدة لا عن جارية من النساء .

الأسود يحرسونها

عبّر بشار في ثلاثة مواضع على الأقل من شعره الذي بين أيدينا عن صعوبة لقاء الحبيبة ومنعتها بأن بيابها أسودًا يحرسونها فليس بإمكانه من ثم الوصول إليها . وفي أحد هذه المواضع نراه قد جعل الأسود من « الجن والسادة » :

عساد الغداة الصبَّ عيْدُ فالقلب متيسول عميْدُ
مِنْ حَب ظبي صاده يا من رأى ظبيًا يصيد ؟
مِنْ حوله حراسه وبيابه أسد مريد (١)

* * *

ودون لقائهما ليلاً أسود الجن والسادة (٢)

* * *

وما كان إلاّ لهو يوم سرقته إلى فاطر العينين من دونه الأسد (٣)

الهوامش

١-٢ / ٢١٤ .

٢-٢ / ٦٢ .

٣-٢ / ٦٩ .

الاستشهاد على آلام حبه بنحوه

تضافرت الرويات على ضخامة جثة بشار ، حتى لقد وُصِفَ مرة بأنه كالجاموس . ومع هذا فقد تجاهل بشار هذه الضخامة فيه وكرّر في شعره القول بأنه بلغ من النحول بسبب العشق مبلغا عظيما ، ممّا دفع بعض معاصريه إلى السخرية منه والتهكم القارص به . قال له بعضهم تعليقا على البيت الأخير من الأبيات التالية : « ما حملك على هذا الكذب ؟ والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم ما حركتك من موضعك ! » (١) . وقال نفر من أصدقائه حينما أنشدهم هذا البيت : « يا ابن الزانية ، تقول ذلك وأنت كأنك فيل ، عرضك أكثر من طولك ! » (٢) .

يا صاح ، لا تسأل بحبى لها وانظر إلى جسمى ثم اعجبى

من ناحل الألواح لو كلتته فى قلبها مرّ ولم يتشبى (٣)

* * *

وبرانى الحب حتى كثُرت فيها نحوى (٤)

* * *

يأمرون المحب بالصبر عمن قد برى الحبُ جسمه فاستطاحا (٥)

* * *

فى حُلتى جسم فتى ناچلٍ لو هبت الريحُ له طاحا (٦)

الهوامش

- ١- الأغاني / ٣ / ٢١٤ - ٢١٥ .
- ٢- السابق / ٣ / ٢٢٣ .
- ٣- الديوان / ١ / ١٤٦ .
- ٤- ١ / ٢٢١ .
- ٥- ٢ / ١٢١ .
- ٦- ٢ / ١٥٢ .

تميته وتحية

كثيرًا ما وصف بشار تأثير الحب عليه بأنه الموتُ ، والحبيبة هي قاتلته التي تدفنه في بعض الأحيان حيًا . ولكنه في بعض الأحيان الأخرى يجعلها محييته . إنها إذن تميته وتحية : تميته بقسوتها وهجرها وعدم استجابتها لحيته ، وتحية إذا رضيت عنه أو نزلته ريقها . بل إنها إن تنزلت وكلمت ميتًا في نعشه قد مات بالأمس وشيع موتًا فإنه يُبعث ويكتب له الخلود :

نَدَبَتْ فِي الْمَسْبَا ت قَتِيلَ الْكَواعِبِ (١)

* * *

يَغْشَانِي الْمَوْتُ مِنْ وَجْدٍ بِهَا دِيمًا وَالشُّوقُ تَأْخُذْنِي مِنْهُ أَهَاضِيبُ (٢)

* * *

لَوْ مِتُّ ثُمَّ سَقَيْتَنِي بِرُضَابِهِ رَجَعْتَ حَيَاةَ جِنَازَتِي بِرُضَابِهِ (٣)

* * *

أَنْتَ بَعْضُ مَا أَلْقَيْتَ نِي مِنْ هَجْسَرِي وَأَلْقَيْتَ

فَمَا أَسَيْتَ حَتَّى مَدَّ بَرِيحَ الْعَيْءِ وَسُجِّيْتُ (٤)

* * *

قَدْ مِتَّ مِنْ شَوْقٍ إِلَى وَجْهِهَا وَلَوْ أَرَاهَا فِي مَنَامِي حَيَّتْ (٥)

* * *

دَفَنْتَنِي حَيًّا وَلَا ذَنْبَ لِي وَالْحَيَّ لَا يُدَقِّنُ حَتَّى يَمُوتَ (٦)

* * *

فَفَوَّادَهُ طُرًّا يَعِيشُ بِذِكْرِهَا وَيَمُوتُ حِينَ تُظِلُّهُ الزَّفَرَاتُ (٧)

* * *

وَلَوْ أَنْتَ فِي التَّرْبِ ثُمَّ دَعَوْتَنِي لَبَيَّتُ صَوْتَكَ وَالْعِظَامُ رَقَاتُ (٨)

* * *

عَبِيدَةُ هُمُ النَّفْسِ إِنْ يَدُنْ حَبُّهَا وَإِنْ تَنَّى عَنْهَا فَارِقَ النَّفْسِ رُوحُهَا (٩)

* * *

وَلَوْ تَكَلَّمْ مُحَمَّدٌ مَحْمُولًا جَنَازَتُهُ قَدْ مَاتَ بِالْأَمْسِ أَوْ تَرْتَى لَهُ خَلْدًا (١٠)

* * *

يَمُوتُكَى شَوْقِي وَتَحْيِينِي الْمَنَى فَلَسْتُ بِحَيٍّ فِي الْحَيَاةِ وَلَا الرَّدَى (١١)

* * *

مَا تَأْمُرِينَ لِنَدَى عَيْنِ مَوْزِقَةٍ قَدْ مَاتَ مِنْ حَبِّكُمْ يَا عَبْدَ أَوْ كَادَا؟ (١٢)

* * *

وَلَوْ وَهَبْتِ لَنَا يَوْمًا نَعِيشَ بِهِ أَحْيَيْتِ نَفْسًا وَكَانَتْ مِنْ مَسَاعِيكِ (١٣)

الهوامش

- ١-١ / ١٦٤ .
- ١-٢ / ١٩٤ .
- ١-٣ / ٢٨٠ .
- ٢-٤ / ١٨ .
- ٢-٥ / ٢٢ .
- ٢-٦ / ٣٣ .
- ٢-٧ / ٣٥ .
- ٢-٨ / ٣٦ .
- ٢-٩ / ١٤٣ .
- ٢-١٠ / ١٩٢ .
- ٢-١١ / ٢٠٨ .
- ٣-١٢ / ١٤٦ .
- ٤-١٣ / ١٢٤ .

الوقوع فى الحب قضاء وقدر

من المواقف التى يشعر فيها الإنسان شعوراً قويا غلابياً بأنه مسلوب الإرادة مسير ، لا رأى له فى الأمر ولا يستطيع أن يتخذ فيه قرارا ، موقف الحب . إن المحب فى البداية لا يكاد يشعر بالهوة التى ينزلق إليها . وعندما يبدأ فى التنبه إلى مشاعره يكون الأمر من اللذة والحلاوة بحيث لا يفكر مطلقاً أن يتوقف ليبصر موضع قدمه . ثم إذا تآزمت الحال وأخذت الآلام تنتشاه وتبرّج به يكون قد علق فى شباك الهوى على نحو لا يمكنه التخلص منه ، وعندئذ يتراعى له الأمر وكأنه قدر مبرم لا يستطيع حياله شيئاً . يقول المجنون معبراً عن هذه الحالة الأليمة اليانسة التى يسميها ابتلاء :

خليلي ، لا والله لا أملك — ذى قضى الله فى ليلي ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وإبتلانى بحبها فهلاً بشيء غير ليلي ابتلتانيا ؟
ويقول جميل بثينة :

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابى حبيب إليه ، فى ملامته ، رشدى
وقال : أفق . حتى متى أنت هائم بيثنة ؟ فيها قد تعيد وقد تُبدي
فقلت له : فيها قضى الله ما ترى على . وهل فيما قضى الله من رد ؟
ويقول ابن أبى ربيعة مخاطباً صاحبه أسماء :

أورثتني داءً أخامره ، أسماء ، بز اللحم عن عظمي
لو كنت أنت قسمت ذلك له منى عليه لجرت فى القسَم
لكن ربي كان قدره فقضاء ربي أفضل الحكم
ويقول الوليد بن يزيد :

أنت همى يا سليمى قد قضاء الرب حتما
نزلت فى القلب قسرا منزلا قد كان يُحمى

ثم هذا هو سيد التابعين سعيد بن المسيب ، فيما يقول جامع بن مَرْجِيَة

الكلابى ، يفتى بأن المحب لا لوم عليه ولا حرج ، إذ إن الأمر كله خارج عن إرادته . والله لا يكلف عبده إلا ما استطاع إليه سبيلا :

سألت سعيد بن المسيب مفتى الـ مدينة : هل فى حب ظمياء من وذر ؟
فقال سعيد بن المسيب : إنما تلام على ما تستطيع من الأمر
ولم يتخلف بشار هو أيضاً عن قافلة المحبين الذين يتعللون لما يقاسونه فى
حبهم من الهموم وألوان الكرب والشقاء بأنه قضاء وقدر . وهل يُرَدُّ القضاء كما يقول ؟
وهل على المحب من ذنب فى أمر قُدِّرَ عليه أن يشقى به فى سابق الكتب ؟ :

لم تلها يدي بحولى ، ولكن قُضِيَتْ لى . وهل يُرَدُّ القضاء ؟ (١)

* * *

وما ذنب مقدورٍ عليه شقاؤه من الحب عند الله فى سابق الكُتُبِ؟ (٢)

* * *

سِيقَتْ إِلَى الشَّامِ ، وما ساقها إلا الشُّقا والقَدْرُ الجالِبُ (٣)

* * *

لقد كُتِبَ عن عَضِّ الصَّبَابَةِ والهوى غَنِيًّا ، ولكن المقادير تغلبُ (٤)

* * *

ولو متَّ كان الموت خيراً من الشقا وما للفتى مما قضى الله مخرجُ (٥)

* * *

وعلى النساء بشاشة وأرى الصلاح إلى فساد

فأصبر لقسمة ما ترى لا يُدَقِّعُ القدر المعادى (٦)

الهوامش

. ١١٩ / ١ -١

. ١٨٨ / ١ -٢

. ٢٢٦ / ٢ -٣

. ٢٤١ / ١ -٤

. ٩٥ / ٢ -٥

. ١٢٠ / ٣ -٦

استعطاف الحبيبة باستشارة مشاعر التقوى والتحرج لديها

يلجأ الشعراء المحبون ، ضمن ما يلجأون إليه من وسائل لترقيق قلب حبايبهم ، إلى استشارة مشاعر التقوى لديهن وتخويفهن بالله ممّا يسببهن لهم من آلام ومواجع . وليس شرطاً أن يكون هذا الكلام خارجاً من القلب ، فقد لا يعدو الأمر أن يكون حيلةً أو تظرفاً . يقول ابن أبي ربيعة :

فاتقى ذا الجلال يا أم عمرو واحكمى فى أسيركم بالصواب

* * *

وتحرجى من قتل من لم يفيكم هجرا ولا صرماً ولم يتغض

* * *

قتلتنا يا جبذا أتممو فى غير ما جرم ولا مأثم
والله قد أنزل فى وجهه مينا فى آية المحكم :
من يقتل النفس كذا ظالمًا ولم يقدّمها نفسه يظلم

* * *

وخبرنى : ما الذى عندكم بالله فى قتل امرئ مسلم ؟
ويقول جميل :

ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع ؟
ويقول العرجى :

عوجى علينا رئة الهودج إنك إلا تفعللى تحرجى
ويقول ابن قيس الرقيات :

أم البنين ، سلّيتى حلمى وقتلتنى فتحلمى إنسى

...

بالله يا أم البنين ألم تخشى عليك عواقب الإثم ؟
وحول هذا المحور نفسه تدور الأبيات التالية لبشار :

غصبت عبيدته قلبه أيحل في الإسلام غصبة ؟ (١)

* * *

فاتقى الله يا حبيب وجودي بشفاء لعاشق مكروب (٢)

* * *

نؤليه واتقى إلهك فيه ليس ما قد فعلت بالتعيب (٣)

* * *

تركتني مستهام القلب في شغل لهفان لا والدأ أهوى ولا ولدا

أخا هموم وأحزان تأوئني فاخشى إلهك . إنى ميت كمدا (٤)

* * *

هلاً تخرجت يا عبادة من رجل قد زمه الحب حتى ذل فانقادا (٥)

* * *

فتخرجني إن كنت مؤمنة بالله يا عبادة من هجري (٦)

الهوامش

- ١-١ / ١٧٢ .
- ١-٢ / ٢٧٠ .
- ١-٣ / ٢٧٠ .
- ١-٤ / ١٩٤ .
- ١-٥ / ١٤٥ .
- ١-٦ / ٢٢٤ .

ليس في الحب من حرج

يتكرر في الشعر الغزلي العربي بعد الإسلام القول بأنه ليس في الحب حرج ، بل إن بعضهم يتظرف بل يتخابث فلا يبىء الحب وحده من الحرج بل يسحب هذا الحكم على القبلة أيضا . وقد يضيف إلى القبلة سواها . والسبب في شيوع هذه الظاهرة في شعر ما بعد الإسلام أن الدين الحنيف يشدد في أمر العلاقة بين الرجل والمرأة ، فأراد الشعراء بهذه الدعاوى المضادة إلى تهوين الأمر على معشوقاتهم . قال العرجي :

هل في اذكّار الحبيب من حرج ؟ أم هل لهم الفؤاد من فرج ؟
ويقول ابن قيس الرقيات :

حدثوني : هل على رجل عاشق في قبلة حرج ؟
ويقول حاتم بن مرّخية الكلابي :

سألت سعيد بن المسيب مفتى الـ حدينة : هل في حب ظمياء من وزر ؟
فقال سعيد بن المسيب : إنما تُلام على ما تستطيع من الأتمر
وهي فتية تجمع إلى ظرفها وحنانها عمق النظرة والتغلغل في الأمر .

ويعد ، فهذا شاعرنا بشار يتناول هذه المعاني . وهو لا يرى في الحب ولا في القبلة بل ولا حتى في العناق أي حرج . وهو كابن مرّخية يسأل أحد المفتين نفس سؤال الشاعر الكلابي . وتأتيه الفتوى ولكن بشيء من التفصيل لا نجده في الفتيا المسندة إلى ابن المسيب . نسع ؟ :

فقلت لها : لم أجبن في الحب بيننا أئامًا على نفسي ، فممّ أتوب ؟ (١)

* * *

فقلت : يا منيتي ويا سكني ما في عناقٍ وقبلةٍ حرجُ (٢)

* * *

قالوا : « حرام تلاقينا » ، فقلت لهم : ما في التلاقي ولا في قبلةٍ حرجُ (٣)

* * *

يلومك فى مودته يا سعيدؑ وما فى حب عبدة من جناح (٤)

* * *

أيهما القارىء المذكّر بالله ، تَرى فى وصال حبِّ جناحا ؟

قال : لا بأس بالحديث إذا ما لم يزيدا على الحديث جماعا (٥)

* * *

يا صاح ، كلنى إلى بيضاء معطارٍ وارفق بلومى ، فما فى الحب من عارٍ (٦)

* * *

فشربتُ غير مباشرٍ حرَجًا برضابٍ أشنَبٍ باردٍ عَذْبٍ (٧)

الهوامش

١ - ١ / ١٨٠ .

٢ - ٢ / ٧١ .

٣ - ٢ / ٧٦ .

٤ - ٢ / ١١٣ .

٥ - ٢ / ١٢١ .

٦ - ٣ / ٢٦٧ .

٧ - ٤ / ١٠ .

إشهاد الله والدموع على الحب

يلجأ المحبون إلى كل وسيلة ممكنة لتأكيد حبيهم لصواحبهم ، فيحلقون لهن ، ويصفون حركات، الناز التي تأكل قلوبهم وأكبادهم ، ويتأرمون ويولولون ، ويشهدون الله والدموع والمواضع وغير ذلك على ما يمور في أفئدتهم من حبة . ومن ذلك قول جميل :

فمن كان في حبي يشته يمتري قبرقاه حتى ضال على شهودي
يقصد الهضبة التي ، كما تقول القصة ، أقام فيها أياثا دون طعام أو شراب (١) .
ويقول عمر بن أبي ربيعة :

يشهد الله على حبي لكم ودموعي شاهداً لي والحزن
وقد جرى بشار هو أيضا على هذا التقليد فاستشهد بالله ودموعه على حبه ، بل وعلى رفته أيضا ، كما استشهد طرفه ونفسه :

يشهد اللسان بما أجن له والدمع يشهد كلما سحبا (٢)

* * *

صدقتي بما أقول ، فزاتي يا عث باللهوى دموعي شهودا (٣)

* * *

وإذا تعرض ذكرها كاتمة وكفى بأدحى السجام شهودا (٤)

* * *

ريم ، قد تبث وطالت عشتي شهد الله ، ودموعي شهدا (٥)

* * *

أهلا اللامي ولم آت بأسا يشهد الله والبركات المأمورة (٦)

* * *

فلا تسأل القلب عن حبه كفى بالدموع لهما شاهدا (٧)

* * *

طرقى رسمى شهيدها على بصرى بالسرّ منى ؛ ونفسى ذاتُ إقرارٍ (أ)

الهوامش

- ١- انظر ابن قتيبة / الشعر والشعراء / ١ / ٤٤٠ .
- ٢- ٢ / ٩٩ .
- ٣- ٢ / ١٨٥ .
- ٤- ٢ / ٢٥٩ .
- ٥- ٣ / ١٢ .
- ٦- ٣ / ٢١ .
- ٧- ٣ / ١٥٠ .
- ٨- ٣ / ١٦٧ .

الشكوى إلى الله من الحبيبة وصدودها

عندما يفيض الألم عن حدة المحتمل فإن المتألم يبحث عن صدر حنون يبشيه همه ونجواه ويشكو إليه ما يجد من عذابٍ ممضٍ . وكثيراً ما يتجه المحبون إلى الله مقلب القلوب وخالق المشاعر والأحاسيس أن يخفف عنهم ما يفظلون من نار متأججة أو يعطف قلب الحبيبة عليهم . يقول جميل :

إلى الله أشكو ، لا إلى الناس ، جها
ولا بد من شكوى حبيب يرؤغ
ويقول أيضا :

إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى
ومن كُربٍ للحب فى باطن الحشا
ومن حُرقٍ تعتادنى وزفير
وليل طويل الحزن غير قصير (١)

ويقول قيس لبنى :

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا
يتيم جفاه الأقربون ، فجسمه
إلى الله فقد الوالدين يتيم
نحيل ، وعهد الوالدين قديتم
ويقول كذلك :

إلى الله أشكو نية شقت العصا
فيا حجرات الحى ، كيف تحملوا
هى اليوم شتى ، وهى أمس جميع
بذى سلم ؟ لا جادكن ريسع
وقد شكا بشار إلى ربه ما لاقاه أو ما ادعى أنه كان يلاقيه من الجوى ،

فقال :

فعلى جئسى عولسى
والسى الله شكاتسى (٢)

* * *

فإلى الله مشتكى
ى مع الهائم الشجى (٣)

* * *

أشكو إلى الله شوقا لا يفرطنى
وشرعا فى سواد القلب تختلج (٤)

* * *

إلى الله أشكو أن بالقلب كريمة من الشوق لا تبلى ولا تتفرج (٥)

الهوامش

- ١- وُتْرَوِي هِذَانِ الْبَيْتَانِ لِقَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ أَيْضًا . انظر د . عمر فروخ / تاريخ الأدب العربي / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٩٨١ م / ١ / ٤٢٦ .
- ٢- ٢ / ٣٨ .
- ٣- ٢ / ٧٢ .
- ٤- ٣ / ٧٧ .
- ٥- ٢ / ٩٢ .

الرقعة والتحبب والخضوع فى مخاطبة المحبوبة

اشتهر العباس بن الأحنف بذلك إلى الحدّ الذى قد يُظنّ معه أنه هو الوحيد الذى أبدى احترامًا ورقة زائدين فى مخاطبة محبوبته لدرجة الخضوع لها ومناداتها بـ « يا أميرتى » و « مليكتى » و « سيدتى » ... إلخ (١) .
ولكن الشيخ الطاهر بن عاشور قد جعل لبشار قصب السبق فى نظم ألفاظ التحبب من مثل « نور عينى » (٢) .

والحقيقة أن بشارًا فعلاً قد أبدى فنونًا من ذلك فى مخاطبة حبيبته ، ولم يقتصر الأمر على المثال الذى ضربه الشيخ ابن عاشور كما سيرى القارىء بعد قليل ، وإن كان لابد من القول بأن تحبب العباس من الرقعة والشفافية بحيث لا يبلغه أسلوب بشار . ولكن لابد من القول أيضا بأنه لا العباس ولا بشار هو أول من انتهج هذا الأسلوب ، وإن كانا فيما يبدو قد أكثرا منه إكثارا يلفت النظر ، مع الفرق الذى أشرت إليه آنفا بين طريقتيهما .

انظر مثلاً إلى البيت التالى لأبى ذهَبَل الذى يصوّر غاية الخضوع للحبيبة والرغبة المطلقة فى عمل أى شىء يقرّبه إليها ويستجلب رضاها :

يا ليت أنسى بأثوابى وراحتى عندَ لأهلك طولَ الدهر مؤتجرُ .
وانظر كيف جعل عبد الله المخزومى ، الشاعر الأسمى ، حبيبته « أميرا »
عليه :

وأنفذ جارحاكِ سوادِ قلبى فأنتِ علىّ ما عشنا أميرُ
ويقول ابن قيس الرقيات :

ظعننت لتحرزتنسى كئيرة ولقد تكون لنا أميرة
ومثله ابن أبى ربيعة :

وأنت قرة عينى إن نوى نزحت ومئيتى ، وإليك الشوق والطرب

* * *

أميرا على ما شئت منى مسأطا فسل ، فلك الرحمن ، تُمنَح سُولا

* * *

أنت الأميرة ، فاسعى لمقالتى وتفهمى من بعض ما لم تفهمى
إنى أتوب إليك توبة مذنب يخشى العقوبة من مليك مُنعم
حتى أنال رضاك ، حيث علمته ، بطريف مالى والتليد الأقدم
وقد قابلت صاحبتة هذا منه بمثله :

إن كنتَ ترجو أن تلاقى حاجة فامكث ، فأنت على الشواء أميرُ

* * *

فأنت ، أبا الخطاب ، غيّر مدافع على أمير ما مكثت مؤثرُ
ويقول جميل لبثينة :

فمُرِنى أظعك فى كل أمر أنت والله أوجه الناس عندى

* * *

ولسو أرسلت يوما بثينة تتغى يمينى ، ولو عزت على يمينى
لأعطيتها ما جاء يفى رسولها وقلت لها : بعد اليمين سلينى
ويصف الوليد بن يزيد حبيبتة بأنها « قرّة العين » :

عرفتُ المنزل الخالى عفا من بعد أحوال

...

سلمى قرّة العين ونبت العمّ والخال
وقبل العباس بن الأحنف نجد أبا العتاهية ينادى حبيبتة بـ « سيدتى » :
ألا ما سيدتى ؟ مالها تُدِلّ فأحمل إدلالها ؟
ويجعلها مولاته :

الله بينى وبين مولاتى أبدت لى الصدودَ والملاات
والآن مع بشار وأسلويه فى التحبب إلى صواحيه :

فَأَمَّا يَا قَسْرَ ة عَيْنِي وَمُنَى قَلْبِي
وَيَا نَفْسِي التِّي تَسْكُو — من بين الجَنَّبِ والجَنَّبِ (٣)

* * *

حَدِيثِي ، فَأَنْتِ قِرَّةَ عَيْنِي : هل تحبينني ؟ فهل نلتِ حُبِّي ؟ (٤)

* * *

وَلَوْ يَسْطِيعُ إِذْ شَطَّطْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَتَبِ
حَذَاهَا وَجْهَهُ نَعْلًا فَلَمْ تَمْشِ عَلَى التُّرْبِ (٥)

* * *

نَوَّرَ عَيْنِي ، أَصَبْتَ عَيْنِي بِسَكْمِ يَوْمِ فَارَقْتِنِي عَلَى غَيْرِ ذَنْبِ (٦)

* * *

أَنْتِ الْأَمِيرَةُ فِي الْهَوَى وَأَنَا الْمَسِيءُ الْمُذْنِبُ (٧)

* * *

عَيْدًا ، أَصْبَحْتَ حَيَاتِي فَصَلِّينِي يَا حَيَاتِي (٨)

* * *

فَقُلْتُ : يَا مَنِيَّتِي ، وَيَا سَكْنِي مَا فِي عُنَاقٍ وَلَا فِي قِبَلِ حَرَجٍ (٩)

* * *

كَأَنَّ أَمِيرًا جَالِسًا فِي حِجَابِهَا تَوَمَّلَ رُؤْيَاهُ عَيْوُنُ وَفُؤِدِ (١٠)

* * *

أَنْتِ الْأَمِيرَةُ فِي رُوحِي وَفِي جَسَدِي فَابْرِي وَرَيْشِي . بِكَفِّتِكَ الْأَقَالِيدُ (١١)

* * *

لَا أَطِيقُ الْعِزَاءَ عَنْ مَنِيَّةِ النَّفْسِ — عَذِيرِي فِي حَبِّهَا مِنْ يَزِيدِ (١٢)

* * *

فَالْعَيْنِ حِينَ أَرُومِ هَجْرِكَ طُرْفَةَ وَعَلَى فُؤَادِي مِنْ هَوَاكِ أَمِيرُ (١٣)

* * *

قلت لها عند ذاك : يا سكنى لا بأس . إنى مجرب حذرُ (١٤)

* * *

يا خاتم الملك ، يا سمى ويا بصرى زورى ابن عمك أو طيبى له يَزُرُ (١٥)

* * *

دعيني يا أميرةُ من سرار ومن شَغَبِ علىَّ ومن مَسَارِ (١٦)

* * *

ألا يا نور عينيِّ الـ ذى كُتُّ به أَتَقْرُ (١٧)

* * *

يا عبد ، إنى قد ظَلِمْتُ ، وإنى مُبْدِ مقالة راغب أو راهب

وأتوب مما تكريهين لتقبلى واللّه يقبل حسن فعل التائبِ (١٨)

* * *

عبد ، إنى قد اعترفتُ بذنبى فاغفرى واعدلى خطائى يعْبَى (١٩)

* * *

نفسى لنفسك خُلِّدَ وكذلك أنت أميرتى (٢٠)

* * *

يا قرة العين ، إنى لا أَسْمِكِ أكسى بأخرى أَسْمِها وأعنيك (٢١)

* * *

أزْمان جِنِّى الشباب مطاوعٌ وإذ الأميرُ علىَّ من حرَّانِ (٢٢)

الهوامش

- ١- انظر د . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء فى العصر العباسى / ٢٨٨ - ٢٨٩ .
- ٢- انظر مقدمة ديوان بشار / ١ / ٣٩ .
- ٣- ١ / ٢٠٦ .
- ٤- ١ / ٢٦٧ .
- ٥- ١ / ٢٥٩ .
- ٦- ١ / ٢٧٤ .
- ٧- ١ / ٣٦٠ .
- ٨- ٢ / ٥٦ .
- ٩- ٢ / ١ .
- ١٠- ٢ / ١٥٩ .
- ١١- ٢ / ٢٦٧ .
- ١٢- ٣ / ١٤٣ .
- ١٣- ٣ / ٦ .
- ١٤- ٣ / ١٧٢ .
- ١٥- ٣ / ٢٤٢ .
- ١٦- ٣ / ٢٦٨ .
- ١٧- ٣ / ٣٠٥ .
- ١٨- ٤ / ١٨ .
- ١٩- ٤ / ٢٢ .
- ٢٠- ٤ / ٢٩ .
- ٢١- ٤ / ١٢٣ .
- ٢٢- ٤ / ٢٠٤ .

استيلاء الحب على كل كيانه

مثل هذا الحب الذي قال بشار إنه يميت ويحيى لابد أن يستولى على كيانه
استيلاءً تاماً : على جسده وكبده ولسانه وأطرافه وسمعه وبصره ونفسه وقلبه وهمومه .
والحبيبة هي برزه وسقامه ، ومنى نفسه وهمه ، وماله وسكنه وأهله وزواره .
باختصار : هي ، كما قال ، منتهى حاجاته القسوى وأوطاره :

فاطمئنى . ملكتِ نفسى وقلبى وهمومى فما يجاوزن وصبأ (١)

* * *

قل لِحُبِّى : قرينى أنتِ نفسى وحياتى
وهومومى حين أغرد وحديثى فى صلاتى (٢)

* * *

تلك أسقامى وبرئى من سقامى لـ توأتى
ومنى نفسى وهمنى فى مقيلى وبياتى
ونعيمى حين أغفى وشفاء اليقظات
والتى أمسى وأغرد فى عشى وغداة
ذاهب اللـب إليها معلنا بالزفـرات
فإذا قمتُ أصلى عرضتُ لى فى صلاتى (٣)

* * *

أتشهى قربها على العسر واليسر وعند الضيا ويوم التنادى (٤)

* * *

يا بنت صقر بن قعقاع ، على كبدى شوق إليك وفى روحى وفى جسدى (٥)

* * *

أنتِ المنى وحديث النفس خاليةً ومنى نعيمى ومن رهطى وزوارى (٦)

* * *

أبيت والحب في سمعي وفي بصرى وفي لسانى وأطرائى وآثارى (٧)

* * *

ما زال منه رسيى لا يفارقتى فى الرأس والعين والأوصال كالسُّكْرِ (٨)

* * *

لى فى قلبى منه لوعه ملكت قلبى وسمعى والبصر (٩)

* * *

كأن وجدى بها ، وقد حُجِّتْ ، فى الرأس والعين والعشا سُكْرُ (١٠)

الهوامش

- ١-١ / ٢٨٠ .
- ٢-٢ / ٢٦ .
- ٣-٣ / ٥٤ .
- ٤-٢ / ١٨٠ .
- ٥-٣ / ١٤١ .
- ٦-٣ / ١٦١ .
- ٧-٣ / ١٤١ .
- ٨-٣ / ٢٤٤ .
- ٩-٣ / ٤٩ .
- ١٠-٣ / ٦٣ .

لامبالاته باللوم

مِثْلُ كل الشعراء العرب المحبين تقريبا يكرر بشار أنه لا يبالي بالعذاب وما يلومونه به ، وسيظل على حبه لصاحبه ، وأنه قد ملَّ ما يسمعه من نصائح اللوم ، وأن اللوم على الحب ليس من سداد الأمر ، لأن الحب لا يمحوه من قلب المحب العذل . بل إنه ليدعو على أولئك العذال بالسقم والعذاب :

يا صاح ، لا تَجْرِ في لومى وتأنبى ماكل من لم يُجِبْ قوماً بمغلوبٍ (١)

* * *

قلتُ للأنتم فيها غَصَ منها بالشراب
لا تُطَاع الدهر فيما قد عنانى يقُـرَاب
ليت من لام محبا ورماه باعتيـاب

...

تالله الله بسقـم شاعـل أو بعذابٍ (٢)

* * *

يا خليلي ، أخرجانى من الحـب سويـا ، ولا تلوما محبا (٣)

* * *

ولقد أيقن أنسى لا أطيع العـاذلاتِ (٤)

* * *

عظتى فيها ، زويدا قد مللت الواعظـات
لا أطيع الناس فيها أبدا حتى المماتِ (٥)

* * *

فدع لوم المحب إذا تهادى به حب النساء . لحال لاج
فإنك لا تسرد هوى بلوم ولا طرب المتيمم بامضاح (٦)

* * *

• دعا ليوّم المحبّة إذا تمادى فما ليوّم المحب من السدادِ (٧)

الهوامش

- ١-١ / ٢٦٠ .
- ٢-١ / ١٧١ - ١٧٢ .
- ٣-١ / ٢٥٢ .
- ٤-٢ / ٥٣ .
- ٥-٢ / ٣٥ .
- ٦-٢ / ٣١١ .
- ٧-٣ / ٣٤ .

التفدية

يكثُر في الشعر العربي القديم تفدية الشاعر من يجه أو يمدحه أو يرثيه بنفسه أو بأبويه أو بعشيرته كلها . وقد جرى بشار على هذا الأسلوب في التعبير عن حبه (وإعظامه لممدوحيه) فهو يفدى بالنفس والأبوين والعشيرة والطارف من ماله والتلاد وحتى جيرانه :

بأبى وأمى من يقارننى فيما أقول ومن أقاربى (١)

* * *

ويفدى سواك فى مجلس القوم ، ويعنيك بالتفدى ، ورمى (٢)

* * *

لقد فديتُه أنفا ولو كلمنى زدتُه (٣)

* * *

أما شعرت ، فدتك النفسُ جاريةً ، أن ليس لى دون ما منيتنى قرجٌ ؟ (٤)

* * *

بأبى أنتِ وإن باعدتسى وبأمى أنتِ ، يا نفسى ، الفدا (٥)

* * *

لا تصرميه يا عبيدة ، واقصدى نفسى فداك وطارفى وتلادى (٦)

* * *

بأبى تلكم وأمى ونفسى فى التدانى إذ دنت والبعاد (٧)

* * *

دعى ما تصنعين ، فدتك نفسى ، وطارفى بعد التلاد (٨)

* * *

بأمى وأمى والعشيرة كلها شخصٌ هناك ضجيعه محبوبٌ (٩)

* * *

يا عبيد ، أنت ذخيرتي نفسي فدثك وجيرتي (١٠)

* * *

بأبى والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قَطْرًا (١١)

* * *

يا عبيد ، يا قرة عينى أنصفى . روحى فدك (١٢)
وقد علّق البروفسور بيستون على هذه العبارة فى بيت لبشار بما قد يفهم منه
أنها من سمات الشعر فى العصر العباسى دون ما سبقه من عصور (١٣) ، على حين
أنها منتشرة فى الأسلوب العربى القديم شعره ونثره منذ العصر الجاهلى .

الهوامش

. ٢١٧ / ١ -١

. ٢٦٩ / ١ -٢

. ١٦ / ٢ -٣

. ٧٦ / ٢ -٤

. ١٢ / ٣ -٥

. ٦٥ / ٣ -٦

. ٩١ / ٣ -٧

. ١٤٠ / ٣ -٨

. ١٦٤ / ٣ -٩

. ٢٩ / ٤ -١٠

. ٧٠ / ٤ -١١

. ١٢٤ / ٤ -١٢

. ١٣- انظر ص ٣٣ من « Selections from the Poetry of Bassar^{AA} »

التسبيح أمام جمال المحبوبة

من ضمن ما لجأ إليه بشار فى التعبير عن جمال محبوبته قوله إن الناس عندما يرونها يستبحون الخالق من انبهارهم بجمالها . بل إنه فى أحد النصوص قد طلب بنفسه من خليله أن يسبح أمام جمال هذه المحبوبة إعجابا بهذا الجمال وصنع الخالق الذى أبدعه :

ورآها النساء تغلو فسبحنَّ — من غلاء لما استبان الغلاء (١)

* * *

إذا رآها نساء الحى قلن لها : سبحان من صاغها ! يُقرن إطنابا (٢)

* * *

ولما جلاها السمع سبح ناظر وكبر رقاد وسار فأرهجوا (٣)

* * *

وخد أسيل وكف إذا أشارت لقوم بها سبحوا (٤)

* * *

تلقى بتسيحة من حُسن ما خلقت وتستفز حُسى الرائى بلرعاذ (٥)

* * *

سبح خليل ، وقل : يا حسن تصوير ! راحت سُئِمى تهادى فى المقاصير (٦)

الهوامش

- ١- ١ / ١١٧ .
- ٢- ١ / ٢٠٩ .
- ٣- ٢ / ٩٥ .
- ٤- ٢ / ١٠٨ .
- ٥- ٢ / ٣١٩ .
- ٦- ٣ / ٢٢٠ .

الانشغال بالحبيبة عن العبادة

تكررت عند بشار الإشارة إلى انشغاله بحبيبته وجمالها عن شعائر العبادة : إمّا بتركها تماما ، وأمّا بعدم استطاعته التركيز فى الصلاة مثلا واحتياجه من ثمّ إلى شىء ، يحصى به عدد الركعات التى صلّاها .

لكن ينبغى التنبيه إلى أن بشارًا ليس هو فاتح هذا الطريق ، فإن الشعراء منذ الجاهلية يرددون مثل هذا المعنى فى أشعارهم ، كلٌّ بطريقته . قال النابغة :

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبَدَ الإلهَ ضرورةً متعبِّدِ
لرنا ليهجتها وحسن حديثها : ولَخَالَه رُشْدًا وإن لم يَرُشِدِ
وقال ربيعة بن مقروم الضبي :

لو أنها عرضت لأشمط راهب فى رأس مشرفة الذُّرَا يتبتَّلُ
لرنا ليهجتها وحسن حديثها : ولَهُمَّ من ناموسه يتنزلُ
ويقول عمر بن أبى ربيعة على لسان إحدى عاشقاته :

قالت لترب لها تحدثها : لَنُفْسِِدَنَّ الطَّوْفَ فى عميرِ
قومى تصدئى له ليصرنسا ثم اغمزيه يا أختُ فى خَفْرِ
قالت لها : قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثرى
ويقول كذلك عن نفسه :

بدا لى منها معصم حيث حَمَّرْتُ وكفُّ خضيب زُبَكْتُ بينانِ
فوالله ما أدرى ، وإن كنت حاصبًا ، بسبع ريمتُ الجمر أم بثمانِ
ويقول جميل :

أصلى فأبكى فى الصلاة لذكراها لى الويلُّ مما يكتب الملكانِ

* * *

يقولون : جاهد يا جميل بغزوة وأئى جهاد غيرهن أريد ؟
لكل حديث بينهما بشاشة وكلُّ قتييل عندهن شهيدُ

ويقول مجنون ليلى :

فوالله ما أدري إذا ما ذكرتها أتتيني صليت الضحاً أم ثمانياً

ويقول قيس بن الملوخ فى حبيبته ليلى :

ولم أر لى بعد موقف ساعدي بخيف منى ترمى جمار المحصب

ويدي الحصى منها إذا قذفت به من البرد أطراف البنان المخضب

ويقول العرجى :

ما عمرة نهزتنا نحو أرضكمو ولا هووى غيركم يا أم داود

ويقول أيضا :

نلبث حولا كاملا كئله لا نلتقى إلا على منهج

فى الحج إن حججت . وماذا منى وأهله إن هوى لم تحجج ؟

ومن كلام ابن قيس الرقيات :

حبذا الحج والثريا ومن بالـ خيف من أجلها وملقى الرجال !

ثم أخيرا هذا البيتان للوليد بن يزيد :

ألا حبذا سفرى وإن قيل إننى كلفتُ بصرائية تشرب الخمر

يهون على أن تظل نهارها إلى الليل لا أوى نصلى ولا عصرا

بشار إذن ليس أول من ألم بهذا المعنى فى شعره ، وإن كان قد تكرر عنده .

وهذه شواهد :

عَبْدٌ ، بالله أطلقى من عذاب مواصب

رجلا كان قبلكم راهبا أو كراهبا

يسهر الليل كله نظرا فى العواصب

فنتاه عن العبا دة وجسد بكاء صب

شغلته بجهبا عن حساب المحاسب (١)

* * *

ولو يتركنى الحبيب لقد صمت وصليت (٢)

- * * *
- قل لِحُبِّي : قرينى انبت نفسى وحياتى
وهمومى حين اغتدو وحديشى فى صلاتى (٣)
- * * *
- فإذا قلتُ أصلى عرّضتُ لى فى صلاتى (٤)
- * * *
- لتَقِيلُ خديها ومصّ لسانها ألدّ من الباكين فى عرفاتِ (٥)
- * * *
- أعدّ سجودى بالحصى وتلومنى ولولا الهوى أوهمتُ بعض سجودى
كأن بقلبي جنة تستفزّه بنسيان ما صليتُ غيرَ عديد (٦)
- * * *
- هذى التى دلّه حبهما وكان حيناً من حصى المسجدِ (٧)
- * * *
- لعمرك ما تركّ الصلاة بمنكر ولا الصوم إن زارتك أمّ محمدِ (٨)
- * * *
- ما أصلى إلا وعندى رقيب قائم بالحصى يُعدّ سجودى (٩)
- * * *
- أصوم يوماً فأرقا من تذكرها ولا أصلى الضحا إلا بعداذِ (١٠)

الهوامش

١-١ / ١٦٤ .

٢-٢ / ٣٠ . وقد رُوي هذا البيت للوليد بن يزيد ضمن أبيات له ثمانية هو البيت

الثاني فيها (انظر « شعر الوليد بن يزيد » / جمع وتحقيق د. حسين عطوان / مكتبة
الأقصى / عمان / ط ١ / ١٩٧٩ / ٢٨) .

٣-٢ / ٣٦ .

٤-٢ / ٥٤ .

٥-٢ / ٥٨ .

٦-٢ / ١٥٦ - ١٥٧ .

٧-٢ / ١٧٤ . أي كان ملازمًا له كأنه من حصاه .

٨-٢ / ٢٠٦ .

٩-٢ / ٢٧٢ .

١٠-٢ / ٣٢٠ .

عبادة الحبيبة

قد يُظنُّ أن التعبير عن شدة الحب بـ « أعبدك » هو من المعاني العصرية التي وردت إلينا من الأدب الأوربي . ولكن الحقيقة أنَّ التعبير عن شدة الوجد والوله بما يدل على هذا المعنى هو أسلوب قديم فى شعرنا يرجع على الأقل إلى عمر بن أبى ربيعة وكثير عزة ومعاصريهما من الغزليين . قال عمر :

مَرَبَى فِى نَفْرِ يَحْفَنُهُ مثل ما حَفَّ عِبَادَ يَوْسَنَ
وقال أيضًا ، وقد أخذه (كما سوف نرى) بشار معنًى ولفظًا :

لا تجعلنَّ أحدًا عليك إذا أحببته وهويته رتبا
ويقول قيس بن الملوح :

أرانى إذا صليت يتمت نحوها بوجهى وإن كان المصلئ من ورائيا
وما بئى إشراك ، ولكنَّ جها كهود الشجا أعيا الطيب المداويا
ويقول كثير :

رهبان مدين والذين عهدتهم يكون من خوف العسذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركمها وسجودا
ويجعل ذو الرمة الوقوف عليها من أركان الحج ، لا يتم إلا به :

تمام الحج أن تحف المطايا على خرقاء واضعة اللثام
ويقول الوليد بن يزيد :

لو رأينا لسلمى أئسرا لسجدنا ألف ألف للأئسز
واتخذناها إمامًا مرتضئسى ولكانت حجنا والمعتمسز
إنما بنت سعيد قمر هل حرجنا إن سجدنا للقمز ؟

فإذا جئنا إلى بشار وجدناه يكرر هذا المعنى وينوعه : فحبيبته مزة صنم ، ومرة كصليب النصرى ، ومرة ربّ (بصريح اللفظ) . والناس يصلون لها ويطلبون القنوت . ويزيد على ذلك قائلا إن الناسك الأجلح إذا رأى ثديها خرَّ أمامه ساجدًا .

وهو معنى شهوانى لا يلتزم مع العبادة وما يحيط بها من أجواء روحانية :

عَدْمَتِكَ عَاجِلًا ، يَا قَلْبُ ، قَلْبِنَا - أَنْجَعِلْ مِنْ هَوْنَتَ عَلِيكَ رَبَا ؟ (١٠)

* * *

أَلَا يَا صَنَمِ الْأَزْدِ الْبُذَى يَدْعُونِسْهُ رَبَّنَا
سَيِّبَتَ الْعَذْبَ مِنْ وَدَى وَإِنْ لَمْ تَسْقِنِى عَذْبَا (٢)

* * *

أَنَا مَشْغُوفٌ بِسَلْمَى كَالصَّيَّارِ بِالصَّيْبِ (٣)

* * *

لَوْ خَرَجْتُ لِلنَّاسِ فِي عِيدِهِمْ صَلَّى لَهَا الْأَمْرَدُ وَالشَّائِبُ (٤)

* * *

لَمْ يَكُنْ لِي رَبٌّ سِوَى اللَّهِ يَا عَبْدَ فَمَا لِي اتَّخَذْتُ وَجْهَكَ رَبَا ؟ (٥)

* * *

وَرَوْقَةٌ بِكَرٍّ يُصَلِّى لَهَا حِينَ تُجَلِّى وَيُطَالُ الْقَنْوْتُ (٦)

* * *

لَهَا مَنْطِقٌ فَاخِرَ فَاتِنٍ كَحَلَى الْعَرَائِسِ يُشْتَمَلُحُ
وَعَيْنَانِ يَجْرِي الرَّدَى فِيهِمَا وَوَجْهَهُ يُصَلِّى لَهُ أَسْجَحُ
وَتُودَى لِرُؤْيَيْتِهِ سَجْنَدَةٌ يَدِينُ لَهُ النَّاسُكَ الْأَجْلَحُ (٧)

* * *

كَأَنْتَى عَابِدٌ مِنْ حُبِّ رُؤْيَيْتِهَا إِنْ الْمَحِبُّ تَرَاهُ مِثْلَ مَنْ عَبَدَا (٨)

* * *

تَقْدُو ثَقَالًا ، وَتَمْسَى فِي مِجَاسِدِهَا كَأَنَّهَا صَنَمٌ فِي الْحَيِّ مَعْبُودُ (٩)

* * *

مِنْ كُلِّ مَقْبَلَةِ الشَّبَابِ كَأَنَّهَا صَنَمٌ لِأَعْجَمٍ لَا يَنْسَى مَعْبُودَا (١٠)

الهوامش

- ١-١ / ١٦٥ .
- ١-٢ / ٢٠٢ .
- ١-٣ / ٢٢١ .
- ١-٤ / ٢٢٧ .
- ١-٥ / ٣٨١ .
- ٢-٦ / ٢٣ .
- ٢-٧ / ١٠٨ .
- ٢-٨ / ١٩٤ .
- ٢-٩ / ٢٦٩ .
- ٢-١٠ / ٣٢٧ .

الجنون

ومن المعانى التى تتكرر فى شعر بشار معنى « الجنون » ، الذى يقصد به (كما كان الشعراء ولا يزالون يقصدون) أن حبه العنيف الذى لا يجد متنفساً ولا يلقى عند الحبيبة صلتى قد أذهل عقله من الإحباط واليأس . وقد التفت المستشرق بيستون إلى هذا الملمح فى الشعر العربى وما يعنيه ، وذلك عند تعليقه على ترجمته للبيت التالى لبشار :

يقولون : داء القلب جنّ أصابه . . ودائى غزال فى العجال ريبُ (١)
وهذه شواهد على ورود هذه اللفظة فى شعر بشار الغزلى ، وإن كان لا بد من الاستدراك بأن استعمالها غير مقصور على هذا اللون من الشعر ، فقد وردت عنده فى الهجاء وغيره أيضا :

فوالله ما أدرى أبى من طلايها جنون أم استحدثتُ إحدى العجائب (٢)

* * *

به جنّة من صبوّة لمبت به وقد كان لا يصبو غلاما مُشَبَّها (٣)

* * *

فوادى بك مجنون ولو أسطِيع سلسلته (٤)

* * *

كأن بقلبي جنّة تستفزه بنسيان ما صليتُ غير عديد (٥)

* * *

ومما وردت فيه هذه اللفظة أيضا خارج الشعر الغزلى عند بشار قوله :

غنّى بالرباب إن كنت تشدو غار نومي وجنّ فى الشراب (٦)

الذى يشير إلى أن سورة الشراب قد أخذت منه مأخذها .

وكذلك البيتان التاليان ، وهما فى الهجاء :

وَجَنَّ فُرَيْخُ الزَّنَجِ بَلْ جُنَّتْ اسْتُهُ فَأَصْبَحَتْ دَلَّاقًا لَهُ بِطَيْبِ (٧)

* * *

فإن كنت مجنوناً فعندى سَعُوطه وإن كنت جنياً فجدى أعشر(٨)
والبيت الأول يصوّر شدة اغتلام الأُبنة فى مهجوة ، والثانى يهدد المهجوّ بأنه لن
يفلت من عقاب الشاعر أيّاً كانت حالته ، هذا العقاب الذى سيشفيه مما فيه ويعيد
إليه عقله فى رأسه .

الهوامش

- ١- انظر كتابه « Selections from the Poetry of Baššar » ٢٦ / ١ .
- ٢- ٢ / ٢٠٤ .
- ٣- ١ / ٢١١ .
- ٤- ٢ / ١٤ .
- ٥- ٢ / ١٥٧ .
- ٦- ١ / ٢٢٢ .
- ٧- ١ / ٢٦٧ .
- ٨- ٢ / ٢٦١ .

الحبيبة هي الداء والدواء

والحبيبة أو عينها هي داؤه ، وهي وريقها أيضا دواؤه ، ولكنه دواء صعب

عزيز المنال :

إن فنى عينها دواءً وداءً للمم ، والداء قبل الدواء (١)

* * *

ريق سعدى يا ابن الدججىل الشفاء فاستنيسه . لكل داء دواء (٢)

* * *

مريضة ما بين الجوانح بالصبا وفيها دواء للقلوب وداء (٣)

* * *

ودواء عينى ، قد علمت ، ودأؤها ربا البنان كدثيمة المحراب (٤)

* * *

ولقد أسأل المغيرة ، لمتا ذوى القلب ، عن دواء القلوب (٥)

* * *

وجارية فى مقتلها لناظر دواء وداء غير أم عذات (٦)

* * *

هام قلبى باللواتى هـن دائسى وشفائى (٧)

* * *

ما دواء الذى يسهد بالليل ل ولا يستريح فى الإصباح ؟ (٨)

* * *

إن دائسى طعى ، وإن شفائى غيرة من رضاب فيك البرود (٩)

* * *

لا تئمتى أخاك فى ملة الحـ ب بداء دواؤه مفقود (١٠)

رمع ذلك ، فإن لفظتى « الداء والدواء » وما فى معناهما قد تقابلتا أحيانا

خارج مجال الحب وعذاباتِه :

وانسى لأستبقى بحلمى مودتى وعندى لذى السءاء الملىح دواءهُ (١١)

* * *

أرى حاجتى عند الأمير مريضة فهلاًّ تداويها وأنت طبيها ؟ (١٢)

* * *

داءُ عاصٍ ومداوى فتنة سفرتُ حرباً ولاحت تستعر (١٣)

* * *

إن الطبيب بطبسه ودوائسه لا يستطيع دفاع مقدرٍ أتى

ما للطبيب يموت بالسءاء السذى قد كان يُتري مثله فيما مضى ؟ (١٤)

الهوامش

- ١- ١٠٧ / ١
- ٢- ١١٣ / ١
- ٣- ١٢٦ / ١
- ٤- ٢١٦ / ١
- ٥- ٢٦٩ / ١
- ٦- ٤١ / ٢
- ٧- ٥١ / ٢
- ٨- ١٤١ / ٢
- ٩- ٢٧٣ / ٢
- ١٠- ٢٠ / ٣
- ١١- ١٢٨ / ١
- ١٢- ٢٧٧ / ١
- ١٣- ٢٩٤ / ٣
- ١٤- ٢٣٠ / ٤

الطبيب والكاهن والرقي

وهو يذكر الطبيب والكاهن (وبالذات « كاهن المِصر ») والرقي ذكرًا
ملحوظًا ، وذلك فى مجال الحبِّ وآلامه والبحث عن علاج له أو اليأس من الشفاء
منه :

يا كاهن المِصر ، هل تحدثنى : ما بال قلبى بذكرها نخبُ ؟ (١)

* * *

كأنى بِكَ مطبوبيُّ وما أحدثت لى طيبًا (٢)

* * *

فويلى من الحمى ، وويلى من الهوى ، لأيهما ابغى دواء الطبايب ؟ (٣)

* * *

أخشابُ ، قد طال انتظارى ، فأنعمى على رجل يدعو الأطباء متعبًا (٤)

* * *

يا كاهن المِصر ، لنا حاجة فانظر لنا : هل سكتنى آيب (٥)

* * *

لو قدرنا على رقى سحر هارو ت طلبنا الوصال بالتحبيب (٦)

* * *

حبَّتْنى بمتاهة ورقاتها فالخِلاب (٧)

* * *

إن كان ليس به الجنون فإنما لعب الرقاة بقلبه أو ما به (٨)

* * *

ألا يا كاهن المِصر الذى ينظر فى الزيت (٩)

* * *

سأرقبها فتأيتك ولو كانت على حوت (١٠)

* * *

وعزّيت نفسي عن عبيدة بالرقي لتسلى ، وما تسلى عن الرقيات (١١)

طبيبي ، داوني وتأن سقمي لك اليوم التلاذ على النجاح (١٢)

ولا يدقع الموت الأطباء بالرقي وسيان نحن يتقى وسعود (١٣)

أنت الطبيب ، فما تقضين في رجل يدعو الأطباء بين الموت والتهر؟ (١٤)

غرضًا إليك من الهوى غرض المريض إلى الطبيب (١٥)

كأن كلامه يوم التينا رقي يأخذن في طول وعرض (١٦)

وقصائد مثل الرقي أرسلتهن فكن شغفا (١٧)

الهوامش

- ١-١ / ١ - ١٩٠ .
- ١-٢ / ١ - ٢٠٢ .
- ١-٣ / ١ - ٢٠٤ .
- ١-٤ / ١ - ٢١١ .
- ١-٥ / ١ - ٢٢٦ .
- ١-٦ / ١ - ٢٧١ .
- ١-٧ / ١ - ٢٧٢ .
- ١-٨ / ١ - ٢٧٩ .
- ٢-٩ / ٢ - ١٦ .
- ٢-١٠ / ٢ - ١٧ .
- ٢-١١ / ٢ - ٤٠ .
- ٢-١٢ / ٢ - ١١٤ .
- ٢-١٣ / ٢ - ١٦٢ .
- ٢-١٤ / ٣ - ٢٤٣ .
- ٤-١٥ / ٤ - ١٩ .
- ٤-١٦ / ٤ - ٩٤ .
- ٤-١٧ / ٤ - ١٠٩ .

خُلف الوعد

أكثر الشعراء العرب من الشكوى من خُلف حبايبهم للوعد ، بل إن بعضهم كان يستعطف الحبيبة أن تمنيه بوعده باللقاء ، ثم فلتخلف مواعدها بعد ذلك ، إذ يكفيها أن يسمع منها كلمة طيبة يعيش على الأمل معها وقتا ، وذلك بدل أن تتركه يصطلى على الدوام لواعج اليأس المحرقة - يقول بشار :

إنسى على خُلف المواعيد منكمو صابٍ إليك ، ولستُ بالمتصابى (١)

* * *

أخلفت حين أريدت مثل إخلاف السراب (٢)

* * *

إذا قلت: أوفى العهد ، قالت وأعرضت : ستدرك ما قد فاتك اليوم فى غدٍ (٣)

* * *

سأصرم وصلا من عليّة ، إنهم لا صرومٌ كما أوهى كذوبُ المواعيد (٤)

* * *

ألانت لنا يوم التقينا حديثها أمانى وعدٍ ثم زاغت بما تعدّ (٥)

* * *

لا تجعلين فى غدٍ وعدى وعدٍ فلين فعلتِ فما وقيتِ ميعادا (٦)

* * *

وعديتى ثم لم توفى بموعديتى فكنتِ كالمزن لم يُنظِرْ وقد رعدا (٧)

* * *

فضحّت جودها بطول مطالٍ حالقتُ ، وآفة الجود مطلٌ (٨)

الهوامش

١ - ١ / ٢١٦ .

٢ - ١ / ٢٧١ .

٣ - ٢ / ٢٠٧ .

٤ - ٢ / ٢٠٩ .

٥ - ٣ / ٦٩ .

٦ - ٣ / ١٤٦ .

٧ - ٣ / ٧٢ .

٨ - ٤ / ٣٤٣ .

عقارب الحب وحياته

وما أكثر ما يذكر بشار عقارب الحب وحياته وأفاعيه ، وإن كانت العقارب والحيات والأفاعى غير مقصورة على الهوى ولذعاته :

فكأن ليلك من تذكرها ليل السليم سرت عقارؤه (١)

* * *

إذا قدحَتْ منها الصباية تتجعتْ عقاربَ فيها عقربا ثم عقربا (٢)

* * *

إذا زاد عنه عقربا من هواكمو برقيته دبّتْ له منك عقربُ (٣)

* * *

قول النساء علا بها ولكل فبيج عقربُ (٤)

* * *

أظن كأنى شاربِ سم حية ويعتادنى الوسواس حين أبيتُ (٥)

* * *

بين الإمام وموسى لامرئ شرفُ هذا الهمام ، وهذا حية الوادى (٦)

* * *

تفتح دونى القوافى كلُّ شارقةٍ فتح الأفاعى لكلب الحى والسيد (٧)

* * *

وكريم يرى الملامة كالحيمة صبحنه مذر الذرور (٨)

* * *

إن الهوى جثمت عقاربه فيه جثوم الفرخ فى الوكر (٩)

* * *

قطعتُ إلى الزماع ديب واشٍ وإن عقارب الواشى سوار (١٠)

* * *

تنزل القوافى عن لسانى كأنها حُمات الأفاعى ريقهن تصبُّ (١١)

الهوامش

. ٢٢٠ / ١ -١

. ٢١٢ / ١ -٢

. ٢٩٢ / ١ -٣

. ٣٥٩ / ١ -٤

. ٣٩ / ٢ -٥

. ٣٠٨ / ٢ -٦

. ١٥٧ / ٣ -٧

. ٢١٩ / ٣ -٨

. ٢٢٧ / ٣ -٩

. ٢٦٨ / ٣ -١٠

. ١٦ / ٤ -١١

قلبها كالحجر

مع أن بشارا كان حريصًا إلى حد كبير على التخاشع أمام حبييته وتلقى ما
تفعله به من صدّ ودلال في صمتٍ ، فإن تكلم فإنما ليبر عن ألمه دون أن ينالها
بكلمة ، فإنّه في بعض الأحيان القليلة لم يستطع أن يسيطر على غضبه فوصفها بأن
قلبها حجر :

كأنها حجر من بُعد نائلها شطت على ، وإن ناديتُ لم تُجِبِ (١)

* * *

إن كان قلبك بعدى صار من حجرٍ فأيقنى أن قلبى ليس من حَجَرٍ (٢)

* * *

لا أستطيع الهوى وهجرتها قلبى ضعيفٌ ، وقلبها حَجَرٌ (٣)

الهوامش

١ - ١ / ٢٦٦ .

٢ - ٣ / ٢٤٣ .

٣ - ٣ / ٢٦٥ .

الشقاء المصبوب

وقد يصوّر الشاعر الحُسن أو الحُبَّ (أو الهجاء) وما يجلبه على المحب (أو المهجور) من شقاء وكأنه شيء، « يُصَبِّ » :

إذا أصبحت صبحك تصابى وأطراباً تُصَبُّ عليك صبا (١)

* * *

أفى شوق تُرعى جسمى ؟ صيبتَ الهمُّ لى صبا (٢)

* * *

ونادى سعيداً فاستصبَّ من الشقا ذُنُوباً كما صُبتَ عليه ذنائبُهُ (٣)

* * *

وتلاقيتِ بى بذلك عنهن وأنسَ يُصَبُّ للحُبِّ صبا (٤)

* * *

صيبتُ على ابنِ قرعةٍ من عذابى أذاةٌ لا يسكنها البرودُ (٥)

* * *

يصبُّ لسانه طرُقاً علينا كما تتساقطُ التُظفُ السِّدادُ (٦)

* * *

إذا فارقتُها صيبتَ على الهمِّ والفكرا (٧)

* * *

إذا نظرتَ صبتَ عليك صبايةً وكادت قلوبُ العالمين تطيرُ (٨)

* * *

صيبتَ هواكِ على قلبه فضاقتُ وأعلن ما قد كتسم (٩)

* * *

من فتاة صَبَّ الجمال عليها فى حديث كلذة النشوان (١٠)

الهوامش

- ١ - ١ / ١٦٥ .
- ٢ - ١ / ٢٠٢ .
- ٣ - ١ / ٣٢١ .
- ٤ - ١ / ٣٨٠ .
- ٥ - ٣ / ١٩ .
- ٦ - ٣ / ٥٢ .
- ٧ - ٣ / ٢٣٨ .
- ٨ - ٤ / ٧٨ .
- ٩ - ٤ / ١٥٩ .
- ١٠ - ٤ / ٢١٣ .

حرقۃ الكبد

وما أكثر الشكاوى فى شعر بشار الغزلى من حرقۃ الكبد وقَرَحَتِها وذوبانها :

فيا كبدًا فيها من الشوق قَرَحَده وليس لها مما تحب شفاءً (١)

* * *

فأصبحت من سَعْدَى قصيًا بحاجة أرى كبدى من حرها ستذوبُ (٢)

* * *

على النأى محزون ، وفى القلب مُعْرَم فيا كبدًا أى الطريقين أركب ؟ (٣)

* * *

أصفراء ، فى قلبى عليك حرارة وفى كبدى الهيماء نارٌ تلهبُ (٤)

* * *

كيف السبيل إلى لهو وقد تركتُ سعدى على كبدى من حبها تُدبَا ؟ (٥)

* * *

كأنما فى كبدى قَرَحَده من حبها يفرئها فارثُ (٦)

* * *

للهجر نار على قلبى وفى كبدى إذا تأيتِ ، ورؤيا وجهك التلجُ (٧)

* * *

ويا كبدًا قد أفضج الشوق نصفها ونصف على نار الصباية يُنضجُ (٨)

* * *

إذا ذُكرت سَبَّقتُ عبْرَتى وكادت لها كبدى تقرحُ (٩)

* * *

تتاقلت الذلفاء عنى ، وما درت بذى كبدِ حرى يغص قريحها (١٠)

* * *

إن إعراضك من تلبغنا أسخط القلب وأوهى الكبدًا (١١)

* * *

فيا كيدا من الطرب المعنى إليها ! إن أهونه شديد (١٢)

* * *

يا عبداً ، ضاق بحكم جليدي وهواكمو صدع على كيدي (١٣)

* * *

فما كلمتني دارها إذ سألتها وفي كيدي كالتقط شبت له النار (١٤)

الهوامش

- ١-١ / ١ / ١٢٧ .
- ٢-١ / ١ / ١٨٦ .
- ٣-١ / ١ / ٢٩٣ .
- ٤-١ / ١ / ٣٤١ .
- ٥-١ / ١ / ٣٥٥ .
- ٦-٢ / ٢ / ٦٣ .
- ٧-٢ / ٢ / ٧٤ .
- ٨-٢ / ٢ / ٩٥ .
- ٩-١ / ١ / ١٠٩ .
- ١٠-٢ / ٢ / ١٤٢ .
- ١١-٣ / ٣ / ١١ .
- ١٢-٣ / ٣ / ١٧ .
- ١٣-٣ / ٣ / ٢٥ .
- ١٤-٤ / ٤ / ٦٥ .

حتى مـ (متى) ؟

وهو من كثرة إلحاح الألم عليه بسبب هجر حبيبته لا يكف عن التساؤل بـ :

« حتى مـ (متى) » هذا الصّد والعذاب ؟ :

يا عبد ، حتّام لا ألقاك خالية ولا أنام ؟ لقد طوّلتِ تعذّيبى (١)

* * *

وحتى متى لا نلتقى لحديثنا ومكنون حب فى الحشا قد تشعبا ؟ (٢)

* * *

حتى متى أنتِ يا خُصّاب جالسة لا تخرجين لنا يوما ولا تلجُ ؟ (٣)

* * *

حتّام تُجثّمنى الصبا وتشقّنى ؟ بل لست غيرك يا فؤاد فؤادا (٤)

* * *

حتّام أدعو الصبا وأتبعه والموت دانٍ واللّه بالرّمصدِ ؟ (٥)

* * *

حتى متى أنا مشغول بحيكمو من شدة الحبّ أو أهذى بأشعارى ؟ (٦)

* * *

حتى متى يُيقى لنفسك حبّه ؟ والمرء يصير . إنه لصبورُ (٧)

* * *

يا صاح ، قد أمسكت رسالتها فاجمع حنوطى . حتّام تنتظرُ ؟ (٨)

الهوامش

. ١٩٦ / ١ -١

. ٢١٢ / ١ -٢

. ٧٥ / ٢ -٣

. ١٦٦ / ٢ -٤

. ١٨٢ / ٢ -٥

. ١٦٣ / ٣ -٦

. ١٦٥ / ٣ -٧

. ٢٦٥ / ٣ -٨

حسبى

على أن الأمر لا يقف عند حدّ التنازل بـ « حتى متى ؟ » ، بل كثيرا ما يزيد الألم فيدفع الشاعر إلى الصراخ قائلا : « حسبى ... » ، وإن كان استعمل تلك الكلمة خارج هذا المجال أيضا :

أَمَا حَسْبُكَ يَا أَسْمَاءُ أَنَى مِنْكَ فِى حَسْبِي ؟ (١)

* * *

لَيْسَ شَيْءٌ أَجَلَ مِنْ فِرْقَةِ النَّفْسِ ، فحسبى ! فُجِعْتُ بِالنَّفْسِ . حَسْبِي ! (٢)

* * *

فَاكْشِفِي مَا بِنَا ، وَعُودِي عَلَيْنَا قَدْ لَقِينَا إِلَيْكَ فِى الْعَبِّ حَسْبَا (٣)

* * *

ضِيقْتُ عَنْ كُرْبَةِ الْعِتَابِ ، فَحَسْبِي ! لَا تَزِيدُنِي حَبِيبَ نَفْسِكَ كَرِيَا (٤)

* * *

أَمَا حَسْبُكَ أَنَى مِنْ لِكَ طَوْلِ اللَّيْسَلِ مَسْبُوتُ ؟ (٥)

* * *

فَلَا تَسْقِنِي . أَصْبَحْتَ مِنْ سَكْرَةِ الْهَوَى أَمِيد . أَلَا حَسْبِي مِنَ السَّكَرَاتِ (٦)

* * *

حَسْبُ نَفْسِي مِنْ حَبْهَا مَا بِنَفْسِي أَنَا بِبَالٍ وَالْحَبِّ غَضَّ جَدِيدُ (٧)

* * *

فَحَسْبِي مِنْ مَهَازِلَةِ الْغَوَانِسِي وَمِنْ كَأْسِ لِسُورَتِهَا فَسَادُ (٨)

* * *

وَحَسْبُكَ أَنَى مِنْذُ سَتِينَ جِبَّةً أَكِيدُ عِفَارِيَتِ الْعِيدِ وَأُكَادُ (٩)

* * *

أَرَاكَ تَجَارَى الْقُرَّ مِنْ آلِ عَامِرٍ وَأَنْتِ بَهِيمِ اللَّوْنِ . حَسْبِكَ مِنْ فَنَدُ (١٠)

* * *

حسبى بما قد لقيتُ يا عَمْرُؤُ لم يأتنى عن حبيبتى خَيْرُ (١١)

* * *

ربِّ ، لا صبر لى على الهجر . حسبى فأقِلْنى ، حسبى ، لك الحمد ، حسبى (١٢)

ألا طرد الهوى عنى رقادى فحسبى ما لقيتُ من المهاد (١٣)

* * *

حسب قلبى ما به من جبهها ضاق من كتمانها حتى عَلَنَ (١٤)
إلّا أن تلك الكلمة لم تقتصر على هذا ، فقد استعملها الشاعر أيضاً فى تخفيف

الإثم الذى ارتكبه :

حسبى وحسب التى كلفتُ بها منى ومنها الحديثُ والنظرُ

أو قبلة فى خلال ذاك

أو لمس ما تحت مرطها يدى (١٥)

الهوامش

- ١-١ / ١ - ١٥٩ .
- ١-٢ / ١ - ٢٧٤ .
- ١-٣ / ١ - ٣٥٣ .
- ١-٤ / ١ - ٣٨١ .
- ٢-٥ / ٢ - ١٩ .
- ٢-٦ / ٢ - ٤٠ .
- ٢-٧ / ٣ - ٢٠ .
- ٢-٨ / ٣ - ٥١ .
- ٢-٩ / ٣ - ١٠٦ .
- ٢-١٠ / ٣ - ١١٢ .
- ٢-١١ / ٣ - ٢٦٤ .
- ٤-١٢ / ٤ - ٢٢ .
- ٤-١٣ / ٤ - ٣٨ .
- ٤-١٤ / ٤ - ٢١٧ .
- ٢-١٥ / ٣ - ١٧٠ .

تذكيرها بالماضى

مما نجده فى شعر بشار الغزلى تذكيره من يتغزل فيها بما كان لهما من ليالٍ جميلة مرّت ، وتَمَنّيه أن تتكرر مثل هذه اللقاءات السعيدة بدل الهجر والصدّة اللذين يشقى بهما . قال :

يا سَلَمَ ، هل تذكرين مجلسنا أيام رأسى كأنه عَنَبُ
إذ نحن بالمَيْثِ لا نرى أحدا يُزْرِى وإذ شأنا به اللعْبُ ؟ (١)

• • •

كيف أرجو يوماً كيومى على الرّ سنّ وأيامِنَا بحقف الكَثِيبِ
إذ نسوق المُنَى ونغتبِق الرّ ح ويأتى الهوى على تغييب ؟ (٢)

• • •

أذكرى ليلَةَ نلهو فى رعوود وسحابِ
وحديث نسطفِيه فى عفافِ وتصابى (٣)

• • •

أراجِعْ أنتَ لنا مجلسنا بين مُدامِ وسماعِ مُثِيبِ ؟
يا حبذا ذاك على نأيه وحبذا ليلتنا بالكثيبِ (٤)

الهوامش

١ - ١ / ١٩١ .

٢ - ١ / ١٩٨ - ١٩٩ .

٣ - ١ / ٢٧٣ .

٤ - ١ / ٣٦١ .

لا يغنى عنها غيرها

كثيراً ما يؤكد بشار أنه لا يريد إلا من يحبها ، وأن غيرها من النساء لا يمكن أن يملأ مكانها من قلبه ، لأنه منذ أن وقع في هواها قد صرفه هذا الهوى عن سائر النساء ، فلم يعد يجد لمذاقهن طعمًا ، إذ ملكت هي عليه قلبه ونفسه وهمومه ، فسلاهن وصام (كما يقول) عنهن ونسى ما كان يربطه بهن :

سلمى ثقال الردف مهضومةً يأبى سواها قلبى الخالبُ (١)

* * *

يقولون : « فى أتتى من اتتى خليفة » وقد كذبوا . بعض الأوانس نَيْرَبُ
وقد كان لى فيهن داعى قرابحٍ - ولكن ذوات الود أدنى وأقربُ (٢)

* * *

أرسلتْ خُلَّتسى من الدمع غَرَبًا ثم قالت : صبوت ، بل كنت صَبَا
قلت : كلاً . لا . بل صفا لك حتى زادك الله يا عبيدة حَبَا
ما تعرضت للكوانس فى الستر ولا العارضات سِرَبًا فسرَبَا
أنت كذرتِ شِرْهين فأصبح - من غضابا على يذممن شِرَبَا
وتلافيتسى بذلك عنهن وأنس يَصُوبَ للحب صَبَا
فلهن الطلاق منسى . ومنسى لك طول الصفاء والود عَذَبَا
فاطمئنى . ملكت نفسى وقلبى وهموسى فما يجاوزن وصَبَا (٣)

* * *

أما ينفعنسى عند لك قولٌ معجبٌ قلْتُه
وصَوَّبى لك عنهن ؟ ولولا أنت ما صمْتُه (٤)

* * *

ما من جميلةٍ معشرٍ إلا لها أختٌ تُقَدِّ . وما لها أخواتُ (٥)

* * *

من هوى عبدة البخيلة إنسى لا أرى غيرها لقلبي رواحا (٦)

* * *

لو خَيْرَ القلبِ من يمشى على قدم لاختار سعدى ولم يعدل بها أحدا

لو ساعفتنا وصد الناس كلهمو لما وجدتُ لفقْد الناس مفتقدا (٧)

* * *

ومجلسِ خَمْسٍ قد تركتُ لحبها وهن كزهر الروض أو لؤلؤ السرد (٨)

* * *

فلا يحسب البيض الأوانس أن فى فؤادى سوى سُعدى لغانيةٍ فَضْلا (٩)

الهوامش

- ١ - ١ / ٢٢٦ .
- ١ - ٢ / ٣٦٠ .
- ١ - ٣ / ٣٨٠ .
- ٢ - ٤ / ١٥ . والبيت الثانى إشارة إلى انصرافه عن الأخريات من أجلها ، لأنها وحدها

الحبيبة .

- ٢ - ٥ / ٣٥ .
- ٢ - ٦ / ١٢٣ .
- ٢ - ٧ / ١٩٤ .
- ٣ - ٨ / ٩ .
- ٤ - ٩ / ١٢٩ .

الدعاء على الحبيبة

عندما يضيق صدر الشاعر المحب ولا يعود يتحمل مزيداً من العذاب الذى تصبه عليه حبيبته قد ينطلق لسانه فى ذروة اليأس بالدعاء عليها أن يذيقها الله مما تذيقه إياه أو أن تموت أو ... أو وقد عاب النقاد القدماء ذلك ، لأنهم كانوا يشترطون فى الغزل أن يكون كله كلاماً رقيقاً يتذلل فيه الشاعر بين يدى حبيبته ويجعل من نفسه عبدها الأسير الذى تفعل به الأناعيل وهو راضٍ سعيد ، غير مدركين فى غمرة هذه التقاليد الحديدية أن للقلوب الإنسانية منطقتهم التى يختلف عن ذلك (أحياناً على الأقل) ، وأن مثل هذه الأدعية القاسية قد تكون أدلّ على شدة الحب من الكلام المعسول الرقيق الذى كانوا يشترطونه ، لأن الشاعر المحب لا يتلفظ بهذه الدعوات الشديدة إلاّ من شدة وجده واضطرام نار الحب فى فؤاده . قال جنادة بن نجبة :

من حبهما أتمنى أن يلاقينى من نحو بلدتها ناع فيناها
لكى أقول : فراق لا لقاء له أو تضر النفس بأنا ثم تسلاها (١)
وقال سحيم :

وراهن رعى مثل ما قد ورّيتنى وأحمى على أكبادهن المكاويا (٢)
وقال جميل :

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى وفى الغر من أتياها بالقوادح
وقال العرجى :

ليت الإله ابتلاها بى وإن كرهت كما ابتلانى بها فى سالف الزمن
وقال عمر :

فليت ضعف الذى ألقى يكون بها بل ليت ضعف الذى ألقى تبارح
وقد دعا بشار على حبيبته من شدة تبارح ألمه كما دعا على حبانهم غيره

من الشعراء ، فقال :

قل لِحُبَّاءَ : إن تَعِيشِي فَموتِي سوف تَرْضَى لَكَ الَّذِي قَد رَضِيتِ (٣)

* * *

فأشْفَنِي بِالصَّبْرِ مِنْهَا يَا مُجِيبَ الدَّعَوَاتِ

أَوْ أَذْهَبَا يَوْمَ عَنِّي كَرِيمةً مِنْ كَرِيَاتِي (٤)

الهوامش

- ١- انظر حكم المزريانى على هذين البيتين بالقبح فى « الموشح » / ٢٤٧ .
- ٢- الورى : داء يصيب الرئة قاتل . انظر البيت وشرحه فى ديوان سحيم / تحقيق عبد العزيز الميمنى / دار الكتب المصرية / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م / ٢٤ .
- ٣- ٢ / ١ . والمعنى : سوف ترضى لك الذى قد رضيت له لنا من الاصطلاء بنار الحب والحرمان .
- ٤- ٢ / ٥٥ .

تعرض النساء الأخريات له وتراميهن عليه

مثلاً عمر بن أبي ربيعة كره بشار في قصائده (مخاطباً حبيته الهاجرة) أن
النساء الأخريات يتعرضن له ويفرطنه ، ولكنه منصرف القلب والفكر عنهن . ومن ذلك
قوله :

وجوارٍ إنا تحلّين لم تد
يوم سلطان إذ يتاديتي : أف
يتعرضن لى يقاطرة
من يتلت الللوك لا ...
كهمالة الكناسي تلو لنا الف
رحمن يدعوتنى إليها فأمسك
ظلمهن اللتى تتين شطى

ر : أشاء فى حليها أم نساء ؟
بل إنا فنحننا ما تشاء
الطرف إذا أقبلت ثلها الحياء
نماها إلى الملاه الملاه
س على وكة وفينا جفاء
ستُ بسمعى فضاع ذلك الدعاء
بفتاة منها اتقى وللحياء (١)

* * *

ولقد أتنا ان غائبة
يلملتنى ويربين متعتى
لما مررت بها متورة
قالت لنيوتها على عجل :
للساعة إن كان يشعنا
فأجبتها : إن الفتى غرل
لا تعجلنا أن تواعده
وتتال منه غير واحدة

أخرى وكنتُ هن كالتحبي
عند الرضا عنها وفى القتب
فى الحى بين خرتيد عروب
لنى لنا بمصنع القلب ؟
أشهى إلى قلبى من القتب
وأحب من يمشى على القتب
فيكون مجلنا على تحبي
إن الساع لأهون القلوب (٢)

* * *

وقال نسائه الحى : مالك حلقها
فقلت : السلى شافع من موتى

وما كتّ عن نى الأوتى صفع ؟
إذا رمّت أخرى ظل فى القلب يفلح (٣)

* * *

يا رب قائلة يوما لجارتها : إن المرعثة همى غاب أو شهدا
صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب قائلة يوما لجارتها : إن المرعثة همى غاب أو شهدا

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب قائلة يوما لجارتها : إن المرعثة همى غاب أو شهدا

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب قائلة يوما لجارتها : إن المرعثة همى غاب أو شهدا

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب قائلة يوما لجارتها : إن المرعثة همى غاب أو شهدا

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب قائلة يوما لجارتها : إن المرعثة همى غاب أو شهدا

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

يا رب

صددتُ عنها فلم أدنِ زارتها إلى هواك فلم تججزى به صقدا (٤)

الهوامش

- ١-١ / ١١٦ .
- ١-٢ / ٢١٤ - ٢١٥ .
- ٢-٣ / ١-٥ .
- ٢-٤ / ١٩٨ .

تهديده لها بالهجر

على رغم أن بشارًا يبدو عموماً في شعره العاطفي راضياً بما تفعله به صاحبه
لا يشور ولا يبدي سخطاً ، فإنه في إحدى المرات يلجأ إلى تهديدها بأنه سيعاملها بالمثل
وسيهجرها ويتركها لمن انصرفت إليه عنه :

قل لحُبَاءَ : إن تعيشي فموتى سوف ترضى لكِ الذى قد رضيتِ

...

قد شبعنا من ذلك المرّ طعاما وروينا إن كتبتِ منّا رويتِ

...

فاذكرى ودنا ، وذوقى سوانا تذكرنا وتدمى ما بقيتِ

...

أنت يا قوتمةً قدرتُ عليها لا أحب الشريك في الياقوت (١)

الهوامش

١-٢/١-٤

ارعواؤه عن التصابي

يكثر فى أشعار بشار الأخيرة قوله إنه قد ارعوى عن التصابى ، لأن الخليفة المهدي قد نهاه عن معاودة التشبيب بالنساء ، ولأن الشيب قد أدركه . ومع ذلك نراه فى ذات الوقت يؤكد أن قلبه ما زال ينبض ، وإن كان يذكر أيضا أنه يحاول كبتة :

أفنيْتُ عمري وتقضى الشباب	بين الحميا والجواري الأواب
فالأآن شفقتُ إمامَ الهدى	ورتما طيبتُ لحبّ وطباب
صعوتُ ، إلا أن ذكر الهوى	يدعو إلى الشوق فأنسى مآب
لله درى ! لا أرى عاشقا	إلا جرى دمعى وطال انتحاب (١)

* * *

يا منظرا حسنا رأيته	فى وجهه جارحة فديته
بعثت إلى تسومنى	ثوب الشباب وقد طويته

...

أسكتُ عنك ، وربما	عرض البلاء وما بقيته
إن الخليفة قد أبى	وإذا أبى شيئا أيتته

...

ونهانى الملكُ الهما	م عن النساء وما عصيته (٢)
---------------------	---------------------------

* * *

فقلت لها : بان الشاب ، فقد مضى	وصاحبنى غيظ لغيران منباج
لعلك ألا تعرفينى بمثلها	هدانى أمير المؤمنين بمصباح
فأليت : لا آلو الخليفة طاعة	ولا أبتغى إذنا على ذات أوشاح (٣)

* * *

ديدى ذاك فى الدجنة حتى ان	جباب عنى الصبا طلوع القتير
ثم رث الهوى وراجعنى الحل	م ورذت عارته المستعير

...

ذهبت لذة النساء فلا أَلْـ قَى نعيْمًا إلا حديث الذكورِ
وشبابى قد كان من لذة العيـ ش فأودى وغاله ابنا سميرِ (٤)

* * *

صحا القلبُ عن سلمى ، وشاب المُعذِّرُ وأفصرتُ إلا بَعْضَ ما أتذكُّرُ
وما نلتُها حتى تدلّت شبييتى وحتى نهانى الهاشمى المُقرِّرُ (٥)

الهوامش

- ١-١ / ١٧٥ .
- ٢-٢ / ٢٥ - ٢٦ .
- ٣-٢ / ١٢٠ .
- ٤-٣ / ٢٠٦ . والقتير : الشيب . وابنا سمير : الليل والنهار .
- ٥-٣ / ٢٥٩ .

بحر الحب

تكررت عند بشار الإشارة إلى بحر الحب والغرق أو الإشفاء على الغرق فيه ،
ومن ثم ذكر السباحة واللُّجَج :

لَمَّا رَأَيْتَنِي غَرِقًا فِي الْهَوَى أَجْرَضُ بِالْمَوْتِ وَحَوْلَى كَتَيْتَ
قَالَتْ : ثَقِيلٌ قَدْ دَنَا مَوْتَهُ فَقُلْتُ : مَا كُلُّ مَرِيضٍ يَمُوتُ (١)

* * *

كَأَنَّ حَبَّكَ فَوْقِي حِينَ أَكْتَمْتَهُ وَتَحْتَ رِجْلِي لُجٌّ فَوْقَهُ لُجَجٌ (٢)

* * *

أَقُولُ لِأَصْحَابِي : دَعُونِي رَهِينَةً لِبَحْرِ الْهَوَى ، لَأَشْكُ أَنِي مَلَجَجٌ (٣)

* * *

فِيهَا حَسْنَهَا إِذْ نَلْتَقِي بِمَهَايِلِ مَحْبَبَيْنِ فِي بَحْرِ مِنَ الْحَبِّ نَلْتَجِي ! (٤)

* * *

مَحْبَبَيْنِ مَعْشُوقَيْنِ نَغْرُقُ فِي الْهَوَى مَرَارًا ، وَطُورًا نَسْتَقِلُّ فَنَسْبِحُ (٥)

* * *

خَاضَتْ مِنَ الْحَبِّ ضَحَضًا وَمَا رَضِيَتْ حَتَّى جَشَمْتُ إِلَيْهَا غَيْرَ ضَحَضًا (٦)

الهوامش

. ٢٣ / ١ -١

. ٧٤ / ٢ -٢

. ٩٢ / ٢ -٣

. ٨١ / ٢ -٤

. ١٠٦ / ٢ -٥

. ١٣٥ / ٢ -٦

طيف الخيال

معروف أن الأحلام تقوم فى حالات كثيرة بتعويض الإنسان (تعويضاً وهمياً طبعاً) عمّا حُرّمه فى اليقظة . وكثيراً ما يرى المحب فى منامه أنه مع حبيبته الهاجر ينال منه ما لا يستطيع نيله فى الواقع من حديث ووصال ، وأحياناً أكثر من ذلك . وقد عبّر الشعراء منذ القديم عن هذه الظاهرة بأساليب مختلفة : فبعضهم يوجز . وبعضهم يفصّل فيذكر وقت الزيارة من الليل والمسافة التى قطعها الطيف حتى وصل . وبعضهم يكتب بالقول بأن حبيبته زارته فى المنام . وبعضهم يؤكد أنه فاز منها بكذا أو كذا . وبعضهم يبدي عدم ترحيبه بالزيارة ، وإن كان ذلك جدّ نادر . وبعضهم يرحّب بالطيف بل ويستجدي حضوره إن استعصى عليه ... وهكذا . قال طرفة :

أزق العينَ خيالاً لم يَقْر طاف والركب بصحراء يُسْرُ
جازت اليد إلى أرحلنا آخر الليل يبعفور خَدِر
ثم زارتنى وصحبنى هُجُوعٌ فى خليط بين بُرْدٍ وَتَبْرُ
تخلص الطرف بعينى بُرْعُوزٍ وبخْدَمِي رشابِ آدمِ غِرَّ
وقال أيضاً راداً الطيف :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب إليها ، فإنى واصلَ جبل من وصل
وقال المرقش الأكبر :

سرى ليلاً خيال من سليمانى فأرقنسى وأصحابى هُجُودُ
فبت أدير أمرى كل حال وأرقب أهلها وهمو يعيْدُ
على أن قد سما طرفى لنار يُشَبُّ لها بذى الأرتى وقودُ
حواليها مهًا جُثم التراقى وأرآم وغزلان رَقود
يسرن معاً بطاء المشى بُدًا عليهمن المجاسد والبسودُ

وقال قيس بن الخطيم دهشاً وفرحاً فى ذات الوقت :

أنى سريتِ وكنتِ غيرِ سَرُوبٍ ؟ وتقربُ الأحلامُ غيرَ قريبِ

ما تمنعنى يقضى فقد توتئنه
وقال سويد بن أبى كاهل :

أرق العيون خيالاً لم يدع
ويقول سحيم عبد بنى الحساس :

ألا حبذا مسراك من ثم ليلة
وإذا كان طرفة قد طرد الخيال غضباً من حبيبته الهاجرة فقال :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب إليها ، فإني واصل حبل من وصل
ثم جاء جرير فجرى على أثره ورد الطيف هو أيضا معلنا أنه ليس على استعداد
لاستقباله لأن الوقت ليس مناسباً للزيارة ، حين قال :

طرفتكَ صائدة القلوب ، وليس ذا وقت الزيارة ، فارجعى بسلام
فإن المجنون على خلاف ذلك يعاثر النعاس محاولة على أمل أن يرى فى المنام حبيبته
التي حرمه الواقع المر من رؤيتها ووصالها :

وانى لأستغشى ، وما بى نعمة لعل خيالاً منك يلقى خيالها
ويفصل ابن قيس الرقيات فى تصوير الحلم وما صنعه بحبيبته (أم
البنين) . وهو يقصد بذلك إغاطة الوليد بن عبد الملك زوجها وعبد العزيز بن مروان
والدها ، لأن الشاعر كان من حزب الزبيريين ، الذى كان ينافس الأمويين على السلطة
وانتزع منهم لفترة حكم بعض البلاد :

فدع ذا ، ولكن حاجة
إلى أم البنين . متى
أنتى فى المنام فقل
فلما أن فرحتُ بها
شربتُ بريقها حتى
ويست ضجيعها جذلاً
قد كنتُ أطلبها
يقرؤها مقرؤها
تُ هذا حين أعقبها
ومال على أعذبها
نهلت وبت أشربها
ن تعجننى وأعجبها

وأضحكها وأبكيها	وأبسها وأسلها
أعاجبها فتصرعنى	فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة فى النو	م نسرهما وتلعبها
فأيقظنا مناد فى	صلاة الصبح يرقبها
فكان الطيف من جنّ	ية لم يُدّر مذهبها
يؤرقنا إذا نمنا	ويُعِدُّ عنك مسرهما

وهى كما ترى أبيات يقصد منها إلى الإغاظه والحرب السياسية . وكان ينبغى على الشاعر ألا يتورط فى ذلك وألّا يشجعه ممدوحه الزبيريون عليه ، فليس هذا بالأسلوب اللائق بالرجال فى حربهم لخصومهم . ولكن متى كانت السياسية تبالى ما يليق وما لا يليق ؟ على أن الأبيات برغم ذلك جميلة ممتعة من حيث هى فن تصويرى .

ويقول الوليد بن يزيد فى أخت زوجته التى طلق زوجته من أجلها ولم يرض أبوها أن يعطيها له زوجة إلا بعد أن تولى الوليد الخلافة :

طرقتنى وأصحابى هجوع	ظبية أدماء مثل الهلال
مثل قرن الشمس لما تبدت	واستقلّت فى رؤوس الجبال
تقطع الأهوال نجوى ، وكانت	عندنا سلمى ألوف الحجّال
كم أجازت نحونا من بلاد	وحشبة قتالة للرجال

ويقول أيضا ، ولكن موجزا ومتألما هذه المرة :

ويلى مّ من جفاننى	وحبه قنند براننى
وطيفه يلقاننى	وشخصه غير داننى
أغرّ كالبدر يُغشّى	بحسنه العينان

فإذا أتينا إلى بشار وجدناه يقول مرة إن طيف حبيبته قاتله ، ومرة إنه نال منها فى المنام ما يناله العروس من عروسه ، ومرة إن الطيف يزيد شوقا ولهفة ،

ومرة يدعوها لزيارته فى المنام . بل إننا نراه هو نفسه يزور حبيبته فى المنام طيفًا
فتصاب عينها من ذلك الوقت بداءٍ :

يوم قالت : إذ رأيتك فى النو م خيالاً أصبتَ عينى بداءٍ (١)

* * *

منعتك أم محمد معروفها إلا الخيال . وشس حظُ الغائبِ (٢)

* * *

إن الحبيب . فنلا أكافئه . بعث الخيال على واحتجبا (٣)

* * *

منع النوم طارق من حبابه وهموم تجول تحت الزهايبة (٤)

* * *

قد شفتنى حزن ضاق الفؤاد به وسررى زائر فى النوم متابا

باتت عروسًا وبتنا مفرسين بها حتى رأينا يياض الصبح منجابا (٥)

* * *

يدعو إلى الموت طيف لا يؤرقنى وعارض منك فى جدى وفى لعى (٦)

* * *

ما على النوم لو تعرضت فيه فبلونساك فى سخابٍ وأتب ؟ (٧)

* * *

فيا سَمًا فقد الحبيب إذا نأى ورؤيته فى النوم أودى من الفقد (٨)

* * *

أعداك طيفها ؟ وبما يعوذُ وحب الغائيات جوى يؤوذُ ؟ (٩)

* * *

لقد زادنى شوقا خيال يزورنى وصوت غناء من نديم مفر (١٠)

* * *

ولا ألم بعينى من كرى سني إلا ألم خيال منك فاعتادا (١١)

* * *

لا يذكر الدهرَ أو يسرى الخيالُ له إلا تغنى بها أو مسَّه ضررُ (١٢)

* * *

ورما شاقنى طيفٌ بصورتها وزرَّتْها قبل أصوات العصافيرِ (١٣)

* * *

لم يطل لَيْلِي ، ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيفُ ألمِ (١٤)

* * *

إذ لا يزال لها طيفٌ يؤرقنى نشوان من حبِّها أو غير نشوانِ (١٥)

الهوامش

- ١-١ / ١ - ١٠٨ .
- ١-٢ / ١ - ١٦٧ .
- ١-٣ / ١ - ١٧٥ .
- ١-٤ / ١ - ١٩٢ .
- ١-٥ / ١ - ٢٠٧ .
- ١-٦ / ١ - ٢٦٤ .
- ١-٧ / ١ - ٢٦٧ .
- ١-٨ / ٣ - ١٠ .
- ١-٩ / ٣ - ١٤ .
- ١-١٠ / ٣ - ٧٣ .
- ١-١١ / ٣ - ١٤٦ .
- ١-١٢ / ٣ - ١٦٠ .
- ١-١٣ / ٣ - ٢٢١ .
- ١-١٤ / ٤ - ١٦٦ .
- ١-١٥ / ٤ - ٢١٦ .

تشبيه القلب فى خفقانه بالطائر أو بجناحه

من الصور الشائعة فى الشعر العربى تشبيه الشاعر قلبه ، فى اضطراب دقاته وخفقاته وبخاصة عند رؤية الحبيبة أو سماع اسمها أو التألم من هجرانها له ، بالطائر المضطرب وبجناحه حين يهَمّ بالطيران أو حين يعالج الخلاص من شبكة وقع فيها ، أو تشبيه آلامه بقبض الطائر بمخالبه الحادة على قلبه (١) . قال المجنون :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من بنى فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى
ويقول جميل :

كأن فؤادى فى مخالِب طائسر إذا ذُكِرَتْ ليلى يَشُدُّ به قبضا
ومما يتصل بهذه الصورة قول المجنون يصوّر الراحة التى يشعر بها حينما تهفو
ذكرى الحبيبة على فؤاده :

وإنى لتعرونى لذكراك هـزّة كما انتفض العصفور بلله القَطْرُ
وقد تابع بشار هذا الأسلوب فرأيناه يكرر استخدام هذه الصورة فى شعره . وهذه
شواهدا :

عدينا ، فلن النفس تُخَدِّعُ بالمنى وقلب الفتى كالطائر المتقلّبِ (٢)

* * *

إن قلبى مثل الجناح إلى من بات يدعو وأنتَ غير مجيبِ
لو يطير الفتى لطرت من الشو ق منيبا إلى العجيب المُنِيبِ (٣)

* * *

تفتى رفيقى باسمها فكأنما أصاب بقلبي طائرا فتضرتا (٤)

* * *

كيف لى بالسلىو عمّن جفانى وفؤادى كالطائر المستجاب ؟ (٥)

* * *

طال ليلي ، ويات قلبي جناحها ومللت العذال والتصاحا (٦)

* * *

فجاءت على خوف كأن فؤادها جناح السمائي يرعوى ويعيد (٧)

* * *

كأن فؤادي طائر حان وزده بهز جناحيه انطلاقاً إلى ورد (٨)

* * *

كأن فؤادي في أخوافي حمامة من الشوق أو صنع النوافث في العقد (٩)

الهوامش

١- نته المستشرق بيستون إلى هذه الصورة فى الشعر العربى القديم فى كتابه الذى جمع فيه وترجم مختارات من شعر بشار ، مقارنًا بينها وبين التعبير الإنجليزى : " butterflies in the stomach " ، الذى لم يجد بينه وبينها كبير اختلاف ، إذ التعبير الإنجليزى يعنى القلق والانزعاج (Selections from the Poetry of Baššrar , p. 7) .

. ١٧٢ / ١ -٢

. ١٩٨ / ١ -٣

. ٢٤٤ / ١ -٤

. ٣٥٤ / ١ -٥

. ١٢١ / ٢ -٦

. ١٦٣ / ٢ -٧

. ٩ / ٣ -٨

. ٧٠ / ٣ -٩

مخاطبة القلب

مخاطبة الشاعر المحب لقلبه أسلوب معروف في الشعر الغزلي العربي منذ العصر الجاهلي . قال المثقب العبدى يخاطب قلبه ولكن بضمير الغائب لا بضمير المخاطب :

هل لهذا القلب، سمع أو بصَرُ أو تَناهُ عن حبيب يُدْكَرُ ؟
ويتوجه عدى بن زيد إلى قلبه توجهًا مباشرًا ، إذ يناديه قائلاً :
إلا أيها القلب ، تَعْلَلْ يَدَدَكَ إن هَمَسِي فِي سَمَاعِ وَأَذَنِ
ويقول جميل لقلبه منكرًا عليه ضعفه ومغاضبًا له :
أنى كل يوم أنت محدثُ صَبْوَةٍ تَمُوتُ لَهَا ؟ يُدَلِّتُ غَيْرَكَ مِنْ قَلْبِ
ويقول الوليد بن يزيد :

يا قلب ، كم كَلِيفَ الْفَوَادِ مَمْكُورَةٍ رَمَا الْعِظَامَ خَرِيدِ
بل إن ابن أبي ربيعة قد خطا خطوة أبعد فأنتطق قلبه قائلاً :

قال لى فيها عتيقُ مقالا فجرت مما يقول الدموع
قال لى : ودع سليمى ودعها فأجاب القلب : لا أستطيع
لا تلمنى فى اشتياقى إليها وابك لى مما تجعن الضلوع

وقد ذكر « الأغاني » عن مصعب بن عبد الله بن مصعب أن عمر قد راق الناس وفاق نظراءه ويرعهم بعدة أشياء منها « إنطاق القلب » (١) ، مما يفهم منه أنهم كانوا يرونه رائدًا في هذا الأسلوب .

أما بالنسبة لبشار فقد وجدته يخاطب قلبه في عدة مواضع من شعره ، ولم أتنبه إلى أنه أنطق قلبه كما فعل عمر بن أبي ربيعة . وهذه شواهد مخاطبته قلبه :

عدمتُك عاجلا ، يا قلب ، قلبا أتجعل من هويتَ عليك رَمَا ؟ (٢)

* * *

إلا يا قلب ، هل لك فى التمرى ؟ فقد عذبتنى ولقيتُ حَسْبَا (٣)

* * *

أقول لقلب ليس لى ، غير أنه
ألا أيها القلب الذى أدبرت به
تؤمّل سُعدى بعدما شَعَبَتْ بها
تمنيك سُعدى كل يوم يكذبة
إذا الناصح الأذنّى دعاك بصوته :
تَمَنَّى هوى سُعدى مشيدا لحبها
لما شئت من شوقٍ إلى جُلُوبٍ
سعادُ بنى بكرٍ ، ألسَتْ تُيب ؟
نوى بين أقران الخليط شعوبٍ
جديد ، ولا تُجِدِى عليك كذوبٍ
« دع الجهل » لم تسمع وأنت كيب
كأن لا ترى أن المَفَارِقُ شيبُ (٤)

* * *

أقول لِمُنْجَبَتْ وبه حَسْرَاكَ
أبعد عبيدة الحوراء تصبو
فراجع باسمها طربا إليها
بهم ولا يُسَمِّح بانقيادٍ :
إلى أنثى ؟ فَقَدْتُكَ من فؤادٍ !
كما انصرف الذلول مع القياد (٥)

* * *

يا قلب ، مالى أراك لا تَقْرُ
إياك أغنى ، وعندك الغَبْرُ (٦)

الهوامش

- ١- انظر « الأغاني » / ط. بولاق / ١ / ٥٣ .
- ٢- الديوان / ١ / ١٦٥ .
- ٣- ١ / ١٦٦ .
- ٤- ١ / ١٨٧ .
- ٥- ٣ / ٢٤ .
- ٦- ٣ / ١٩٩ .

تسمية أيام اللقاء ولياليه

ويبدو بشار أحيانا حريصًا على تسميه يوم اللقاء أو تحديد ليلته :

اسْتَقَمَّتْ لَيْلَةُ الثَّلَاثَاءِ قَلْبِي وَتَصَدَّتْ فِي السَّبْتِ لِي لَشَقَائِي (١)

* * *

لَقَيْتَنِي يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ تَمْشِي بِالتَّصَابِي وَبِالْعِنَاءِ لِقَلْبِي (٢)

* * *

سَقِيَا لَهُ وَلِئَمْذَخِلِ أَدْخَلْتَهُ يَوْمَ الْخَمِيسِ عَلَيْهِ فِي أَتْرَابِهِ (٣)

* * *

فَأذْكَرِي لَيْلَةَ الْخَمِيسِ حَسَّ لِسَانِي الْمَلْجَلِيجِ (٤)

* * *

مَا تَأْمُرِينَ بِزَائِرِ أَقْصِيَّتِهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَقَدْ رَجَا مِعَادَا ؟ (٥)

* * *

فَنِي لَيْلَةَ خَلْفَ شَهْرِ الصَّوْمِ نَاقِصَةً تِسْعًا وَعِشْرِينَ قَدْ أَحْصَيْتُهَا عِدْدًا (٦)

* * *

وَذَكَرْتُ مِنْ رَمَضَانَ آخِرَ لَيْلَةٍ طَلَعْتَ كَوَاكِبَهَا عَلَيَّ سَعُودًا (٧)

* * *

أَذْكَرْتُ نَفْسِي عَشِيَةَ الْأَحَدِ مِنْ زَائِرِ صَادِنِي وَلَمْ أَصِدِ (٨)

* * *

وَشَرِبَ بِهَالِيَسَلِ فِي لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ نَحَلَّوْا بِهَا صَاعِدًا (٩)

* * *

شَهْرٌ وَشَهْرَانِ مَرَّ قَبْلَهُمَا شَهْرَانِ مُرَّانِ مِنْهُمَا صَفْرُ (١٠)

* * *

قُلْ لَشَهْرِ الصِّيَامِ : أَنْحَلَّتْ جَسْمِي إِنْ مِيقَاتِنَا طَلَسُوعُ الْهَلَالِ

اجْهَدِ الْآنَ كُلَّ جَهْدِكَ فِينَا سَتَرِي مَا يَكُونُ فِي سُؤْالِ (١١)

رقد لاحظت هذه الملاحظة عند عمر بن أبي ربيعة ، كما في الأبيات التالية :

أنكرتني اليوم بعد معرفتي وبعد جرى إليكم رمتني
ومجلسي ليلة الخميس لدى الخيما ت بين التللاع والحصن
وليلة السبت إذ رأيت لنا بالوذة ، والدمع منك في سنن

* * *

وقد مضت حجج ، من بعد ، أربعة وأشهر ، وانتقنا العام شعبانا

* * *

قالت : فمعاذك التقمُّرُ في أول عشر خلَّوُن مسن رجسب

الهوامش

- ١-١ / ١٠٨ .
- ١-٢ / ٢٦٦ .
- ١-٣ / ٢٨٠ .
- ٢-٤ / ٧٣ .
- ٢-٥ / ١٦٥ .
- ٢-٦ / ١٩٦ .
- ٢-٧ / ٢٥٨ .
- ٢-٨ / ٦٥ .
- ٢-٩ / ١٤٨ .
- ٣-١٠ / ٢٦٤ .
- ٣-١١ / ١٥٤ .

حب الأعمى

يتردد في شعر بشار الغزلى الإشارة إلى أنه ، وإن كان أعمى ، فإنه قادر على الحب ، لأن العبرة في الحب بالقلب لا بالعين . وهذه في الحقيقة مغالطة من بشار أو الأقل عدم دقة ، فإن القلب لا يحب مباشرة ، بل لا بد له من حاسة توصل إليه الشعور بالمحبوب . فإن عُدِمَ البصر قام السمع مقامه أو وصفُ الآخرين أو الشَّمُّ أو اللمسُ أو الذوقُ باللسان أو ذلك كله أو بعضه . وهذا هو الذى حدث فى حالة بشار ، إذ كانت وسيلته إلى الشعور بالمرأة سماع صوتها واستنشاق عبيرها ... إلخ ، وهو ما قاله فعلاً فى بعض الأحيان ، إذ أشار أكثر من مرة إلى عشقه لحديث بعض النساء . كما أنه فى بيت آخر قد طلب من صاحبتة أن تمكنه من لمسها حتى يتأكد مما قيل له عن حسنها :

قالت عَقِيلُ بن كعب إذ تعلقها قلبى فأضحى به من حبها آثُرُ

أتى ، ولم ترها ، تصبو ؟ فقلت لهم : إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصرُ (١)

* * *

فقلتُ : دعُوا قلبى وما اختار وارضى فبالقلب لا بالعين يُنصر ذو اللبِّ

وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلبِ (٢)

* * *

قالوا : بيلمى تهذى ولم ترها يا بُعْدَ ما غاوت بك الفكرُ ؛

فقال : بعض الحديث يشغفنى والقلب راء ما لا يرى البصرُ (٣)

* * *

ولست بناسٍ من يكون كلامه بأذنى ، وإن غُيِّبَتْ ، قُرْطًا معلقًا (٤)

* * *

يا قوم ، أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانًا (٥)

* * *

أمامة ، قد وُصِفَتْ لَنَا بِحُسْنٍ وَإِنَّا لَا نَرَكَ فَالْمُسِينَا (٦)
هذا ، وقد رأى العقاد أن قول بشار بأن العبرة في الحب بالقلب لا بالعين هو
التعليل الصحيح ، إذ « ما أكثر ذوى الأبصار الذين يسلطون قلوبهم على عيونهم
وأسماعهم وعقولهم فلا تبصر إلا ما تراه ولا تسمع إلا ما تودده ولا تعقل إلا ما
تشتهيه وتتمناه » (٧) . لكننى أرى أن هذا قلب للمسألة ، فإن الإدراك فى مثل هذه
الحالة لا يصل إلى القلب (أو إلى المخ إن أحببت) إلا عن طريق الحواس ، ولا يمكن
أن يقفز فوقها ويتخطاها إليه مباشرة . ثم إن الإنسان لا يحبّ بقصده ؛ على عكس ما
يفهم من كلام العقاد . إنما يقع الحب رغم أنفه بل وغالبا دون أن يتنبه إلى وقوعه فى
بداية الأمر، ثم بعد ذلك يَلَوْنُ هذا الحب إحساسات صاحبه : رؤيةً وسمعًا وشمًا ولسًا .
أما العكس فلا أظنه صحيحًا .

هذا ، ويرى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أن دعوى عشق السمع كعشق
البصر هى من مخترعات بشار التى لم يسبقه إليها أحد (٨) .

الهوامش

- ١- ٣ / ١٥٩ .
- ٢- ٤ / ١٢ .
- ٣- ٤ / ٦٤ .
- ٤- ٤ / ١٢٠ .
- ٥- ٤ / ٢٠٦ ، ١٩٤ .
- ٦- ٤ / ٢٠٦ .
- ٧- مراجعات فى الآداب والفنون / ١٢٤ .
- ٨- انظر مقدمة الديوان / ٥٠ .

ريق الحبيبة

كثيراً ما يصف بشار ريق الحبيبة مشبها إياه بطعم التفاح مرة ، والشهد ثانية ، والراح مرة ثالثة . وهذا تشبيه متكافئ ، إذ كلا طرفيه يذاق باللسان . وهو فى بعض الأحيان يجعل هذا الريق شفاءً ، وفى أحيان أخرى يجعله ناراً تحرق . والملاحظ أنه رغم تكرر وصف بشار لريق الحبيبة فى شعره لم يحدث قط أن أطلال فى ذلك الوصف كما فعل كعب بن زهير مثلاً فى مفتتح برده حين راح يتغنى بريق سعاد فى أبيات كثيرة يتلو بعضها بعضاً مشبها إياه بخمر قد مزجت بماء بارد أتى به من محنية فوق جبل قد هبت عليها النسائم الباردة طوال الليل ... إلخ . والآن إلى الشواهد من شعر بشار :

أروح على المعارف أروعها وتسقيني بريقتها النساء (١)

* * *

ريق سقدي ، يا ابن الدجيتل ، الشفاء فاسقنيه . لكل دواء دواء (٢)

* * *

ومؤشّر ألمى اللثا ت شهى طعم الريق عذبة (٣)

* * *

لا تكن لى الحياة إن لم تكن لى شربة من روضها غير غضب (٤)

* * *

داء المحب . ولو يُشقى بريقها كانت لأدوائه كالنار للحطب (٥)

* * *

لو مت ثم سقيتنى برضايه رجعت حياة جنازتى برضايه (٦)

* * *

ألا يا اسقاني بالرحيق . فنيئت ولو بقيت حبي لنا لقيت (٧)

* * *

وبلدى طعم شبيب بارد عذب اللغات
طعمه من ذوب شهيد شيب بالماء الفرات (٨)

* * *

كان برقيها عسلاً جنيهاً وطعم الزنجبيل وريح راح (٩)

* * *

ورضاب ذى أشر أغر كأنما غيقت مشاربه من التفاح (١٠)

* * *

وشعر يحكى المغبر عنه نفحة المسك فت فى كاس راح (١١)

* * *

كان تلجا بين أسنانها مسترکاً راحاً وتفاحا (١٢)

* * *

ريق حبي أحسوه سبعة أيام شفاء لقرحة بالفؤاد (١٣)

* * *

إن فاهها أشهى إلى ربي رضاباً ومورداً

من جنا النحل بالنقا خ زلاباً مبرداً (١٤)

* * *

أهنا الساقيان ، حبتا شرابي واسقياى من ريق بيضاء رويد

...

إن فى ريقها شفاء لما بى وسعوطا للمخصب المسوود

...

إن دائى طفى ، وإن شفاى غيرة من رضاب فىك البرود (١٥)

* * *

وكانها شربت سلافة بابل بالسامرة خالطت قديداً (١٦)

* * *

مُؤَشَّرٌ طَيِّبٌ الْمَذَاقَةُ كَالرَّاحِ
يَا لَيْتَ مَشْرَبًا بِرَيْقَتِهَا
ح طعم التفاح مُنْجِرِدِ
أشفي به غُلَّةَ عَلَى كَيْدِ (١٧)

* * *

إِذْ نَجَّتْهَا وَإِذْ نُتِّقَى عَلَى ظَمِئِ
مَنْ لَوْلُو أَشِيرَ الْأَطْرَافِ مِنْبُتُهُ
بِالرَّاحِ خَالِطٌ أَنْفَاسًا مِنَ الْقَطْرِ
فِي طَيِّبِ الطَّعْمِ عَذْبٍ بَارِدٍ خَصِيرِ (١٨)

الهوامش

- ١-١ / ١ - ١٠٦ .
- ١-٢ / ١ - ١١٣ .
- ١-٣ / ١ - ١٧٠ .
- ١-٤ / ١ - ٢٦٧ .
- ١-٥ / ١ - ٢٦٤ .
- ١-٦ / ١ - ٢٨٠ .
- ١-٧ / ٢ - ٣٩ .
- ١-٨ / ٢ - ٥٣ .
- ١-٩ / ٢ - ١١٢ .
- ١-١٠ / ٢ - ١١٦ .
- ١-١١ / ٢ - ١٤٠ .
- ١-١٢ / ٢ - ١٥١ .
- ١-١٣ / ٢ - ١٨٠ .
- ١-١٤ / ٢ - ٢٠٩ .
- ١-١٥ / ٢ - ٢٧٣ .
- ١-١٦ / ٢ - ٣٢٧ .
- ١-١٧ / ٣ - ٦٧ .
- ١-١٨ / ٣ - ٢٤٤ .

تشبيهه المحبوبة بالجواهر

منذ القديم والشعراء العرب يشبّهون المرأة فى جمالها وفخامتها بالجواهر الثمينة كاللؤلؤ والياقوت والذهب . وقد توسّع بشار فى هذه الناحية فوجدنا عنده شواهد كثيرة على هذه الصورة . ومن شعراء الجاهلية الذين جروا فى هذا المضمار المرقش الأكبر ، إذ يقول :

النشر مسنك ، والوجوه دنا
وكذلك زهير بن أبى سلمى :

تازعت المهامها شهباً ودرّ الإح
فأما ما قوّتق العقد منها
وأما المقتلمان فمن مهابة
ويقول طقيل الغنوى :

إن النساء ، ولو صوّرن من ذهب ،
وقال لبيد :

من المسيلين الرئيط ، لذّ ، كأنه
وقال النابغة :

قامت تراءى بين سجنى كلى
أو درة صدفية غواصهما
ويعد الإسلام يقول مثلاً ابن قيس الرقيات :

حتى الاختين . قد أجمّ الفراق
ودنت رحلة لنا وانطلاق
...

دُرّاً غائص من الهند . مآل الش
ويقول عمر بن أبى ربيعة :

محطوة المتين أكمل خلقها
مثل السيكة بضّة معطارا

* * *

بيضاء ناصعة البيا ض كدره الصدف الكنين

* * *

فطبرن حذًا لِمَا قالت وشايعها مثلُ التماثيل قد موهن بالذهب
ويقول جميل :

وأنت كلؤلؤة المرزبان بماء شبابك ، لم تُحصري
ويقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الفدا «واص ميزت من جوهر مكنون
ويقول ذو الرمة عن حبيته :

كأنها درة منعممة من نسوة كنَّ قبلها دُررًا

* * *

حواره في دَعَج ، صفراء في نَعَج كأنها فضة قد مسها ذهبُ
ويقول الأخطل مستلهماً بيت لبيد الذي مرَّ قبل قليل :

لذَّ تقبله النعيم كأنما سُحِحت ترائبه بماء مذهبٍ

ولقد رأينا هذه الصورة تنتقل من ميدان الغزل ووصف النساء إلى المديح وتفخيم

شأن الملوك . قال ابن قيس الرقيات في عبد الملك بن مروان :

يأتلق التاج فسوق مفرقه على جبين كأنه الذهبُ

وهو البيت الذي لم يعجب الخليفة الأموي ورأى أن مدح الشاعر لابن الزبير بالتقوى أفضل منه .

... وهكذا حتى نصل إلى بشار ، فنراه يكثر من هذا التشبيه وينوع فيه : فمن

ذهب إلى لؤلؤ إلى درّ إلى ياقوت إلى زبرجد إلى فضة . ولا يقتصر الأمر على جسدها
وصدرها بل يتعداه إلى صورتها وكلامها . قال :

بيضاء صافية الأديم ترعرعت في جلد لؤلؤة وعفة راهب (١)

- * * *
- كالشمس إن برقت مجاسدها تحكى لنا الياقوت والذهباً (٢)
- * * *
- لو كنت غير فتاة كنت لؤلؤة غالى بها ملك بالتاج معسوب (٣)
- * * *
- وجيد يشبه الدر كجيد الريم سلهوب (٤)
- * * *
- كانما خلقت من جلد لؤلؤة نفساً من العطر إن حرمتها ثاباً (٥)
- * * *
- أنت يا قوتة قدرت عليها لا أحب الشريك فى الياقوت (٦)
- * * *
- كأن القول من فيك لنا در وياقوت (٧)
- * * *
- كانما خلقت فى قشر لؤلؤة فكل أكافها وجة بمرصاد
- ...
- بيضاء كالدرة الزهراء غرتها تصطاد عينا ولا ترجى لمصطاد (٨)
- * * *
- ومجلس خمس قد تركت لجهبا وهن كزهر الروض أو لؤلؤ الشرد (٩)
- * * *
- ونحرا يريك الدر لما بدت لنا به لسة منها تزين الزرجدا (١٠)
- * * *
- من اللؤلؤ والياقوت أو من عنبر الهند (١١)
- * * *
- ولو تراها إذا ألفت مجاسدها وأبرزت عن لبان غير خوار

حسبها فضةً يضاء في ذهب يا حسنها فضةً في مُذهب حار! (١٢)

* * *

قالت : ولا ذنب لي إن كنتُ جاريةً قد خصني بالجمال الخالقُ الباري
فصاغني صينةً نصفين : من ذهب نصفي ، ونصفي كدعص الرملة الهاري (١٣)

* * *

درة حيثما أديرت أضواءت ومشمّ من حيثما شُمّ فاحا (١٤)

* * *

وتخال ما جمعت عليّ به ثيابها ذهباً وعطرا (١٥)

* * *

درة بحريسة مكنونة مازها التاجر من بين الدرّز (١٦)

* * *

مثل حُرّ الياقوت إن مسه النسا رُجلاه البلاءُ فازداد زُنتا (١٧)

الهوامش

- . ١٦٨ / ١ -١
- . ١٧٦ / ١ -٢
- . ١٩٣ / ١ -٣
- . ٢٠٥ / ١ -٤
- . ٢٠٩ / ١ -٥
- . ٤ / ٢ -٦
- . ٢٠ / ٢ -٧
- . ٣١٩ ، ٣١٨ / ٢ -٨
- . ٩ / ٢ -٩
- . ٣١ / ٢ -١٠
- . ١٢٧ / ٢ -١١
- . ١٦٨ / ٢ -١٢
- . ١٦١ / ٢ -١٣
- . ٣٣ / ٤ -١٤
- . ٥٦ / ٤ -١٥
- . ٦٩ / ٤ -١٦
- . ٢٢٢ / ٤ -١٧

تشبيه الحبيبة بالعطر

وكما تكرر في شعر بشار تشبيه حبيبته بالجواهر الثمينة ، كذلك تكرر تشبيهه إياها بعطر هذه الزهرة أو تلك . وإذا كانت التشبيهات من النوع الأول غير عادية من شاعر حُرِّم نعمة البصر ، فإن النوع الآخر منها يبدو منسجما مع ظروف عاهته ، فهو وإن لم يتمتع الله بالنظر لم يحرمه من الشم . قال :

وانسى لمستشفى عبيدة ، إنها بدائى ، وإن كاتمته ، لطيب
كقارورة العطار أو زاد نعتها ، تليين إذا عاتبتهما وتطيب (١)

* * *

يا طيب ، سيان عندي أنت والطيب كلاكما طيب الأنفاس محبوب (٢)

* * *

كان فى قرقرٍ قَصَمَتَهَا سفرجلا طيبا وتفاحا (٣)

* * *

قضاها اللذة من مسكٍ ومن عنبرة غادة (٤)

* * *

من اللؤلؤ والياقوت أو من عنبر الهند

أو المسك ، فـلـن المسك من أشباهه عندي (٥)

* * *

أخرت ریحان بستانٍ وناضرة حتى أشمك يا ریحانة البَد (٦)

* * *

خود عليها المسك والبيبر (٧)

* * *

ألا يا حبذا واللـه من أهدي لي العطر

ومن أهدي لي الريحان قد شاب به سحرا (٨)

- * * *
- ألا يا نَفْسَ المِسْكِ الـ ذى يُخَلِّطُ بالعَنْبَرِ (٩)
- * * *
- وزائرة ما مَسَّهَا الطيبُ برهةً من الدهر، لكن طيبها الدهرَ فاتحُ (١٠)
- * * *
- أشبهَكَ المِسْكَ وأشبهتِهِ قائمةً فى لونه قاعِدةِ (١١)
- * * *
- كأنها صيغتْ لمن نالها من عنبرٍ بالمسك معجونِ (١٢)
- * * *
- حوراء جاءت من الفردوس مقبلتاً فالشمس طلعتها ، والمسك رباها (١٣)

الهوامش

- ١- ١ / ١٧٩ .
- ٢- ١ / ١٩٣ .
- ٣- ٢ / ١٥٤ .
- ٤- ٣ / ٦٢ .
- ٥- ٣ / ١٢٧ .
- ٦- ٣ / ١٤١ .
- ٧- ٣ / ١٨٤ .
- ٨- ٣ / ٢٣٧ .
- ٩- ٣ / ٣٠٢ .
- ١٠- ٤ / ٣٣ .
- ١١- ٤ / ٣٤ .
- ١٢- ٤ / ١٩٩ .
- ١٣- ٤ / ٢٣٠ .

تشبيه الحبية بالروضة

تكرر عند بشار تشبيه حبيته بالروضة فى ألوانها الزاهية أو زهورها وعطرها . وهذه شواهد على ما نقول :

كأنما ألبستها روضةً ما بين صفراءَ وخضراءِ (١)

* * *

ومجلسِ خَمْسٍ قد تركت لحيها وهن كزهر الروض أو لؤلؤ السردِ (٢)

* * *

كأن عليها روضةً يوم ودَّعتْ بأقوالها خوفاً ، وراحت ولم تعدْ (٣)

* * *

كأنها روضة منبورةً تجمع طيبا ومنظرا حسنا (٤)

الهوامش

١-١ / ١٤٩ .

٢-٢ / ٩ .

٣-٣ / ٦٩ .

٤-٤ / ٢٢٣ .

تشبيه المسموع بالمرئى والمشموم والمذوق

تكرر فى شعر بشار تكرراً ظاهراً تشبيه حديث الحبيبة بأشياء مرئية ، وكذلك بأشياء مشمومة أو مذوقة باللسان . فأما التشبيه بالمشمومات والمذوقات فذلك هو الوضع المنتظر من شاعر كبشار وُلِدَ كفيفاً فهو لا يدرك المرئيات ولا يحقق شيئاً منها . إنما المشكلة فى تشبيهه المسموع بالمرئى ، وقد كان العكس هو المفروض أن يكون ، لأن حاسة البصر معطلة عنده فى حين أن أداة السمع عنده ، ككل المكفوفين ، أنشط منها عند البصراء .

وقد فسّر د. محمد النويهى صنيع بشار هذا بأنه يريد أن « ينقل شعوره الدقيق إلى المبصرين بلغة يفهمونها ... يريد أن يصور للناس اللذة السمعية التى يجدها فى الاستماع إلى صوتها (أى صوت المغنية) ذى الأنغام المتعددة الدقيقة ، فلجأ إلى تشبيهه يستطيعون أن يفهموه ، فشبّه تعدد هذه الأنغام بتعدد الألوان والظلال التى يرونها بعيونهم ويصفونها فى حديثهم وأدبهم الشعرى والنثرى » (١) .

أما د. نجيب البهيتى فإنه يعيب هذا اللون من التشبيه عند بشار ، ويرى أن التشبيه عند السابقين كان « يقوم على الدقة الصارمة فى ملاحظة وجوه الشبه بين المشبه والمشبه به » و « على مطابقة الصورة للصورة المطابقة الموضحة المقوية » ، وأنه « لما جاء بشار لم يكن له من القدرة ما يسعده بهذا القدر منه ولا بما يقاربه ، فمال به دون شعور منه بميله إلى التشبيه التقريبي ، ونقله بذلك إلى الغموض بعد أن كانت وظيفته التوضيح ، واعتمد به على الإبهام بعد أن كانت غايته الدلالة ، فهو يوضح محدوداً بغير محدود » . ثم يسوق أبيات بشار التى يشبه فيها حديث حبيته بقطع الرياض ، معقبا بقوله : « ما هى العلاقة بالضبط بين ترديدها حديثها وبين قطع الرياض التى كستها الزهور ؟ إنك تستطيع أن تتحلل وجوها كثيرة ، ولكنك لن تقنع بالوقوف عند واحد منها ، ولن تُقنع سواك بالتزام واحد . ذلك أن ركنى التشبيه

أحدهما مسموع وثانيهما مرئى ، والمقارنة بينهما عند من يسمع ويرى جميعا غيرها عند من يسمع ولا يرى . والتشبيه من بشار طريقة من طرق الدلالة بالقدر الذى تهيأ له ، إذ الصورة عنده موهومة ، والحديث عنده مسموع . فهو تشبيه محسوس عنده بغير محسوس ، وهى عندك تشبيه محسوس بمحسوس ، ولكنهما متخالفان فى نوعهما ، بعيدان فى وجه تقاربهما . ومن هنا كان عليك أن تتوهم لتفهم « (٢) .

ثم يعلّل د. البهيتى هذا الحرص من بشار على تشبيه المسموع بالمرئى بولعه بأن يسبق المبصرين (٣) . وهو تعليل صحيح فيما يبدو لى . غير أنى لا أوافق الأستاذ الدكتور على هذه الحملة على بشار ، فقد بذل الشاعر جهده واستلهم تجربته التى حصلها من طريق السماع والتقاليد الشعرية والتخيل أيا كانت طبيعة هذا التخيل وقدرته . ثم إن العبرة بالإصابة فى التشبيه ، وهو ما تحقق لبشار ، فصوره التى من هذا النوع جميلة مثيرة موجية .

كذلك ينبغى التنبيه إلى أن ما فعله بشار وغيره فى هذا المضمار قد كان إرهاساً بما جاء الرمزيسون فى العصر الحديث وصنعه مما عُرف بـ « تراسل الحواس » .

ويركز د. عبد الفتاح صالح نافع فى مناقشته رأى د. نجيب البهيتى على مسألة الغموض الذى رمى به شعر بشار هذا ، مؤكداً أن الغموض ليس عيباً فى الشعر وأن كثيراً من المبصرين قد آثروه على الوضوح (٤) ، وكان هذا اللون من التشبيه عند بشار غامض فعلاً ، مع أنه يخلو من ذلك . إنه طريقة جديدة فى التشبيه ، ولكنها ليست غامضة .

على أية حال ، هذه هى الأبيات التى شبه فيها شاعرنا الأصوات المسموعة بأشياء مُبْصَرَة أو مشمومة أو مذوقة :

وحديث كأنه قطع الروى ضي زهته الصفراء والحمراء (٥)

* * *

- مصوّرة يحار الطرف فيها كأن حديثها سُكَّرُ الشَّرَابِ (٦)
* * *
- بـدلالٍ وحديثٍ مثل توير الثباتِ (٧)
* * *
- لها منطلقٌ قاخرٌ فاتنٌ كحلى العرائس يُسْتَمَلِّحُ (٨)
* * *
- كأن لسانا ساحرا فى لسانها أُعِينَ بصوتِ كالْفِرْنِدِ حديدِ
كأن رياضاً فرقت فى حديثها على أنْ بَدَاَ بعضُه كِبْرُودِ (٩)
* * *
- كالحلّى حُسنٌ حديثها ودلالها إحدى المصايدِ (١٠)
* * *
- ولها مضحكٌ كَفَرَّ الأَفاحى وحديثٌ كالوشى وشى البُرُودِ (١١)
* * *
- يساقطن للزير الموكّل بالصبا حديثا كوشى البُرْدِ يَغْرِين فى الوَرْدِ (١٢)
* * *
- فبتّ أبكى من حب جاريدٍ لم تجزنى نائلا ولم تكبِدِ
إلا حديثا كالخمر لذته تكون سكرًا فى الروح والجَسَدِ (١٣)
* * *
- أُعْيِدُ ، هلا تذكيرن فتى تيمّته بحديثك السَّحَرِ (١٤)
* * *
- وما قولك لى : « أَرْضِيـ » إلا سُكَّرٌ مُسْكِرٌ (١٥)
* * *
- وكان رجوع حديثها قطعُ الرياض كَسِينِ زَهْرًا (١٦)
* * *

وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا (١٧)

* * *

كان كلامه يسوم التقينا رقي يأخذن في طول وعرض (١٨)

* * *

جرى اللؤلؤ المكنون فوق لسانها لزوارها من مزهر ويراغ (١٩)

* * *

وانا ليجرى بيننا حين نلتقى حديث له وشى كوشى المطارف (٢٠)

* * *

ويكر كنوار الربيع حديثها تروق بوجه واضح وقوام (٢١)

* * *

ودعجاء المحاجر من معد كان حديثها ثم الجنان (٢٢)

وبالنسبة لتشبيهه بشار صوت المرأة بقطع الرياض يقول د. عبد الفتاح صالح نافع إنه « كان أول من اتجه إلى تصوير حديث المرأة بقطع الرياض المتنوعة الأزهار والنوار » (٢٣) .

الهوامش

- ١- شخصية بشار / ٢٤٢ - ٢٤٤ .
٢- د . نجيب الیهبیتی / تاریخ الشعر العربی حتی آخر القرن الثالث الهجری / ٣٥٦ -

٣٥٧

- ٣- السابق / ٣٥٩ .
٤- انظر كتابه « الصورة فی شعر بشار بن برد » / ١٩٣ - ١٩٤ .
٥- ١ / ١١٩ .
٦- ١ / ٢٤٩ .
٧- ٢ / ٣٨ .
٨- ٢ / ١٠٨ .
٩- ٢ / ١٦٠ .
١٠- ١٢ / ٥٤٥ .
١١- ٢ / ٢٧٢ .
١٢- ٣ / ٩ .
١٣- ٣ / ٦٦ .
١٤- ٣ / ٢٢٥ .
١٥- ٣ / ٣٠٤ .
١٦- ٤ / ٥٥ .
١٧- ٤ / ٥٦ .
١٨- ٤ / ٩٤ .
١٩- ٤ / ٩٤ .
٢٠- ٤ / ١٠٧ .
٢١- ٤ / ١٨٣ .
٢٢- ٤ / ١٩٨ .

٢٣- د . عبد الفتاح صالح نافع / الصورة في شعر بشار بن برد / ١٩١ .

تشبيه الحبيبة بالشمس والقمر

يكثر فى الشعر العربى القديم تشبيه الحبيبة فى جمالها و سطوع بهائها بالشمس والقمر . وهذا أمر من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى إيراد الشواهد عليه . ويكثر ذلك أيضا عند بشار ، الذى لا يمتاز فيه بشيء ، فصوره فاترة ليس فيها حيوية ولا تقدم جديدا . وإليك بعضا منها :

لا ، بل هى الشمس أتبحت لنا وسواس همّ زَعَمَ الناسِبُ (١)

* * *

صورة الشمس فى قناع فتاة عرضت لى فليس أُنَى يُلْمِبُ (٢)

* * *

أهو الحبيب بدا لعينك أم دنت شمس النهار إليك فى جلبابِه (٣)

* * *

وصورة الشمس جلت عن وجهها بعد عيني جؤذُر فى المُتَقَبِ (٤)

* * *

كالبدر فى العين إذا عطلت وفى المُحَلَى كالمحلّ القشيبِ (٥)

* * *

قمر الليل إذا ما انتقبت وهى كالشمس إذا لم تتقِبِ (٦)

* * *

فقلت لنفسي : الشمس جلت لناظر أم البدر يُجَلَى فى قناع فتاة ؟ (٧)

* * *

وما صدقت رؤياى يَحْفُقَنَّ مركبا وفى المركب المحفوف بدرّ متوجّ (٨)

* * *

إلا تكن قمر السماء فإنها مثل المريرة تُعجب الروادا (٩)

* * *

هي بدر السماء ، لا بل هي الشمس تدلّت في مُذَهَبٍ وَجِسَادٍ (١٠)

* * *

فأدرك مجلودى جوى الحبّ كاعببُ كشمس الضحى فى الفانقات الخرائدِ (١١)

* * *

فقلتُ : شمس الضحى فى مِرْطُ جارِيَةٍ يا من رأى الشمس فى مِرْطٍ وَأَبْرَادٍ ؟ (١٢)

* * *

مصورة فيها على للعين فلتنةً وكالشمس تمشى فى الوشاح وفى العِقْدِ (١٣)

* * *

خليفةُ الشمس ، تكفى الحى غيبتهَا كأنما صاغها الخلاقُ من نُورِ (١٤)

* * *

وكانهنَّ أهلُ نةً تحت الثياب رَقَقْنَ شمساً (١٥)

* * *

أتنى الشمس زائرةً ولم تك تيرح الفلكا (١٦)

الهوامش

- ٢٢٦ / ١ -
- ٢٢٧ / ١ -
- ٢٢٨ / ١ -
- ٢٥٠ / ١ -
- ٢٦١ / ١ -
- ٢٦٢ / ١ -
- ٤٢ / ٢ -
- ٩٥ / ٢ -
- ١٦٨ / ٢ -
- ١٧١ / ٢ -
- ٢٦٢ / ٢ -
- ٢٦٩ / ٢ -
- ٨ / ٢ -
- ٢٦٩ / ٢ -
- ٨٢ / ٢ -
- ١٢٢ / ٤ -

إضاءة الحبيبة الظلام بنور جمالها

تكرر في الشعر العربي وصف المرأة الجميلة بأنها تضيء الظلام ببهائها وروقتها ونور جمالها . ومن هذا قول امرئ القيس في معلقته :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُنسى راهبٍ متبتلٍ
وقول النابغة الجعدي في ابتسامه صاحبه :

إذا تبسمت في الليل والليل دونها أضاء دُجى الليل بهيم ابتسامها
وقول عمر بن أبي ربيعة :

خودٌ تضيء ظلام البيت صورتها كما يضيء ظلام الحنود القمر
وقول كثير عزة :

يقول العدا يا عزّ : قد حال دونكم شجاع على ظهر الطريق مصمّم
فقلت لها : والله لو كان دونكم جهنم ما راعت فؤادي جهنم
وكيف يروع القلب يا عزّ رائحٌ ووجهك في الظماء للشمس معلّم ؟
وقول الأحوص :

رام قلبى السلو عن أسماء وتعرّى ، وما به من عزاء
سُخنة في الشتاء ، باردة الصيد يف ، سراج في الليلة الظلماء
ويقول بشار :

خود إذا جنح الظلام فإنها تكفى الموانس فقدة المصباح (١)

* * *

لست أنسى غداة قامت تهادى للمصلى فطار قلبى وطاحا
في نساء إذا أردن ضياء لظلام جعلنها مصباحا
فأضاءت لهن داجية الليل بل ، وجلت عما تجنّ الوحاحا (٢)

* * *

تسرّ عيناً ، وتلقى الشمس غيبتها كأنما خلقت من ضوء مصباح (٣)

* * *

وكيف لا يصبو إلى غادة تكفيك في الظلماء مصباحا ؟ (٤)

* * *

ذكرك البدرُ وجهها فتلا : لله وجه العبيب مصباحا ! (٥)

* * *

تزين بخلقِ وجهها ويزنُّه أغرُّ كمصباح الظلام وبيدُ (٦)

* * *

الهوامش

- ١-٢ / ١١٧ . وقد تكرر هذا البيت بنصه في ٢ / ١٢٨ .
- ٢-٢ / ١٢٨ .
- ٣-٢ / ١٢٥ .
- ٤-٢ / ١٥١ .
- ٥-٢ / ١٥٤ .
- ٦-٢ / ١٦٣ .

ترف حبيباته

يحرص كثير من الشعراء المحبين على إبراز الترف الذى تعيش فيه صواحبهن ،
إذ المرأة المترفة أكثر جاذبية وأشد استشارة لشعور التحدى ولذة الظفر عند المحب ، لأن
الغنى والترف يمثلان عقبة كأداة فى سبيله ، فإذا انتصر عليها شعر بالفخر والعزة
يملأن كيانه . قال امرؤ القيس :

نقوم الضحا جادت برتبا القرنفل

وقال المرقش الأكبر :

أوانس لا تروح ولا تروود

نواعم لا تعالج بؤس عيش

وقال عدى بن زيد :

دمى شقيقات بالعبير روادعا

بنات كرام لم يترن بضرة

وقال المنقل الشكرى :

ة الغدر فى اليوم المطير

ولقد دخلت على الفتا

فل فى الدمقس وفى الحرير

الكاعب الحسناء ترز

وقال حميد بن ثور الهلالى :

وبين أب بر أطاع وأكرما

من البيض ، عاشت بين أم عزيزة

على جلدها بهت مدارجه دما

منعمة ، لو يصبح الذر ساريا

وقال عمر :

وربان ملتف الحدائق أخضر

وأعجبها من عيشها ظل غرفة

فليست لشيء آخر الليل تنهر

روال كفاها كل شيء يهها

وقال أيضا :

غلى عجل تباعها والخوادم

ومد عليها السجف يوم لقيتها

عشية راحت كفها والمعاصم

فلم أستطعها ، غير أن قد بدا لنا

عصاها ، ووجه لم تلح السانم

معاصم لم تضرب على البهم فى الضحا

وقال :

يا بنت خير الملوك مأثرةً لينى لذى حاجة ومرتقب

وقال جميل :

يكاد فبيض الماء يخدش جلدها إذا اغتسلت بالماء ، من رقة الجلدِ

وقال أيضا :

إذا حميت شمس النار اتقيتها بأكسية الدياج والخزّ ذى الغمّلِ

وقد قيل عن بشار إن صواجه كنّ من الجوارى والقيان اللائى لا يحفلن بشيء

غير التهتك الجسدى والشهوة . ولكن شعره حريص على أن يبين لنا أنهم من النساء

المرتفات ممن يعشن فى القصور وتقوم على خدمتهن الوصائف ويخطرن فى الشياب

الحريرية النفيسة . لا ، بل إنه قد ذكر إحدى حبيباته بوصفها من بنات الملوك . ما

مدى صدق بشار فى ذلك ؟ الله أعلم . غير أننا هنا إنما نتحدث عما يقوله فى

شعره . وهذا هو ما يقول :

من بنات الملوك لا ... ناهيا إلى العلاء العلاء (١)

* * *

فى القصر ذى الشرفات البيض جارية ربّنا الترائب والأرداف والقُصْبِ (٢)

* * *

رحتُ فى حبهها وراحت دُوارا بين أترابها عليها الحجابُ

فى جنانِ خضبرٍ وقصرٍ مشيدٍ قيصريّ حَفَّتْ به الأعنابُ (٣)

* * *

لها تصفّاتٌ حولها يستلمنها كما استلم الركنَ التواسكُ بالراح (٤)

* * *

قالت لسعدى وأخرى من مناصفها : ما حاج هذا وقد خيلتُه هجدا ؟ (٥)

* * *

أينسّ الووفّ للحجبا ل ، ودوننه قصّر مشيدُ

مَنْ حَرَّاسُهُ وَيَابِسُهُ أَسَدٌ مَرِيدُ (٦)

* * *

قَالَتْ لِحَوْرَاءَ مِنْ مَنَاصِفِهَا كَالرِّيمِ لَمْ تَكْتَمِلِ مِنَ الرُّمْدِ : (٧)

* * *

سَبَّحَ خَلِيلِي ، وَقُلْ : يَا حَسَنَ تَصْوِيرِ ! رَاحَتِ سُلَيْمَى تَهَادَى فِي الْمَقَاصِيرِ (٨)

* * *

وَتَقْلِيْبِنِ وَأَنْتِ لَاهِيْبَةٌ فِي الْخَزْرِ وَالْقُوْهِىِّ وَالْعَطْرِ (٩)

الهوامش

- ١- ١ / ١١٦ .
- ٢- ١ / ٢٦٣ .
- ٣- ١ / ٣٣٤ .
- ٤- ٢ / ١٢٠ . والتَّصَفَات : الخدم .
- ٥- ٢ / ١٩٢ . والمناصف : الخدم .
- ٦- ٢ / ٢١٤ .
- ٧- ٣ / ٦ .
- ٨- ٣ / ٢٢٠ .
- ٩- ٣ / ٢٢٥ .

تصوير الحبيبة بين صواحبها وخوادمها

من بين ما تكرر عند الشعراء الغزليين العرب القدامى ، فى مجال وصف الحبيبة ، تصويرها وهى بين صواحبها أو خوادمها . فالشاعر فى هذه الحالة لا يصور حبيبته مفردة ، بل يأخذ لها صورة جماعية هى واسطة العقد فيها ، وكأنه يريد أن يبرز جمالها وسط الأخريات اللاتى يزدنها بجمالهن جمالا فوق جمال . قال عدى بن الرقاع :

لولا الحياء وأن رأسى قد عشا
وكأنها وسط النساء أعارها
ومن شعر عمر بن أبى ربيعة :

صاد قلبى اليوم ظبى
فى ظباء تهادى
إنتى لست بناس
ذلك الظبى حياتى

* * *

فعاجت بأمثال الظباء نواعم
فقالت لأتراب لها شبّه الدمى :
وقالت لهن : ارجعن شيئا ، لعلنا

* * *

أبرزوها مثل المهاة تهادى
بين خمس كواعب أتراب

* * *

فقامت إليها حرتان عليهما
كسأمان من خرّ دمعس وأخضر

* * *

فترامت حتى إذا جئن قلبى
سترتها ولائد بالثياب

ويقول الوليد بن يزيد :

بسرزت كالهلال فى
بين خميس كواعب
ليلة غاب نَحْمُها
أَكْرَمُ الخمس جنسُها

* * *

قد كنتُ أحسب أنتى جلدُ القوى
يرفلن فى وشى البرود عشية
حتى رايت كواعباً اثربا
مثل الطباء وقد مُثِنَ شبايا
قرتن حوراء المدامع طفلةً
أرثتن من عجب بها إربا
تلك التى لاشك حقا أنها
خُلقت لِحَيْبِكَ فتنةً وعذابا
ويقول العباس بن الأحنف :

كأنها حين تمشى فى وصائفها
ويقول شاعرنا عازفا على نفس الوتر :

عشية قامت بالوصيد تعرّضا
وقام ناء دونها وإماء (١)

* * *

تمشى الهوينى بين نسوتها
مَشَى التزيف صَفَّتْ مشارفُ (٢)

* * *

وما صدقت رؤىا يحفن مركبا
وفى المركب المحفوف بدرّ متوجّ (٣)

* * *

لها نَصَفات حولها يستلمنها
كما استلم الركنَ النواسكُ بالراح (٤)

* * *

قالت لسعدى وأخرى من مناصفها:
ما حاج هذا وقد خيلته هجدا ؟ (٥)

* * *

عقيلة أتراب يُقَوِّمن حولها
إذا رُحِنَ أمثال النصوص الموائد (٦)

* * *

لَمَّا طلعتن حفننها
وأصحن ، ما يهمن هسا (٧)

الهوامش

. ١٢٦ / ١ -١

. ٢١٩ / ١ -٢

. ٩٥ / ٢ -٣

. ١٢٠ / ٢ -٤ . والتَّصَنَّفَات : الخدم .

. ١٩٢ / ٢ -٥ . والمَنَاصِف : الخدم .

. ٢١٠ / ٢ -٦

. ٨٣ / ٤ -٧

لا هى إنسيه ولا هى جنية

ذكر بشار أكثر من مرة فى شعره أن صاحبه لا تنتمى إلى الإنس ولا إلى الجن . يقصد أنها خلق خاص نسيج وحده ، فهى لا يشبهها أحد فى جمالها وجاذبيتها :

ليست من الإنس ، وإن قلتها ، « جنية » قيل : الفنى كاذبُ (١)

* * *

جنية الحسن ، لا بل فى مجاسدها ما لم تر العين بين الجن والبشر (٢)

* * *

جنية إنسيه أو يبين ذلك أجملُ أمرا (٣)
وقد ورد هذا المعنى أيضًا عند الشاعر فى البيت التالى ، وهو ليس من الشعر الغزلى ، بل فى وصف هاتف من الهواتف الذين كان العرب يعتقدون أنهم يسكنون الغلوات :

هو الخنف لا إنس ولا نجلُ جنية يعيش ولا يفذوه أم ولا أبُ (٤)

وقد جاء هذا المعنى فى البيت التالى للعباس بن الأحنف :

ليست من الإنس إلا فى مناسبة ولا من الجن إلا فى التصاوير

الهوامش

- ١-١ / ٢٢٦ .
- ٢-٢ / ٢٤٦ .
- ٣-٣ / ٥٦ .
- ٤-١ / ٢٩٩ . والمقصود بالخنّف هاتف الفلاة التي كان الشاعر يقطعها .

تهييج الحمام لأشجانه

هذا معنى تعاوره الشعراء العرب . وهو من الشهرة بحيث إننا لسنا فى حاجة إلى الاستشهاد عليه بأقوالهم . وقد كرره بشار فى أشعاره تكريرا ملحوظا . وهذه أمثلة على ذلك :

- طرب الحمامُ فهاج لى طربا رُبما يكون تذكّرى نَصَبَا (١)
* * *
- لولا الحمام وطيف جاريت ما شفنى حبة ولا كَرَبَا (٢)
* * *
- لا غَرَوُ إلا حَمَامٌ فى مساكنهم يدعو هديلاً فيستغرى به الطَّرَبُ (٣)
* * *
- وقد زادنى شوقا هديلاً حمامة على إلفها تبكى له وتُطَرَّبُ (٤)
* * *
- إذا شئتُ أبكاني الحمامُ بصوته وهاج على الشوقَ طولَ سياتى (٥)
* * *
- فلمستُ يسألِ ما تفتت حمامة وما شاق رهبانَ التصارى مسيحها (٦)
* * *
- فلمستُ براجع ما حن إليهم وما عتف الحمامُ ببطن واد (٧)
* * *
- وذكّرنى الحمامُ فراقَ إلفي على الروحاء ليس له مَعَاذُ (٨)

الهوامش

- ١- ١ / ١٧٥ .
- ٢- ١ / ١٧٦ .
- ٣- ١ / ٢٣٠ .
- ٤- ١ / ٣٤١ .
- ٥- ٢ / ٤٤ .
- ٦- ٢ / ١٤٣ .
- ٧- ٣ / ٢٤ .
- ٨- ٣ / ٥١ .

هاروت وماروت

كرّر بشار هذين الاسمين في شعره الغزلي مرتبطين بما هو معروف عنهما من

السحر :

لو قدرنا على رقى سحر هاروت طلبنا الوصال بالتنحيب (١)

* * *

كأنه هاروت يوم اغتدى يدير عينيه بتقليب (٢)

* * *

وإن أقبلت فالعيننا ن هاروت وماروت (٣)

* * *

فكأن ما سعت له بخديتها هاروت يسلب مقاتيه رقادا (٤)

* * *

كأن قلبي إذا ذكراكمو عرضت من سحر هاروت أو ماروت في عقدي (٥)

* * *

وكنان تحست لسانها هاروت ينفست فيه سحرا (٦)

وفي كتاب « الصورة في شعر بشار بن برد » للدكتور عبدالفتاح صالح نافع ،

تعليقًا على البيت الأخير ، أن « هاروت يُضرب به المثل وينسب إليه السحر دون

صاحبه ماروت » (٧) . لكنّ هاهو ذا بشار في شاهدين على الأقلّ يذكر ماروت أيضا

ولا يكتفى بهاروت وحده ، علاوة على أنهما قد ذُكرا في القرآن معًا وفي سياق حديثه

عن السحر والسحرة (٨) .

الهوامش

- ١- ١ / ٢٧١ .
- ٢- ١ / ٣٧٠ . والبيت في وصف غلام اتهم به بشارّ حمادا .
- ٣- ٢ / ٢١ .
- ٤- ٢ / ١٦٩ .
- ٥- ٢ / ٣١٦ .
- ٦- ٤ / ٥٦ .
- ٧- الصورة في شعر بشار بن برد / ١٩٥ .
- ٨- البقرة / ١٠٢ .

الرسول بينه وبين صواحيبه

يذكر صاحب « الأغانى » أن مصعباً عم الزبير بن بكار قد خلع على ابن أبى ربيعة الريادة فى وصف الرسل بينه وبين صواحيبه (١) . والحقُّ أنه يكثر فى شعر عمر ذلك . لكنَّ سحيماً عبد بنى الحسحاس قد ذكر الرسل فى شعره قبله (٢) . بل إن لعنترة أبياتاً قص فيها كيف أنه أرسل جاريته لتحسّس له من أخبار حبيبته ، وإن لم يذكر أنه بعثها برسالة منه إلى تلك الحبيبة . قال :

يا شاة ماقتنص لمن حلّت له حرّمت علىّ ، وليتها لم تحرّم
فبعثت جارىتى فقلت لها : اذهبى فتحسسى أخبارها لى واعلمى
قالت : رأيت من الأعادى غرة والشاة ممكنة لمن هو مرّتكم

ولكثير ، وهو معاصر لعمر بن أبى ربيعة وجميل ، الأبيات التالية فى رسالة بعثه بها جميل إلى صاحبتة بثينة ، ولكنه تظاهر بأن الكلام موجه إلى عزة صاحبتة هو :

فقلت لها : يا عزّ ، أرسل صاحبى إليك رسولاً ، والموكل مرسل
بأن تجعلى بينى وبينك موعداً وأن تأمرنى : ما الذى فيه أفعل ؟
وأخر عهدى منك يوم لقيتبنى بأسفل وادى الدؤم والثوب يُفمّل
وللفرزدق يذكر هو أيضاً رسولاً :
فأبلغهن وحى القول عنى وأدخل رأسه تحت القرام

...

فقلن له : نواعسك الثرّيا وذاك إليه مجتمع الزحام
ثلاث واثنتان ، فهنّ خمّن وسادسة تميل إلى الشّمام
وقد ذكر بشار كذلك فى شعره الرسول فقال :

وأما يأم محمد ورسولها ورقاد قيمها وسكر الحاجب (٣)

* * *

إن الرسول الذى أرسلت غادرنى بَغَلَّةٌ مِنْكَ مِثْلَ حَرِّ النَّارِ مَشْبُوبٍ (٤)

* * *

أيها الناصح الرسول إليها ، قَلْ لَهَا عَنِ مَتِّمِ الْقَلْبِ صَبَةٌ (٥)

* * *

ورسولاً بات يسرى فى هواكم بالكتتابِ (٦)

* * *

لقد أرسلت صفراءُ نحوى رسولها لتجعلنى صفراءُ ممن أضلَّتِ (٧)

* * *

كيف لم تذكرى الرسول إلينا وقعودى إليك أرمى الصباحا ؟ (٨)

* * *

لا عهد لى بالرسول يخبرنى عنها ، فنفسى من ذلك تستعِرُ (٩)

بشار إذن فى ذكر الرسول فى شعره يجرى على تقليد شعرى موجود على الأقل

عند سحيم صاحب الشعر الشهبانى وابن أبى ربيعة اللاهى المعجب بنفسه ، وجميل

بشينة المحب العنرى ، والفرزدق شاعر المدح والفخر . وليس صحيحاً من ثم أن شاعرنا

فى هذا التقليد قد تأثر بالشعراء العنريين وحدهم كما يرى د. عبد الفتاح صالح

نافع (١٠) .

الهوامش

- ١- انظر « الأغاني » / مؤسسة جمال للطباعة والنشر / بيروت / ١ / ١٢٠ .
- ٢- انظر ديوانه / ١٩ .
- ٣- ١ / ١٦٧ .
- ٤- ١ / ١٩٤ .
- ٥- ١ / ٢٦٧ .
- ٦- ١ / ٢٧٣ .
- ٧- ٢ / ١٠ .
- ٨- ٢ / ١٢٦ .
- ٩- ٣ / ٢٦٤ .
- ١٠- انظر كتابه « الصورة في شعر بشار بن برد » / ٢٤٦ .

الرسالة الشعرية عند بشار

يفهم من كلام د. مصطفى الشكعة أن قيام الرسائل والكتب بدور بين العاشقين في الشعر الغزلي هو ظاهرة جديدة في العصر العباسي تابعة لإجادة المرأة القراءة والكتابة ، وأن العباس بن الأحنف هو الحصان المجلي في ذلك (١) . كما ذكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مقدمة ديوان بشار أن بشارا هو أول من نظم الشعر على طريقة المراسلة ، وذلك في رسالة شعرية بعث بها إلى عبدة ، ومطلعها :

من المشهور بالحبِّ إلى قاسية القلبِ
سلام الله ذى العرش على وجهك يا حبّسى
فأما بعد يا قرَّ عيني ومئسى قلبى
... إلخ (٢) .

وقد أكد د. محمد النويهي ما قاله الشيخ ابن عاشور ، إذ جاء في كتابه « شخصية بشار » عن الأبيات السالفة الموجهة إلى عبدة : « في هذه المقطوعة يخترع (بشار) فنا تام الجودة ، هو فن المراسلة الشعرية » (٣) .

والحقيقة أنه لا أحد يستطيع أن يشاح في أن بشاراً قد نظم الرسالة الشعرية متمثلة في هذه الأبيات المطربة الجميلة ، بل تزيد على ذلك أن له أكثر من رسالة شعرية أخرى منه إلى حبيبته أو إلى قومها أو منها إليه . بيد أننا لا نستطيع مشاركة هؤلاء الأساتذة الكرام ، رغم احترامنا لهم ، في القول بأن بشارا أو العباس هو رائد هذا الفن الشعرى . لقد عرف ابن أبى ربيعة الرسالة الشعرية الغزلية قبل بشار بزمن طويل . ومن ذلك رسالة كان قد أرسلها مع أمية له وأمرها بتوصيلها إلى كلثم بنت سعد المخزومية ، التى انتهى أمره معها بالزواج . وهذا مطلع الرسالة :

من عاشق صبِّ يُسرُّ الهوى قد شَفَّه الوجدُ إلى كلِّثم
رأتكِ عيني فدعاني الهوى إليك للحنين ولم أعلم

قَتَلْتِنَا ، يَا حَبِذَا أَنْتَمُو ! فِى غَيْرِ مَا جَرِمَ وَلَا مَأْتَمِ
وفيهما يقول :

وجالسينى مجلساً واحداً من غير عارٍ ولا محرمٍ
ومن رسائله أيضا الرسالة الآتية ، وهى أطول من تلك كثيرا ، وتبدأ بقوله :
باسم الاله تحيةً لتييم تُهْدَى إِلَى حَسَنِ الْقَوَامِ مَكْرَمِ
وصحيفة ضمنتها بأمانة عند الرحيل ، إليك ، أُمُّ الْهَيْثَمِ
فيها التحية والسلام ورحمة حَفَّ الدَّمُوعُ كِتَابَيْهَا بِالْمَعْجَمِ
من عاشق كلف يئوه بذنبه صَبَّ الْفَسَادُ مَعَاقِبِي لَمْ يَظْلَمِ
...

يشكو إليك بعبرة ويقول : ويقول : أَمَا إِذَا مَلَكَتِ فَأَتَعِمِّي
... الخ .

هذا من حيث الرسالة الشعرية الغزلية . وقد يكون هناك من سبق عمر إلى ذلك . أمّا بالنسبة إلى الرسالة الشعرية بوجه عام فقد عرفها الشعر الجاهلى . ولا أستشهد بأكثر من قصيدة لقيط بن يعمر الإيادى ، الذى كان كسرى ينوى غزو قومه فأرسل هو إليهم رسالة شعرية يحذرهم فيها من ذلك الغزو ، وينصحهم بالاستعداد للحرب . وفيها يقول :

سلام فى الصحيفة من لقيطٍ إلى من بالجزيرة مسن إيادٍ
بأن الليث كسرى قد أتاكم فلا يَشْغَلْكُمْو سَوْقُ النَّقَادِ
أتاكم منهمو ستون ألفا يَزْجَوْنَ الْكَتَائِبَ كَالْجَرَادِ
على حَقِّ أَتَيْنَكُمُو ، فهذا أَوَانُ هَلَاكِكُمْ كَهَلَاكِ عَادِ
والآن إلى رسائل بشار الشعرية :

١- رسالة مستقلة :

من المشهور بالحبيب إلى قاسية القلبى
سلام الله ذى العرش على وجهك يا حبيى

فأما بعد يا قـر
ويا نفسى التى تكـ
لقد أنكـرتُ يا عبـد
أمن ذنـب ؟ ولا واللـ
ولا والله ما فى الشر
سواك اليوم أهواها
ة عينى ومنسى قلبى
من بين الجنب والجنب
جفاء منك فى الكـتب
ه ما أحدثت من ذنـب
ق من أنسى ولا الغـرب
على جـد ولا لـقب (٤)

* * *

٢- رسالة مع رسول بعد أبيات تمهيدية :

أياها الناصح الرسول إليها
حدثنى فأنت قرة عينى
أهمت دونك الفجاجُ فلا أـ
ما على النوم لو تعرضت فيه
أنا من حبك الضعيف الذى لا
... إلخ القصيدة (٥) .

قل لها عن متيم القلب صبا
هل تحبيننى ؟ فهل نلت حسى ؟
حقى سبيلا إليك فى غير تُرب
فبلوناك فى سخابٍ وأثـب
أستطيع السلو عنك بطـب

* * *

٣- ورسالة أخرى بعد أبيات تمهيدية أيضا :

ودنت فى الكتاب إلى : إنى ،
على ما قد علمت جنون أـمى ،
يفولود « انعمى » ويرو عارا
ومن طرى إلىك خشعت فهم
... إلخ (٦) .

وقيتك ، لو أرى خـلا مضيتُ
وأعـن إخوى منذ ارتديتُ
خروجى إن ركبـتُ وإن مشيتُ
كما يتخـمـع الفرس السـكـيتُ

* * *

٤- ورسالة إلى قبيلة الحبيبة :

من المفتون بشار بن برد
إلى شيبان كهلمو ومـرد

فلن فتاتكم سلبت فزادى فنصفٌ عندها ، والنصف عندي (٧)

* * *

٥- ثم هذا البيت :

لم يكن بينهما وبينى إلا كتب العاشقين والأحلام (٨)

الهوامش

- ١- انظر د . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء في العصر العباسي / ٣٧٦ .
- ٢- انظر مقدمة ديوان بشار / ١ / ٣٩ - ٤٠ .
- ٣- شخصية بشار / ٢٧٩ .
- ٤- ديوان بشار / ١ / ٢٠٦ .
- ٥- ١ / ٢٦٧ - ٢٦٩ .
- ٦- ٢ / ٦ - ٧ .
- ٧- ٤ / ٣٨ .
- ٨- ٤ / ١٧٥ .

القصة العاطفية

القصة العاطفية موجودة في الشعر العربي منذ القديم ، ففي معلقة امرئ القيس مثلاً يحكى لنا الشاعر أكثر من قصة من هذه القصص . وفي لاميته أيضا نراه يقول :

سموتُ إليها بعدما نام أهلها	سموّ حجاب الماء حالاً على حالٍ
فقلت : سباك الله ! إنك فأضحى	ألست ترى السّماتَر والناس أحوالى ؟
فقلتُ : يمين الله أبرح قاعدا	ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفتُ لها بالله حلفة فاجر	لنأثوا فما إن من حديث ولا صالٍ
فلما تازعنا الحديث وأسمحت	هصرتُ بغصن ذى شماريخ مَيّالٍ
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا	ورُضتُ فذَلتُ صعبةً أى إذلالٍ
فأصبحتُ معشوقا وأصبح بعلمها	عليه القتّامُ سىء الظن والبّالٍ
ينط غطيظ البكر شدّ خناقُه	ليقتلنى ، والمرء ليس بقتالٍ
ليقتلنى أنى شغفت فؤادها	كما شغف المهسومة الرجلُ الطالِى
وللأعشى أشياء ، فى ذلك الفنّ .	

ولسُحيمَ عبد بنى الحساس قصيدة قصصية يائبة طويلة ، يُرَجِّعُ إليها فى ديوانه .

وجاء عمر بن أبى ربيعة فتوسّع فى ذلك الضرب من القصص العاطفى حاذياً فى بعض الأحيان حذو امرئ القيس (١) .

ومما للفرزدق فى ذلك السبيل ما حكاه لنا فى رائيته من مغامرة محفوفة بالمخاطر العنيفة انتهت بهذه الأبيات التى تصف كيف خرج من المأزق بعد أن دلته المرأتان ، على ما يقول ، بالحبال من ارتفاع ثمانين قامة :

هما دلتانى من ثمانين قامةً	كما انقضّ بازٍ أتمم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض نادتا :	أحبا يُرَجِّى أم قتيلاً نحاذره ؟

فقلت : ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا
 وأصاحتُ فى القوم الجلوس ، وأصاحتُ
 ومأذرتُ فى أعجاز ليل أبادره
 مفلتةً دونى عليها دساكره
 ولبشار مشاركة فى هذا الفنّ ، فإنك تجد له بعض القصص العاطفية متضمنةً
 فى ثنايا قصائده (٢) ، إلى جانب الرائية المشهورة التى استوقفت أنظار النقاد
 والدارسين ، وأولها :

قد لامنى فى خليلتى عَمْرُ
 واللوم فى غير كنهه ضَجَرُ
 والذى يصف فيها ما دار بينه وبين صاحبتَه من غمز وعض وقرص مما أهاج الدنيا
 عليه ، مع أنها أقلّ فى الفحش من شعرٍ كثيرٍ لغيره من الشعراء ، وإن كان الحق
 يقتضى أن نقول إنها مع ذلك توحى بجو شديد الإثم والفجور .

ومن هذا الشعر البشارى أيضا قوله :

وليلة خرطوم وصلتُ نعيمها
 بحوراء تستحى إذا لم تَحْرِجْ
 لبأخية الأرداف ، لم تَرَعْ ثلثةً
 بفسى ولم تركب بغيرا بهودج
 وبيضاء يندى خدها وجبينها
 من المسك فوق المجمعر المتأجج
 فباتت مزاج الكأس حتى تبينت
 تباشير منشقّ عن الصبح أبلج
 فلما دنا وجه الوداع تفجعتُ
 على ليلة طابت وسرّ مؤلج
 وقالت لتربها : « ابكيا » ، وترقرقت
 مدامع عينها تخاف وترتجى
 فيا حسنها إذ نلتقى بمهايل
 مجيئين فى بحر من الحب نلتجى !
 ليالى قالت : أنت غادِ ضحاً غدٍ
 ونيقى على شوق إليك وتَشَجِج
 هناك التقينا تحت عَيْنٍ مطيرةٍ
 وريانُ ملقى كالحمار المسودج
 فبتَ ييدر يملأ العين نورهُ
 هضيم الحشا فى الزعفران مضجج
 إذا أحرقتنى الكأس داويتُ حرّها
 بمنلوجة فى نظم دُرّ مفلجج

وفى قصة أخرى من هذا النوع نراه يدعى أنه ارتقى إلى صاحبتَه فى غرفة
 مشيدة سحيقة الارتفاع تكاد تبلغ عنان السماء :

فأرسلتُ حين كلّ الطرف : إنهمو
 قد نؤموا ، فأتنا إن كنتَ مُفْتَأدا

...

ولم أدع زينة حتى لست لها من الجديد لكى ألميم بهن غدا

...

حتى ارتقيت إليها فى مشيئة دون السماء تناغى ظلها صعدا
ورغم ذلك فإنه حريص على أن يؤكد أنه لم ينل منها شيئا . إنما هو العتاب والشكوى
لا غير .

غاب القذى فشرنا صفو ليلتنا حيين نلهو ونخشى الواحد الصمدا

الهوامش

- ١- انظر في ذلك د. محمد عبد العزيز الكفراوى / الشعر العربى بين الجمود والتطور / دار نهضة مصر / القاهرة / ط ٢ / ٥٧ - ٥٨ .
- ٢- انظر مثلاً الديوان / ١ / ٢٦٣ - ٢٦٤ ، و ٢ / ٨٠ وما بعدها ، و ٢ / ١٩٥ ، و ٢ / ٣٢٩ حيث تبدأ القصة من رابع بيت فى القصيدة .

الحوار

ومن عناصر الفن القصصى الحوار . وهذه بعض أمثلة على هذا العنصر من شعر شاعرنا ، ومنها يتضح أن بشاراً لم يكن دائماً بارعاً فى إدارة دفة الحوار فى قصصه :

فأذكرى حلفتى : أقاربُ أخرى يوم زكّى تلك اليمينَ البكاءُ

...

فتصدت بعد الصدود وقالت : قتلتنى أنفاسك الصعداءُ
قلتُ : نفسى الفدا . على عادةٍ منى سى جرى ما جرى ، وقلبى براءُ
فاعدرنى ، يا شقة النفس ، إنسى تبتُ مما مضى وعندى وفاءُ (١)

* * *

وقائلج : إن متّ نسى طلب الصبا فلابدّ أن تُحصى عليك ذنوبُ
فَرُمُ توبة قبل الممات ، فإتنى أخاف عليك الله حين تزوب

...

فقلت لها : لم أجن فى الحب بيننا أئاما على نفسٍ ، فمتم أتوب ؟ (٢)

* * *

وقائل إذ رأى شوقى وصفحكمو : دعها ، فما لك منها غير تصيبِ
لا شىء أبعد مما لست نائله إن البخيل بعيدٌ غير مقروب
فقلت : كلا ، سيجزى من له كرم شوقا بشوق وتقريرا بتقريبِ (٣)

* * *

وتقول : اتقيتَ فينا أناسا لم أكن أتقيهمو فى العُروبِ
لا ، ومن سبّح العجيج له ، ما كان ظنى اتقاء عين الرقيب
غير أن الإمام أسكنى عنى لك ، فقولى : فى ذنوبه لا ذنوبى (٤)

* * *

قلت لَمّا برّحتُ بى : لم يكن هذا احتسابى

حيث أرجوكم فسُمَّتُمْ
ليتني قبل هواكم
زوركهم سوطاً عذاب
كنتُ في بطن التراب
فبكت هنداً وقالت :

* * *

ولا أنسى غداةً بكت وقالت :
فقلت لها : الرواحُ بذاك أحجى
أتندو أم تروح من السروح ؟
وأقرب بالمحب من الصباح (٦)

* * *

قالت لحوراء من مناصفها
روحى إلى مشرك بخلتينا
كالريم لم تكتمل من الرَّمْدِ
خُلَّةَ أخرى ، وقد يرى كمدى
قولى : تقول التى أسأت لها
إن لم أنلها ما شيمتى يرد
قصرتُ طرفى إليك فأنعم
وأنت ذو طُرَيْين فى وِردٍ

...

فقلت : لا تسرعى بمعبدة
لا كنتُ إن لم أكن أحبكمو
فى غير ذنب جنيته يدي
جهدى . فما بعد حب مجتهد ؟
أى حديث دبة الوشاة به
أصرتُ غيى ، فأبصرى رشدى
لم تلق روحى ووافقى جسدى
ما كان إلا حديث جاريد

...

قد تبتُ مما كرهتِ ، فاحتسبى
غفران ما قد جنيتُ معتمدى (٧)

الهوامش

- ١-١ / ١١٥ - ١١٦ .
- ١-٢ / ١٨٠ .
- ١-٣ / ١٩٦ .
- ١-٤ / ١٩٨ .
- ١-٥ / ٢٧٤ .
- ٢-٦ / ١١٣ .
- ٣-٧ / ٧ - ٦ .

الفحش والبعة والخمر فى غزل بشار

الفحش الصريح فى غزل بشار قليل . وهذا ما وجدته له من ذلك :

ألا يا طيباً ، قد طيّبتِ وما طيّبك الطيبُ
ولكن نَفَسٌ منك إذا ضمّك تقربُ
وثقيرٌ بارداً عذب جرى فيه الأعاجيبُ

...

وشىء يبين فغذيبن كعقب الشربِ مكجوبُ (١)

* * *

عَجِلُ الركبِ إذا اعتراه نافض فاذا أفاق فليس بالركابِ
وتراه بعد ثلاث عشرة قائما مثل المؤذن شك يوم سحابِ
يتنفس الصعداء عند مراسلٍ ويكاد يخلع جلده لِكَعابِ (٢)

* * *

عجزاء من سرب بنى مالك لها حرّ من بطنها أرقعُ
زُمن أعلاه بإشراقه وانضمّ من أسفله المشرعُ (٣)

* * *

ويحها كاعبا تُدِلّ بجهم كَعَتْرِيٌّ كأنه حمامُ (٤)

وهو فى الحقيقة على قلته يدل على سخف كثير كان فى بشار . وعلى أية حال ، فالفحش فى الشعر العربى قديم . ومن أولئك الشعراء الذين اشتهروا به امرؤ القيس فى معلته وغير معلته ، والنابغة فى قصيدته فى المتجرده بأبياتها العارية تماماً ، وسُحَيْمٌ عبد بنى الحساس فى يائيته بالذات ، وابن قيس الرقيات فى منامه الذى ادعى أنه حلم فيه بإحدى نساء البيت الأموى وعبث بها ونال منها بما يريد ، والفرزدق ... وغيرهم كثير .

على أن الجانب المفحش فى شعر بشار ليس إلّا وجهًا واحدًا . والوجه الآخر هو

وجه العفة ، التى يصرّ فى كثير من شعره على أنه هو وحببيته كانا حريصين على التزامها فلم يأتيها ما يسىء ، مما يدل على أن الذين هاجموه واتهموه بالفحش والإسراف فيه والحرص على تصوير التفاصيل الفاجرة وادعوا أنه لم يكن يهتم فى المرأة بشيء إلا بالغريزة النوعية قد أسرفوا .

إلا أنه لا بد من القول إن شعراء كثيرين فى الأدب العربى القديم قد أكدوا التزامهم هم وحبائبهم جانب العفة ، حتى ولو فى بعض شعرهم دون البعض الآخر . فبشّار إذن ليس أول من فعل ذلك . ونحن حين نقول إن كثيراً من شعر بشّار يتحدث عن عفته هو وصاحبته لا نقصد أنه يحكى الواقع فعلاً ، إذ ربما كان بشّار لا يقول ما حدث . لا ، لا نقول هذا ، ولكننا نقصد أن نبين أن شعر بشّار ليس كله فحشاً عارياً كما يقول عدد من الدارسين ، بل الفحش الصريح فيه قليل ، وسائره حديث عن العفة وعدم الانسياق مع الغرائز والشهوات . وهذه شواهد على ما نقول :

بيضاء صافية الأديم ترعرعتْ فى جلد لؤلؤة وعفة راهب (٥)

* * *

يا سلم ، إنسى امرؤ يوقرنسى حلمى إذا القوم فى الخنا وثبوا (٦)

* * *

فلولا التقى راحت ورحتُ عشيةً نعدتُ هناتٍ بيننا وهناتٍ (٧)

* * *

كم ليلة قد شقّ إصباحها عننا نعيماً كان زخزاحا

لم تنبسط فيه إلى مُحَرَمٍ حتى رأينا الصبح وضاحا

إلا حديثها معجيباً أُنسُ أكبرُته غنماً وأراحا (٨)

* * *

فما كان إلا الأُنس بينى وبينها وشدو غنم تارةً ونشيدُ (٩)

* * *

أُتِيكَ النَّفْسَ بِالْعَفَافِ وَأُتِيَنِي ذَاكِرًا فِي غَدْرِ حَدِيثِ الْأَعَادِي
ذَاكَ إِذْ لَا تَزَالُ حُبِّي مِنَ الْبَغْيِ خِيَالًا يَزُورُنِي فِي الرِّقَادِ (١٠)

* * *

حَتَّى التَّقِينَا ، فَمَنْ شَكُوِي وَمَعْتَبَةٍ نَكُرُهَا لَا نَخَافُ الْعَيْسَنَ وَالرَّصَدَا
غَابَ الْقَدَى ، فَشَرِينَا صَفْوَ لِيلَتِنَا حَبِينِ نَلْهُو وَنَخْشَى الْوَاحِدَ الصَّمَدَا (١١)

* * *

وَقَمْتُ لَمْ أَقْضِ مِنْهَا إِذْ خَلَوْتُ بِهَا إِلَّا الْحَدِيثَ وَإِلَّا أَنْ أَمْسَ يَدَا (١٢)

* * *

مِنَ الْخَفِرَاتِ ، لَمْ تَطْلُعْ بِفُحْشٍ عَلَى جَارٍ وَلَا بَكْرَتٍ تَرَوُدُ (١٣)

* * *

الْحُبِّ تَعَجِبْنِي لِذَاذَتِهِ وَالْفَسَقِ أَقْبَحَ مَا أَتَى أَحَدُ (١٤)

* * *

بِيضَاءَ لِحْمَاهَا الْحَيَاءُ عَفَافَةٌ فَضْلَ الْقِنَاعِ إِذَا خَلَّتْ لَمْ تَوْصِدِ (١٥)

* * *

فَأَصْبِنُ مِنْ طُرْفِ الْحَدِيدِ كَثَ لَذَاذَةً وَخَرِجِنُ مُلْسَا (١٦)

* * *

لِعُوبٍ بِأَلْبَابِ الرِّجَالِ ، وَإِنْ دَنْتِ أُطِيعَ التَّقَى ، وَالغَىُّ غَيْرَ مَطَاعِ (١٧)

* * *

لَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا وَبَيْنِي إِلَّا كَسْبُ الْعَاشِقِينَ وَالْأَحْسَامِ (١٨)

* * *

أَنْسُ غَرَائِرُ مَا هَمَمْتُ بِرِيَّةٍ كَطَبَاءِ مَكَّةَ صِيْدَهْنَ حَرَامِ

يُحْسِبُنَّ مِنْ لَيْنِ الْحَدِيثِ زَوَانِيَا وَيَصْدَهْنَ عَنِ الْخَنَا الْإِسْلَامِ (١٩)

على أن هناك ملاحظة مهمة على غزل بشار ، إذ قد تكرر عند الإشارة إلى أنه قد شرب هو وحبيبته الخمر في لقاءاتهما العاطفية ، كما توضحه الأمثلة التالية :

كيف أرجو يوماً على السرّ
إذ نسوق المنى ونفتيق الرا
سَ وأيامنا بحقف الكثيب
ح ويأتى الهوى على تغييب ؟ (٢٠)

* * *

أراجع أنت لنا مجلساً
يا حبذا ذلك على نأيه !
بين مُدام وسماع مُنيب ؟
وحبذا ليلتنا بالكثيب ! (٢١)

* * *

لما قضينا حديثنا من معاتبه
جاءت بأزهر لم تُسجِ عماتّه
وكعاد يرد هذا السرّ أو بردا
إذا الزجاجة نادت كآته سجدا

...

تلهو إليه ونشكو بث أنفسنا
فى سلوة . وزوال الليل قد أفدا (٢٢)

* * *

حبذا أنت يا حُبنا
وحديث من الغملا
بسة والعود والتدا
من العين والعدا
ك تداوى به الصدا
يترك الشيخ مُقعدا
عشتُ فيه مخلصدا (٢٣)

* * *

أما تذكري من الراح والعود والندى
ومجلسنا بين الأزهر والصمد ؟ (٢٤)

الهوامش

- ١-١ / ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- ١-٢ / ٣٧٥ - ٣٧٦ . والآيات فى وصف عضوه الجنسى رداً ، فيما ذكروا ، على امرأة أراد وصلها فاستهزأت به وعماء وقبح وجهه . انظر ١ / ٣٧٥ (بالهامش) .
- ٣-٤ / ١٠١ .
- ٤-٤ / ١٧٥ . وكعشبيّ : شديد التتوء . ومعنى « كأنه حمام » : ساخن .
- ٥-١ / ١٦٨ .
- ٦-١ / ٢٤١ .
- ٧-٢ / ٤٤ .
- ٨-٢ / ١٥٣ .
- ٩-٢ / ١٦٤ .
- ١٠-٢ / ١٧٨ .
- ١١-٢ / ١٩٧ .
- ١٢-٢ / ٢٠٠ .
- ١٣-٣ / ١٥١ .
- ١٤-٣ / ٦٣ .
- ١٥-٣ / ١١٧ .
- ١٦-٤ / ٨٢ .
- ١٧-٤ / ٩٩ .
- ١٨-٤ / ١٧٥ .
- ١٩-٤ / ١٩٢ .
- ٢٠-١ / ١٩٨ - ١٩٩ .
- ٢١-١ / ٣٦١ .
- ٢٢-٢ / ١٩٨ - ١٩٩ . والأزهر : إبريق الخمر . وعمامته : غطاؤه .

. 202 / 2 -22

. 212 / 2 -22

أسماء صور الحجة

هذه قائمة بأسماء النساء اللاتي تغزلن فيهن ريشاؤنا، ويلاحظ أننا أحياناً نساء ينادى صاحبتها بلسانها، وأحياناً بكنيتها. وهو حين يناديها باسمها، فناديها بلقبها كما هو، وقد يرقمها، وقد يحوره تديلاً وتحبيلاً، والإلصاق بالوجد قد يحوّل أكثر من تحوير، مثل: «عَيْدَة - عَيْد - عَيْدَة (ة) - عَيْدَة: (١)» :

روى ذلك عن قِصاف . عليك عينٌ وللتكليف الصلابة العنقاً (١٨)

• • •

حيا صاحبي أم العلاء واحذراً طريف عيبتها للحجورام (٢٠)

• • •

تحمل والي أم بكر من اللوى وفارق من عوى، وتو جساماً (٢٢)

• • •

لا ألقى دون سلي خطبا ومما ألقى الدقيبان العنقا
يا سليم ، يا سلم ، دعى لي لينا أو باعفتك فندقتنا حسبا (٤٤)

• • •

أقرى سعدى عندنا في الكرى من ليس بالدنى ولا المصعب (٥)

• • •

لويذا اللياس من عينا سدة قنند قنم نادىسى
عينا ، يا لسه ألقىسى من عتاب مواصب (٦)

• • •

تحق صابرة في كل يوم إلى حبي . وقد كرتك كزنا (٧)

• • •

غلبتك أم محمد بدلالها وقلمك منهم للأعز العالم (٨)

• • •

الا أيها القلبُ الذي أدبرتَ به
سعاد بنى بكر ، ألسنتُ تُثيبُ ؟
تؤتِلُ سُعدى بعدما شعبتَ بهما
نوى بين أقران الخليطِ شُعبُ (٩)

* * *

يفتندنى عبدالعزیز بأنتى
صوتُ إلى الذلفاء حين صننا ترى (١٠)

* * *

منع النوم طارقٌ من حبابية
وهوموم تجول تحت الزهايبة (١١)

* * *

يا طيبٌ ، سيان عندى أنت والطيبُ
كلاكما طيب الأنفاس محبوبُ

..

لله طيبةٌ الا تُبقى على رجلٍ
بقلبه هاجسٌ كالنار مشبوبُ (١٢)

* * *

يتغنى ، إذا خلا باسمك الحقّ
ويكنيك فى العدا أمّ وهيب (١٣)

* * *

أما حبيبك يا أما
أنى منك فى حبيب (١٤) ؟

* * *

فبكت هنيدٌ وقالت :
حبيب ، لا تكرر خطابى (١٥)

* * *

أصفراءُ ، ما فى العيش بعدك مرغَبُ
ولا للصبا ملهى فالهو وأعبُ (١٦)

* * *

تلك عيادةُ التى لم تتلّه
غير ما أصبحتَ لعينيه نصبا (١٧)

* * *

كيف يسلمو عن الرباب فؤادى
وهواها ينوب عن كلّ ناب (١٨) ؟

* * *

يا بيان ، ضاق المذهبُ
وطريف أهلك أجنبُ (١٩)

* * *

على زينب منى السلام ، ومثله على شجن بين الصبا وجنوب (٢٠)

* * *

فإذا ذكرك يا عبّيد تقطعت نفسى عليك وعادنى حشرات (٢١)

* * *

حُبِّ ، إن البخل شرُّ ليس من فعل السّراة (٢٢)

* * *

أرى سقمى يزداد من أم مالك ولو بقيت حبي لنا لَبقيت (٢٣)

* * *

خُشابُ ، هل لمحبة عندكم فرجٌ أو لا فإنى بحبل الموت معتلج (٢٤)

* * *

أم عمرو ، ما زال حبك يفتا ل عزائى حتى افتضحت افتضاحا (٢٥)

* * *

أنجزى ، يا سلامة ، الموعدا وتصابى ولا تطيعى الحسودا (٢٦)

* * *

أهيم بكم يا حمّد إن كنت خاليا وأنت حديث النفس فى كل مشهد (٢٧)

* * *

وقد علمت حمّادة النفس أنسى إلى نائل لو نلت من وردها صد (٢٨)

* * *

دعانى إلى أم الوليد شباهاها وحسن ، فإنى مثلها غير واجد

سأصرم وصلا من عليّة ، إنها صرور كما أوهى كذوب المواعد

...

كان الثريا يوم راحت عشية على نحرها منظومة فى القلائد (٢٩)

* * *

أوحشت من دعد ونزوى دعد بعد زمان ناعم ومرد (٢٠)

* * *

واهاً لأسماء ابنة الأشد ! قامت تراءى إذ رأته وحدي (٢١)

* * *

قصرع الوشاة فأطرقوا وشغللت عينا أم عابد (٢٢)

* * *

أفطم ، إن النفس تخفى من الهوى جليلا ، وتبدي مثله فى المشاهد (٢٣)

* * *

إذا أنشدت بالشعر عندى قصيدة طربت ولم تطرب لها أم خالد (٢٤)

* * *

يا ابنة المالكي ، قد وقع الأمر ، فأوفى لعاشق بالعهود (٢٥)

* * *

أقوى وعطل من فراطنة التند فالربح منك ومن رباك فالسند (٢٦)

* * *

اسمعى يا خليد ، أنت الخلود ما يقول المتيم المعمود (٢٧)

* * *

ريمة الريمه عينا وحنا بعد ردف من رآه سجدا (٢٨)

* * *

قالت فطيمة : « صم فينا » ، فقلت لها : إن شاء يعقوب صمنا يا ابنة الجود (٢٩)

* * *

ألا طرقت موهنا مهدد وقد غور الكوكب المنجد (٤٠)

* * *

يا بنت صقر بن ققاع ، على كبدى شوق إليك وفى روحى وفى جسدى (٤١)

* * *

يا رحمة الله ، حلّى فى منازلنا . وجاورنا . فدتك النفس من جارٍ (٤٢)

* * *

يا خاتم الملك ، يا سمعى ويا بصرى زورى ابن عمك أو طبيى له يَزُرُ (٤٣)

الهوامش

- ١-١ / ١ - ١٠٦ .
- ٢-١ / ١ - ١٠٧ .
- ٣-١ / ١ - ١٢٦ .
- ٤-١ / ١ - ١٣٥ .
- ٥-١ / ١ - ١٤٧ .
- ٦-١ / ١ - ١٦٤ .
- ٧-١ / ١ - ١٦٥ .
- ٨-١ / ١ - ١٦٧ .
- ٩-١ / ١ - ١٨٦ .
- ١٠-١ / ١ - ١٨٧ .
- ١١-١ / ١ - ١٩٢ .
- ١٢-١ / ١ - ١٩٣ .
- ١٣-١ / ١ - ٢٢٢ .
- ١٤-١ / ١ - ٢٥٨ .
- ١٥-١ / ١ - ٢٧٤ .
- ١٦-١ / ١ - ٣٤٠ .
- ١٧-١ / ١ - ٣٥٢ .
- ١٨-١ / ١ - ٣٥٤ .
- ١٩-١ / ١ - ٣٥٧ .
- ٢٠-١ / ١ - ٣٦٣ .
- ٢١-٢ / ٢ - ٣٦ .
- ٢٢-٢ / ٢ - ٣٧ . و « حُبَّ » تدليل « حُبِّي » .
- ٢٣-٢ / ٢ - ٣٩ .

- . ۷۴ / ۲ -۲۴
- . ۱۲۳ / ۲ -۲۵
- . ۱۸۵ / ۲ -۲۶
- . ۲۰۶ / ۲ -۲۷
- . ۲۰۹ / ۲ -۲۸
- . ۲۱۰ . ۲۰۹ / ۲ -۲۹
- . ۲۲۰ / ۲ -۳۰
- . ۲۲۲ / ۲ -۳۱
- . ۲۴۵ / ۲ -۳۲
- . ۲۶۴ / ۲ -۳۳
- . ۳۲۶ / ۲ -۳۴
- . ۳۷۴ / ۲ -۳۵
- . ۳۷۷ / ۲ -۳۶
- . ۴۰ / ۲ -۳۷
- . ۱۴ / ۲ -۳۸
- . ۵۹ / ۲ -۳۹
- . ۱۲۰ / ۲ -۴۰
- . ۱۴۱ / ۲ -۴۱
- . ۱۶۱ / ۲ -۴۲
- . ۲۴۲ / ۲ -۴۳

الغراب

يذكر الشعراء العرب القدماء الغراب كثيرا فى قصائدهم : بوصفه نذير شؤوم ،
أو مؤذنا بفرقة الأحباب ، أو تشبيها منهم الشعر الأسود به ... إلخ . وها هو ذا بشار
أيضا يذكر الغراب فى بعض أبياته فى هذه المعانى السابقة :

نعتى الغرابُ فحنَّقْتَنى عُـبْرَةً وكيـتُ من جـزعِ على الأحيابِ (١)

* * *

يومِ قالـتِ تعذـر العيـم من على ذات الحجاب :
كن غرابا حين تأتى بيننا أو كغرابِ (٢)

* * *

يا صاح ، بلانى طلابُ الهوى وصرف إبريق عليه التقاب
يوما نعيم أخلقنا جدسى ولمةً مثل جناح الغرابِ (٣)

* * *

لكن جرت سُنْحُ بينى وبينهمو والأشمان : غراب البين والشردُ (٤)

* * *

نفد الزمان ومن حميدة لوعة بين الجوانح حرها لم ينفد
يُتدى الضمير إذا عرفت له به لونا كخافية الغراب الأسود (٥)

الهوامش

- ١ - ١ / ٢٦٥
- ١ - ٢ / ٢٧٢
- ١ - ٣ / ٢٧٦
- ٢ - ٤ / ٢٧٨
- ٣ - ٥ / ١١٧

بعض سمات المديح عند بشار

لقد مدح بشار مروان آخر خلفاء بني أمية . كما مدح عقبة بن سلم وخالد بن جبلة الباهلي ، وكذلك الربيع الحاجب وابن برمك والوليد بن العباس وبعض رجال البيت العباسي ، وأيضا يعقوب بن داود ، الذي انقلب عليه الشاعر وهجاه . ولبشار كذلك عدة مدائح في المهدي .

وهو في مدحه للمهدي يدافع عن حقه وحق العباسيين بعامّة في الخلافة مؤكدا أنهم ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ورثتم رسول الله بيت خلافة وعزاً على رغم العدو وسودكاً (١)

* * *

صفا لهم منحدر الهدى فيي بتُ الله فالموقفان فالسُورُ
فزمرزُم فالجمارُ فالحوضُ فالـ مسعى ، فذاك المقامُ مُحْتَظَرُ
ميراثُ من يوركت نبوته فالدين فيهم ، فالأمر ما أمروا (٢)

* * *

وعندك عهد من وصاة محمد فرعتَ بها الأملاك من ولد النَّضْرِ

...

وأحرزت ميراث النبي محمد على رغم قوم ينظرون على دَعْرِ (٣)
ويشير إلى أنه سمى النبي عليه السلام :

دعيني فإني مُعَصِّمٌ بمحمد سمى نبي الله والمملكِ الحُرُّ (٤)
كما يؤكد أنهم حماة الدين :

وأنتم حماة الدين ، لولا دفاعكم لقد قذيتَ عيناه أو كان أرمداً (٥)

ويذكر انتصارهم على الأمويين وقتلهم مروان بن محمد آخر خلفائهم ، الذي كان قد مدحه من قبل أيام سلطانه :

وأنت ابن من رادى أمية بالقنا جهارا وبالبرصى ضربنا مؤيدا (٦)

* * *

ومروان لما أن طغى وأتكممو
نصبتم له البيض اللوامع بالردى
ففرقتمو أشياعه وهدتممو
فأصبح مطلوباً وآب برأسه
زوائرُ منه بادئاتٍ وعُودا
وخطبةُ أحمدن ما كان أوردنا
بملككم العادى مُلكاً مؤلدا
كتائبُ أدركن الحمار المطردا (٧)

الهوامش

- ١- الديوان / ٣ / ٢٩ .
- ٢- ٣ / ٢٠٠ .
- ٣- ٣ / ٢٨٤ .
- ٤- ٣ / ٢٨٢ .
- ٥- ٣ / ٤٠ . والضمير في « قذيت عيناه ... » يعود على الدين .
- ٦- ٣ / ٢٧ .
- ٧- ٣ / ٤٠ - ٤١ . والعادى : الضارب في أعماق الزمن .

مدحه للمهدى بأنه ابن ساقى الحجيج الذى ثبت يوم حنين

ومن المعانى التى دافع بها بشار عن حق المهدي وآل بيته فى الخلافة أنهم من نسل العباس « ساقى الحجيج » ، الذى ثبت « يوم حنين » إلى جانب النبى مع قلة من الصحابة حينما ولى سائر المسلمين مدبرين من هول المفاجأة التى فاجأتهم بها هوازن :

ساقى الحجيج أبوه الخير ، قد علمتُ عليا قريش ، له الغايات والقصبُ
واقى حنينًا بأسياف ومقرية شعث النواصى براها القوذ والغيبُ (١)

* * *

إن ابن ساقى الحجيج يكفيك ما حلّ مقيماً وأية ذهباً (٢)

* * *

إن ابن ساقى الحجيج يكفيك ما حلّ مقيماً وأية ركباً (٣)

* * *

وأنتم سقاء الحج ، لولا حياضكم وأدلوكم لم تحمد الناس مورداً (٤)

* * *

لكم نجدة العباس فى كل موطن ويوم حنين إذ أشاع وأشهدا (٥)

* * *

أبأوك الصيبد من قريش إذا زعزع رتط المنيسة الذعُرُ
منهم سقاء الحجيج قد علموا وقاتل المحل ماله جررُ

...

خير قريش منهم وسيفهمو يوم حنين والبأس منتجرُ (٦)

* * *

وأبقى لك العباس يوماً مشهوراً إذا سيرته فى الذكر جلّ عن الذكر
مجالدة دون النبى بسيفه بوادى حنين غير وان ولا غمر (٧)

الهوامش

٢٣٦ / ١ - ١

٢٥٧ / ١ - ٢

٢٣١ / ١ - ٣

٢٩ / ٢ - ٤

٤٠ / ٣ - ٥

٢٠١ - ٢٠٠ / ٢ - ٦

٢٨٥ / ٢ - ٧

السجود للممدوح

وكما هو الحال فى شعر بشار الغزلى حيث يصوّر الحبيبة معبودة يُسجَد لها أو يطفأ بها ... إلخ نرى هذا المعنى قد تكرر فى مديحه (وإن كان بدرجة أقل) ، فممدوحه ملك تسجد له الملوك ، وهو صنم يطوف حوله العباد ، وجيشه تهوى له الجن العفارت سجداً :

وملك تسجد الملوك له موفى على الناس يرزق العرّابا
راع لأحسابنا وذمتنا يُنسى دُوارًا ويفتدى نصبا (١)

* * *

إذا راوكم ، وإن كانوا على عجل ، خرّوا سجودا ، وما كانوا بسُجّاد (٢)

* * *

إذا حاربوا قوما رأيت لواهم يقود المنايا بارقات ورُعّدا
بأرعن تُمسي الأرض منه مريضة وتلقى له الجن العفارت سجدا (٣)

* * *

إذا شهدوا فأنت لهم دُوار وإن غابوا فليس بك افتقاد (٤)
فتيقُ بنى العباس ، يدعو إلى الندى ويُمنى دُوارا فى المقام وفى السُفّر (٥)

وينبغى ألا ننسى السمة التى تناولناها فى مكان آخر من هذه الدراسة والتى نحسب أن بشارا ينفرد بها ، ألا وهى أنه ، فى الأبيات الغزلية التى يمهد بها لمديح المهدي بعد نهيه إياه عن التشبيب بالنساء ، يأخذ فى الكلام عن ذلك النهى معلّناً أنه لا يستطيع له خلافاً ، ثم يمضى مع ذلك فيذكر محاسن الحبيبة ويطنل القول فيها ، ثم يدخل بعد هذا فى مدح الخليفة .

كذلك فلعل بشارا هو أول من استبدل بوصف الرحلة إلى الممدوح على ظهر الناقة خلال الصحراء وصف الرحلة بالسفينة . وهو على أية حال قد سبق مسلم بن

الوليد إلى هذا . وقد صنع ذلك أكثر من مرة (٦) .

الهوامش

- ١-١ / ١ - ٣٢٦ .
- ٢-٢ / ٢ - ٣٠٠ .
- ٣-٣ / ٣ - ٤١ .
- ٤-٤ / ٣ - ٥٦ . الدُّوَار : الصنم المعبود . وليس بك افتقاد : لأنهم دائماً يذكرونك بالمدح والثناء ، فكأنك حاضر معهم .
- ٥-٥ / ٣ - ٢٨٢ .
- ٦- أنظر الديوان / ١ / ١٤٧ - ١٤٩ ، و ٣ / ٢٨٠ - ٢٨١ مثلاً .

وعد الحرّ دين عليه

من المعانى التى كان بشار يرددها أحيانا فى المديح قوله ما معناه أن وعد

الحرّ دين عليه :

إن وعد الكريم دينٌ عليه فاقض واطفر به على القُرْماء (١)

* * *

أَنْجَزَ حُرًّا وَأَيْمَهُ طَائِعًا والعبد مكدودٌ ومضروبٌ (٢)

* * *

والوعد من دين الكرامِ فما ترى فيما وَعَدْتَنَا ؟ (٣)

* * *

أرغى من العهد والميثاق حقهما لا يَصْلِحُ الحُرُّ إِلَّا حِفْظُ مَا وَعَدَا (٤)

الهوامش

١ - ١ / ١٠٩ .

٢ - ١ / ٣٠٤ . والوأي : الوعد .

٣ - ٢ / ٥٠ .

٤ - ٢ / ١٩٣ .

الأحرار وبنو الأحرار

من المعانى التى كررها بشار فى شعره أنه أو مملوحوه من الأحرار . وقد

يستخدم هذا المعنى فى هجائه أيضا ، إذ ينفى عن خصمه الحرية :

لبستُ الفنى طورا وأخوجتُ مرةً ومن ذا من الأحرار لا يتحوّجُ ؟ (١)

* * *

إنّا سراةُ بنى الأجرار وقَرَنّا ركضُ الجياد وهزُّ المنصّلِ البادى (٢)

* * *

دع الفخر للأحرار ، إنك تاركٌ لأفعالهم . كل امرئ رهنٌ ما مهّدُ (٣)

* * *

تُفاخِرُ يا ابن راعيِّ وراعٍ بنى الأحرار ؟ حَسْبُكَ من خَسَارِ (٤)

* * *

ولا يضبطُ العثراءُ إلا ابن حُرَّةٍ سبوقٌ بحدّةِ السيفِ مَطْلَعُ المُذَرِّ (٥)

* * *

دعيني ، فإننى مُعصِمٌ بمحمدٍ سمى نبي الله والمملكِ الحُرِّ (٦)

* * *

ما يسرّ الحَبَشَ أن تمدحه خشية المعروف . ما الحَبَشُ بِحُرِّ (٧)

الهوامش

- ١- ٢ / ٨٤ .
- ٢- ٢ / ٣٠٣ .
- ٣- ٣ / ١١٤ .
- ٤- ٣ / ٢٣١ .
- ٥- ٣ / ٢٧٩ . والعشاء : العشرة .
- ٦- ٣ / ٢٨٢ .
- ٧- ٣ / ٢٩٣ .

افتخار بشار بشعره

يفتخر بشار بشعره كثيرا ، سواء كان يمدح أو يهجو أو يتغزل . وقد ذكر مرة لأحد ممدوحيه أن كل شيء سيفنى ما عدا مدائحه فيه . كما أنه قد تكرر قوله فى هجائه إنه يسم مهجويه فوق أعينهم أو على أدبارهم . وقد شبه شعره الهجائى بحمات الأفاعى ، والمدحى باللؤلؤ ونور الروض وضوء السراج والعروس المجلوة لخطأها ، والغزلى بالحبرات المشاة . كذلك جعل الناس يسجدون لهذا الشعر ويصلون له ... إلخ :

أحين طَلَّتْ على من قال قافية .. وطال شعبرى بحى بعد أحياء
ألزمت عينك من بغضائنا حَوْلًا لو قد وسمتُك عادت غير حولا
اطلبِ رضاي ، ولا تطلبِ مشاغبتي لا يحمل الضَّرْعُ الْمُقَوَّرُ أعبائى (١)

* * *

تزلّ القوافى عن لسانى كأنها حمات الأفاعى ريقهن قضاء (٢)

* * *

لله ما راح فى جوانحه من لؤلؤ لا يَنَامُ عن طَلِيئة
يخرجن من فيه للندى كما يخرج ضوء السراج من لهبه
زور ملوك عليه أهبة تُعْرِفُ من شعره ومن خَطِيئة (٣)

* * *

جلّيت عن عينه بالشعر أنشده حتى استجاب بها والصبح مقرب (٤)

* * *

قالت : أكل فتاة أنت خادعها بشعرك الساحر الخلاب للغرب (٥) ؟

* * *

تسرفت شعرى فاكتسبت به الفنى وما كان لقاط النوى بكسوب (٦)

* * *

وجارية فى مقتلها لناظر دواء وداء غير أم عادات

- دست إليها منطقي ، وكسوتها (٧) مناسب مثل الوشى بالحجرات (٧)
- * * *
- فلقد أصفيتك الشغف — بر برغم الحاسدات (٨)
- * * *
- أنا الشاعر المشهور في كل موطن — أخل بمثل السيف غير ملجلج (٩)
- ولئن عمرت لتعرفن قصيدة — تجب الصلاة لها عليك فتسجد (١٠)
- * * *
- أبلغ سرارة بنى الحصين بأننى — قلدتهم مدحى وكنت ودودا
- حملت قرمتهم الفتيق قصائدى — حذا يلذ بها الرواة شيذا (١١)
- * * *
- كسوتك حلة مما أسدى — برودا لا يفارقهها برود
- ملايس لا تسرت على الليالى — ولا تبلى وإن بليت جلود
- جلست أحوكها والليل داج — مجبرة تبيد ولا تبيد
- يورتها بنوك بنى بنهم — إذا هلكوا ، ومنشرها جديد
- كذاك الدهر يئلى كل شيء — ولا يقنى على الدهر القصيد (١٢)
- * * *
- وجارية من الفراء الغوالى — تُزف إلى الملوك ولا تُقاد
- تسرك باللقاء ولا تراها — يعطى ماله فيها الجواد (١٣)
- * * *
- أجدهم لم يشعروا بقصائدى — تحن حنين الحارسات غوادى (١٤)
- * * *
- ومعترض سكتته بغريسة — لها مذهب فى كل حى ومُنقصد
- إذا أخرجت منى لقوم حدا بها — من القوم حد خلفها أيد غرد
- يصلى لها أذن الهمام ومن أتت — على سمعه من شوقه خر أو سجد (١٥)

* * *

وسمّتهم بالقوافى فوق أعينهم وسمّ المعيّدى أعناق المقاحيدِ

...

تفحّ دونى القوافى كل شارفة فحّ الأفاعى لكلب الحى والسيدِ (١٦)

* * *

إنى امرؤ عندى لكم تحبيرُ

أنت ابن أملاكٍ لهم نكيرُ (١٧)

* * *

عُرّ القصائد أسديها وأجمها كأن رأسك منها فى أعاصيرِ (١٨)

* * *

وأنا المطلّ على ابن نهيا غاديا بالجيد يقصد تارة ويجورُ
ضعضت حبة جلده بقصيدةٍ وردت قرشٌ دونها يعبُورُ
ولقد أنأت على سهيلٍ مثلها حمراء ليس لحرّها تقتيرُ
ولدى العتيرة قد نظمت قلائدا منها عليه غضاضةً وقتيرُ (١٩)

* * *

تنزل القوافى عن لسانى كأنها حُماتُ الأفاعى ريقهنّ نصيبُ (٢٠)

* * *

فأبلغ بنى زيدٍ وقل لسراتهم ، وإن لم يكن فيهم سرارةٌ تُوقرُ :
لأمكم الويلاتُ . إن قصائدى صواعقُ منها مُنجِدٌ ومغورُ (٢١)

* * *

بعثتُ بذكرها شعبرى وقدمتُ الهوى شركا
فلمّا شاقها قولى وشبّ الحبة فاحتنكا
أنتى الشمس زائرة ولم تلك تبحر الفلكا (٢٢)

* * *

وشعر كنوز الروض لا امتت بينه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا (٢٣)

* * *

وقد ملأت البلاد ما بين يعثو ز إلى القيسروان فاليمين

شعرا تملئ له العواتق والثيب حب صلاة الغواة للونين (٢٤)

* * *

وحمد كعصب البرد حملت صاحبي إلى ملك للصالحيات فربن (٢٥)

الهوامش

- ١- ١٢٢ / ١ .
- ٢- ١٢٩ / ١ .
- ٣- ١٥٩ / ١ .
- ٤- ٢٣٢ / ١ .
- ٥- ٢٦٤ / ١ .
- ٦- ٣٦٨ / ١ .
- ٧- ٤١ / ٢ .
- ٨- ٥٦ / ٢ .
- ٩- ٧٨ / ٢ .
- ١٠- ٣٢٢ / ٢ .
- ١١- ٣٣٢ / ٢ .
- ١٢- ١٨ / ٣ .
- ١٣- ٥٣ / ٣ .
- ١٤- ٨٧ / ٣ . والحارسات : سباع الصيد وكلابه .
- ١٥- ١١٤ / ٣ - ١١٥ . والغرية : القصيدة البديعة .
- ١٦- ١٥٦ / ٣ - ١٥٧ . والمقاحيد : النوق العظام الأستمة .
- ١٧- ١٨٩ / ٣ .
- ١٨- ٢٦٣ / ٣ .
- ١٩- ٢٩٩ / ٣ .
- ٢٠- ١٦ / ٤ .
- ٢١- ٧١ / ٤ .
- ٢٢- ١٢٢ / ٤ .
- ٢٣- ١٣٧ / ٤ .

Y1 - Y-1 / 2 - Y2

Y1A / 2 - Y0

Y.V

رَبَطَهُ نَفْسَهُ بِالْمَلُوكِ

يلفت الباحث في شعر بشار أنه كثيرا ما يربط نفسه بالملوك : ملوك حقيقيين أو على التشبيه ، بصفته واحداً منهم أو زائراً لهم أو حبيباً لبناتهم أو متحدياً إياهم . وقد سبق أن ناقشنا قضية نسبة الملوكى فى هذه الدراسة . وقد تكون هذه السمة فى شعره معضدة لما قيل عن هذا النسب :

وجوارٍ إذا تحلّين لم تَدُ رِ : أشاءُ فى حلّها أم نساء ؟
يوم سلوان إذ يناديتنى : أقـ . بل إلينا ، فعندنا ما تشاءُ
...

من بنات الملوك لا ... نماها إلى العلاء العلاء (١)

* * *

ومن القوم إذا ناستهم ملكٌ فى الأخذ عبد فى العطا (٢)

* * *

رُحنا مع الليل ملوكا غلبا من ذا ومن ذاك أصبنا نهبا (٣)

* * *

وملك يجيى القرى لا يجيى نزوره غيا ونوتسى رهبا (٤)

* * *

رؤؤ ملوك ، عليه أهبة تعرف من شعره ومن خطبة (٥)

* * *

فى كل يسوم له هم يطالبه عند الملوك فلا يُزرى به الطلب (٦)

* * *

وملوك إن تعرّضت لهم عرّضوا دينى وشيكا للعطب (٧)

* * *

إذا الملك الجبار صعر خدّه مشينا إليه بالسيوف نعاثه (٨)

* * *

بعثنا لهم موت الفجاءة ، إننا بنو الملوك خفاق علينا سبائبة (٩)

* * *

إننا ملوك لم نزل في سالفات الحقب (١٠)

* * *

ورب ذي تاج كريم المجد

كآل كسرى أو كآل بُرد (١١)

* * *

خدم الملوك إذا قعدنا في الحبا قاموا ، وإن نزرع لروع يقعدوا (١٢)

* * *

وأملك وهبت لهم ثانی

وليس كزأخر النيل الثماد
وجدت لبعضهم جودا ، وبعض
كماء البحر أکدر لا يراد

...

وجارية من الغوالي تُزف إلى الملوك ولا تُقاد

تُرك باللقاء ولا تراها يعطى ماله فيها الجواد (١٣)

* * *

أنا ابن ملوك الأعجمين تقطعت على ، ولي في العامرين عماد (١٤)

* * *

أبي نجل أملاك وزوؤ خليفة

يلين له باب الهمام إذا وقده (١٥)

* * *

قد أسلب الملك الجبار حليته

في مأقط مثل خط السيف مشهود (١٦)

* * *

كأنما عاينوا بي ليث ملحم

غضبان أو ملكاً بالتاج معقود (١٧)

* * *

قَد زُرْتُ أَمْلَاكَ بِنِسَى هَاشِمٍ وَزَارَنِي الْبَيْضُ الْمَعَاصِيرُ (١٨)

* * *

إِنَ فِي نَدْوَةِ الْمُلُوكِ لَشُغْلًا عَنِ رِبَابِ وَزَنْبِ وَقَذُورِ (١٩)

* * *

أَنَا النَّصْبُ الْمَحْجُوجُ كُلُّ عَشِيَةٍ أَمِيرٌ ، وَمَا أُعْطِيَتْ عَهْدَ أَمِيرِ (٢٠)

* * *

تَتَاقَلَّتْ إِلَّا عَنِ يَدِ اسْتِفِيدَهَا وَزُورَةَ أَمْلَاكِ أَشَدُّ لَهَا أَزْرَى (٢١)

* * *

نُبِّئْتُ أَكَلِ خُرْنِهِ يَغْتَابُنِي عِنْدَ الْأَمِيرِ . وَهَلْ عَلَيَّ أَمِيرٌ ؟ (٢٢)

* * *

وَأَهْمِنُ مَالِي لِلْمَحَامِدِ ، إِنَّهَا حُلَّلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْمُلُوكِ تُبَيِّرُ (٢٣)

* * *

وَأَمْلَاكَ صَدَقَ الْبِسْتَنِي طَرَاذَهُمْ قَصَائِدُ مَالِي غَيْرَهْنَ شَفِيعُ (٢٤)

* * *

وَأَنَا لِقَوْمٍ مَا تَزَالُ جِيَادُنَا تُسَاوِرُ مَلَكًا أَوْ تَاهِبٍ مَغْنَمًا (٢٥)

ولم يكن ربط بشار نفسه بالملوك والأمراء وقفا على الشعر ، بل حكي عنه أن ابنته سأته يوما : « يا أبت ، مالك يعرفك الناس ولا تعرفهم ؟ » ، فكان جوابه : « كذلك الأمير يا بنية » (٢٦) . وينبغي أيضا ألا ننسى ما قيل عن نسبة الملوكي ، وهو ما أشرنا إليه من قبل .

الهوامش

- ١- ١ / ١١٦ .
- ٢- ١ / ١٣٢ .
- ٣- ١ / ١٣٧ .
- ٤- ١ / ١٣٨ .
- ٥- ١ / ١٥٩ . وَزَوَّرَ مَلُوكَ : يزورهم .
- ٦- ١ / ٢٣١ . وهو هنا يصف نفسه .
- ٧- ١ / ٣٠٤ .
- ٨- ١ / ٣١٧ .
- ٩- ١ / ٣١٩ .
- ١٠- ١ / ٣٧٨ .
- ١١- ٢ / ٢٣٩ .
- ١٢- ٢ / ٢٢٥ . خدَمَ المَلُوكَ : مبتدأ ، وخبره جملة الشرط .
- ١٣- ٣ / ٥٢ ، ٥٣ . والمقصود بالجارية قصيدته المدحية .
- ١٤- ٣ / ١٠٥ .
- ١٥- ٣ / ١٥٢ . والكلام على لسان ابنته .
- ١٦- ٣ / ١٥٤ . والمأقظ : المأزق .
- ١٧- ٣ / ١٥٧ .
- ١٨- ٣ / ١٩٤ . والمعاصير : الشواب .
- ١٩- ٣ / ٢٠٥ .
- ٢٠- ٣ / ٢٦٧ .
- ٢١- ٣ / ٢٧٥ .
- ٢٢- ٣ / ٢٩٦ .
- ٢٣- ٣ / ٢٩٧ .

٢٤- ٤ / ١٠٣ .

٢٥- ٤ / ١٦٣ .

٢٦- الأغانى / ٣ / ٢١٢ .

المرعث

تكرر فى شعر بشار تلقبيه نفسه بـ « المرعث » على سبيل الفخر والعُجب ،
سواء كان هو المسمى نفسه أو كانت النسوة اللاتى يقعن فى غرامه هن اللاتى يسمينه
كذلك :

أنا المرعث لا أخفى على أحد ذرت بى الشمس للدانى وللناتى (١)

* * *

بَلَّغَ المرعثَ فى الرحيبِ خرائدَ منهن تجبئة (٢)

* * *

حتى يقول الناس بينهمسو : شَقَفُ المرعثِ داخلَ الحُبِّ (٣)

* * *

فَتِنَ المرعثُ بعد طولِ تَصَاحٍ وصباَ وملَ مقالةَ التُّصَاحِ (٤)

* * *

قال : أذرى المرعثُ الدمعَ فانهُلَ نظاما ، وكان عهدى جليدا (٥)

* * *

لَمَا رَأَتْ لَمَحَةَ منى مرعثةً خُضْرًا وَحُمْرًا وَصُفْرًا بينها جُدَدًا

قَالَتْ لِتَرِبِ لَهَا كَانَتْ مُوَطَّنَةً : جَاءَ المرعثُ فاشى عندك الوُسْدَا (٦)

* * *

يا رب قائله يومًا لجارتها : إن المرعثَ همى غاب أو شهدا (٧)

* * *

ومقالَ عاذلتى وقد عابنتها : إن المرعثَ رائحَ أو غادى (٨)

* * *

أنا المرعثُ يخشى الجنُّ بادرتى ولا ينام الأعداى من مزاميرى (٩)

* * *

وانى لأكتهم سرها غداة تقول لها الجالية :

عَبِيدَةُ ، مالك مسلوبة وكنيتُ مقرطقةً حاليَّة ؟

فقالَت على رقبَةٍ : إنسى زهنتُ المرعَّثَ خلخالِيه (١٠)

وقد ذكر شاعرنا اسمه الحقيقي « بشار » ثلاث مرات (وليس مرتين فقط

كما ذكر البشير الطاهر بن عاشور) (١١) : مرتين « بشار » فقط ، ومرة « بشار

بن برد » . وهذه المرة الأخيرة هي التي فات الشيخ ابن عاشور ذكرها . وهذه هي

المرات الثلاث :

أَقْعُدْ ، فقد قال رواة الأشعار

ليس ابن نهيا من زجال بشار (١٢)

* * *

إذا أنشد حمياداً فقل : أحسن بشارُ (١٣)

* * *

مِنَ المفتون بشارِ بنِ برِدٍ إلى شيبان : كهلهمو ومُرْدٍ (١٤)

ولم يحدث في الشعر الذي وصلنا أن استخدم كنيته .

وقد كان عمر بن أبي ربيعة يكثر من ذكر اسمه في شعره لقباً :

« المغيري » ، واسماً : « عمر » ، وكنيةً : « أبو الخطاب » : على لسانه أو على

لسان جنابه . وذلك معروف عنه فلا يحتاج إلى شواهد .

الهوامش

- ١-١ / ١ / ١٢٣ . وقد تكرر هذا البيت بنصه في ٤ / ٢١٥ .
- ١-٢ / ١ / ١٦٩ .
- ١-٣ / ١ / ٢١٣ .
- ١-٤ / ٢ / ١٢٧ .
- ١-٥ / ٢ / ١٨٨ .
- ١-٦ / ٢ / ١٩٦ .
- ١-٧ / ٢ / ١٩٨ .
- ١-٨ / ٣ / ٦٤ .
- ١-٩ / ٣ / ٢٢٣ .
- ١-١٠ / ٤ / ٢٢٦ .
- ١١- انظر مقدمته للديوان / ١ / ٦ .
- ١٢- ٣ / ٢٤١ .
- ١٣- ٤ / ٧٣ .
- ١٤- ٤ / ٣٨ .

بعض ملامح الهجاء عند بشار

تتكرر فى هجاء بشاره ألفاظ « الكلب » و « الخنزير » و « الحمار »
و « الثعلب » و « الفهد » :

أَبُوكَ يَهُودَى ، وَأَمَّكَ عُلْجَةَ وَأَشْبَهْتَ خَنْزِيرَ السَّوَادِ الْمَسِيَّاءِ (١)

* * *

وَسَيِّدَ تَيْمِ اللَّاتِ تَحْتَ غِذَائِهِ هِرْزِرٌ ، وَأَمَّا فِى اللَّقَاءِ فَثُعْلَبُ (٢)

* * *

عَتَبْتُ عَلَى خَنْزِيرِ كَلْبٍ ، وَإِنْسَى بِذَلِكَ عَلَى الْكَلْبِ التَّمِيمَى أَعْتَبُ (٣)

* * *

عَلَى الْكَلْبِ أَهْوَالٌ إِذَا مَا رَأَيْتَهُ وَخَنْزِيرِ كَلْبٍ بِالْمَخَازَى مَدْرُبُ (٤)

* * *

لَا تَحْمَدُنْ أَبَا حَرْبٍ بِأَسْرَتِهِ قَدْ يَبِيتُ اللَّيْثُ وَالْخَنْزِيرُ فِى الْغَابِ (٥)

* * *

كُفِرَ الْحَمِيرُ ، وَقَدْ أَرَى فِى صَحْبَتَى مِنْهُنَّ أَقْمَرَ مُنْعِجًا بِالرَّارِكِبِ

...

وَلَقَدْ مَشَيْتُ عَنِ الْحَمَارِ تَكَرَّمَا وَالْمَشَى أَكْرَمُ مِنْ رُكُوبِ الصَّاحِبِ (٦)

* * *

وَإِبْنُ سَلْمَانَ سَاقِطٌ كَالْحَمَارِ الْمُوَدَّجِ (٧)

* * *

هِنَاكَ التَّقِينَا تَحْتَ عَيْنِ مَطِيرَةٍ وَرَبَّانُ مُلْقَى كَالْحَمَارِ الْمُوَدَّجِ (٨)

* * *

فَهْدَيْنَ طُورًا وَفَهَادَيْنَ آوْنَءَةً مَا كَانَ قَبْلَهُمَا فَهْدٌ بِفَهَادِ (٩)

* * *

لَا غُرُوْا إِلَّا لِحَمَادِ أَبِي عُمْرِ يَظَلُّ فَهَادًا وَيَسْرَى اللَّيْلَ فَهَادًا (١٠)

* * *

فجئت كيفل السوء بين عريضة وبين حمار خط عنه مزاد (١١)

* * *

فما نفع الخنزير ما قال كاذباً ولا يبركى ضمن الضغائن والحسد (١٢)

* * *

قتى يسارى كأسه كفته جوداً ، وبعض القوم خنزير (١٣)

* * *

للملئك عباس وأبناؤه قدماً ، وللحش الخنازير (١٤)

* * *

إنى يشينى قلبى بقافية راحت تحرق فى كلب وخنزير (١٥)

* * *

أصبحت منى من أذى وأصغار مثل الحمار فى حمار البيطار (١٦)

* * *

قتلنا السكسكى بلا قتيل وهل من مقتل الكلب اعتذار ؟ (١٧)

* * *

خلقنا سادة ، وخلقنت كلباً ككلب السوء يلحق بالقطار (١٨)

بيد أن هجاء بشار لا يرعوى عند ألفاظ الكلب والخنزير والفهد والحمار والشعب ، بل يمضى فى الغالب مقتحماً لجة من البذاء مواراة ، فتصدم آذاننا وأذواقنا عند ألفاظ السوء والفحش عارية لا تعرف التورية ولا الكناية ، وتطالعنا « الأيور والأستاه والعجان والفقاح والفيشة والدبر والزيب والبطور والهن والكمار والوجعاء والأحراج والخصى والجردان والنيك والسفاد والفساء والضراط وأولاد الزنا » على نحو مفت بل مقىء . ويعجب الإنسان لشاعر غير صغير ولا مغمور كبشار : كيف يرضى لنفسه أن يتدهدى فى هذا الوحل والنتن ؟ ولكن لله فى خلقه شؤون . والناس ليسوا كلهم من معدن واحد . وينبغى كذلك ألا يغيب عن بالنا أن الذين كان بشار يشتبك معهم فى

هذا الضرب من الهجاء لم يكونوا أقلّ منه بذاءة وضراوة في الفحش والتصريح بالألفاظ
السوءات ، من مثل حماد عجرد وأبى هشام الباهلى .

ويستطيع من يريد أن يطلع على هذا الجانب المقلد من شعر الشاعر أن يرجع
إلى ديوانه ويبحث عن أهجياته .

ومن الألفاظ التي وردت في مجال الهجاء أيضا كلمة « الحشّ » (الكنيف) ،
وقد تكررت عدة مرات :

لحا لله أبناء الخُلَيْقِ ، فإنهم خنازيرُ حشّ سُخِرَتْ لِسُرُوبِ (١٩)

* * *

ما أنت بالزانى ، ولكنما ورثتَ عن حشّ وولادٍ (٢٠)

* * *

داودُ محمودٌ وأنتُ مذمّمٌ عجبا لذاك وأتما من عود !

ولرُبّ عود قد يُشَقّ لمسجد نصفاً ، وسائرهُ لحشّ يهودى

والحشّ أنت له ، وذاك لمسجدٍ كم بين موضع مسلّح وسجود ! (٢١)

* * *

للملك عباس وأبناؤه قَدَمًا ، وللحشّ الخنازيرُ (٢٢)

* * *

لم تُهدنا نعلا ولا خاتمًا من أين أقبلتَ ؟ من الحشّ ؟ (٢٣)

على أن لبشار هجاءً آخر يخلو من هذا الإقذاع في بعض من كان مدحهم فلم

يُرَضُّوه بما كان يتوقعه . وليس في هذا الهجاء شيء خصوصي في أسلوبه أو في

طريقته الفنية . ولذلك لم نقف عنده .

الهوامش

- ١- ٢٤٧ / ١ .
- ٢- ٢٥٣ / ١ .
- ٣- ٣٤٣ / ١ .
- ٤- ٣٤٣ / ١ .
- ٥- ٣٧٣ / ١ .
- ٦- ٣٧٤ / ١ - ٣٧٥ .
- ٧- ٧٤ / ٢ .
- ٨- ٨٢ / ٢ .
- ٩- ٢ / ٢ .
- ١٠- ١٠٠ / ٢ .
- ١١- ١٠٩ / ٣ . ويلاحظ كيف كرّر بشار « بين » مع اسمين ظاهرين . وقد أوردت في كتابي « ذخائر من المكتبة العربية » (١٧١ - ١٧٥) خمسة عشر شاعرا شعريا من عصور الاحتجاج (وبخاصة من العصر الجاهلي) على صحة هذا الاستعمال الذي لا يوافق عليه عدد من اللغويين .
- ١٢- ١١٤ / ٢ .
- ١٣- ١٩٤ / ٢ .
- ١٤- ١٩٧ / ٢ .
- ١٥- ٢٢٣ / ٢ .
- ١٦- ٢٤١ / ٢ . والمعنى : « مثل الحمار بين حمير البيطار » .
- ١٧- ٢٥٥ / ٢ .
- ١٨- ٢٧٠ / ٢ .
- ١٩- ٣٦٩ / ١ .
- ٢٠- ٩٦ / ٢ .

. 111 / 2 -21

. 117 / 2 -22

. 117 / 2 -22

وصف الخمر عند بشار

وصف بشار الخمر فذكر سطوع ضوئها واحتباسها فى الدنّ أعرامًا طويلاً ،
وأشار إلى ما أصابه هو ونداماه من سُكْرٍ عقلُ ألسنتهم ، متطرّقًا من ذلك إلى هجاء
من اسمه أحمد بن هشام ، وهو من الإدماج ، أى التطرق من غرض إلى غرض :
وصافية تُعشى العيون رقيقةً رهينة عام فى الدنان وعسام
أدرنا بها الكأس الرويّة بيننا من الليل حتى انجاب كل ظلام
فما ذرّ قرن الشمس حتى كأننا من العى نحكى أحمد بن هشام (١)
وفى الأبيات التالية يتوسع فى وصفها وتصوير رانحتها التى تشقّ الزكام
بقوتها ، ويتتبع دبيبها فى اللسان خدرًا حتى كأن شاربها شجّ فى لسانه برسام (أى
إنسان قد غلبه الحزن على عقله فصار يهذى ولا يدرى ماذا يقول ولا يُحكّمه) وكذلك
ما تفعله بالعين والمفاصل من انكسار واسترخاء يصل إلى ما يشبه الشلل بل الموت ،
وما تحدّثه فى النفس من نشوة وطربٍ وإحساس طاغ بالأهمية يهيج شاربها إلى الإسراف
فى شربها فالإفلاس :

رب كأس كالسلسيل تعلّـ	تُ بها والأنام عنى نيام
حُيَسَتْ للشُّراة فى بيت رأس	عُتقت عانسًا عليها الختام
نفحت نفعةً فهزت نديمى	بنسيم وانشقّ عنهما الزكام
وكأن المعلول منها إذا را	ح شجّ فى لسانه برسام
صدمته الشمول حتى بعينى	ه انكسارٌ وفى المفاصل خام
وهو باقى الأطراف حيّت به الكأ	س وماتت أوصاله والكلام
وفتى يشرب المدامة بالما	ل ويمشى يروم مالا يُرام
أنفدت كأسه الدنانير حتى	ذهب العينُ واستمرّ الثوام
تركه الصهفاء يرنو بعين	نام إنسانها وليست تمام
حنّ من شرية تُقلُّ بأخرى	وبكى حين سار فيه المُدام (٢)

كما صور إبريقها وشبهه بالغزال ، ووصفه بالشَّمم . ووصف عمامته المتخذة من
لحاء النخل ، وشبه صوت الخمر وهي تقرقر خارجة من خرطومه بزجل المطر أو دوى
الرعْد ، وقال إنها تخلط لينها بجماح ، أى إنها على رقتها تنهك شاربها وتفعل به
الأفاعيل :

وزجاجة للشرب فيها مقنّع قرنت بأزهر كالغزال مُباح
فإذا التديم شكا الصدى من هامة عندى شفيتُ صداه بالراح
ما تضمنته أشم معثم بلحاء باسقة من الأدواح
فإذا أكب حكى لسمعك ضاحكا تحت الغمامة أو دوى نباح
بخروج لينة المذاق رقيقة كالدمع تخلط لينها بجماح (٣)
ويقول :

ومالت كسف ساقينسا بليريق إلى طاس
له قهقهة فيهِه على حبة أنفاس (٤)

وإذا كان قد وصف فى الأبيات السابقة صوت الخمر وهي خارجة من فم
الإبريق ، فإنه فى البيتين التاليين يَصوّر وضع الإبريق نفسه فى هذه الحالة فيقول إنه
يسجد للكأس حين يُصَبُّ :

يسجد للكأس إذا ما صبّا كقارىء السجدة حين انكبّا (٥)
وهو ما يصفه به أيضا فى البيتين التاليين كما يصفه فيهما بأنه « مجّاج
المدامة » ، وكذلك بأنه « نَبّاح » ، وهو تقريبا نفس ما جاء فى البيت قبل الأخير
فى النص السابق ، إذ قال إنه يحكى « دوى نباح » :

وتدّمان صدق قد وصلتُ حديثه بأزهر مجّاج المُدامة نَبّاح
إذا فرغت كأس امرى خرّ ساجداً وصبّ لنا صفراء فى طيب تفاح (٦)
ويعود بشار إلى تصوير الإبريق ساجداً ، وكذلك الكؤوس ، وذلك فى قوله :
بيديه مثل المصلّى من اللبى لـ سجودا حينّا وحينّا ركودا

لا تبيت الكناس منه إذا ما قابلته الكناس إلا سجودا (٧)
ومرة أخرى نراه يقول مكررا نفس الصورة :

جامت بأزهر لم تُسجِجِ عمامته إذا الزجاجة كادت رأسه سجدا
ريان ، كالريم خداه ومذبحه إن لم يُرْعَ بسجود سامرا ركدا (٨)
وهو يشرب الخمر نشدانا للسلوة . يقول عقب البيتين السابقين مباشرة :
نلهو إليه ونشكوبث أنفسنا فى سلوة ، وزوال الليل قد أفدا
ويقول أيضا :

اسقنى يا ابن أسقدا قبل أن ينزل السردى
شربة تذهب الهممو م وتشفى المصردا (٩)
ويقول :

فاشرب على حدثان الدهر مرتفقا لا يصحب الهمم قرع السن بالكاس (١٠)
ويقول الشيخ ابن عاشور إن بشارا « هو فيما رأيت أول شاعر ذكر شرب الخمر
على ذكر الأحبة فى الحزن وضده » . وقد استشهد على ذلك بثلاثة أبيات منها البيت
المارّ لتوه . أما البيتان الآخران فهما :

فاشرب على موت إخوان رزّتهمو باب المنية عنى غير مسدود
وقوله :

فاشرب على أبنة الزمان ، فما تلقى زمانا صفا من الأبن (١١)
وقد تكررت منه الإشارة إلى أنه كان يشرب مع حبيبته الخمر ، وقد يستمعان
أثناء ذلك إلى الغناء . ومن ذلك قوله :

لما قضينا حديثاً من معاتبٍ وكاد يبرد هذا الشرّ أو سردا
جامت بأزهر لم تسجِجِ عمامته إذا الزجاجة كادت كأسه سجدا
ريان ، كالريم خداه ومذبحه إن لم يُرْعَ بسجود سامرا ركدا
نلهو إليه ونشكوبث أنفسنا فى سلوة ، وزوال الليل قد أفدا

حتى إذا طارق ثارت عداوته
قامت تهادى إلى أهل تراقبهم
والعين تُحدر دمعاً جسدًا وكفّة
كأنه لؤلؤ رثت معاقده
وقمتُ لم أقض منها إذ خلوتُ بها
ويقول أيضا :

واذكرى ليللة السما
ييين راح ومزهـر
إذ تقوليين جهرة :
ويقول :

أما تذكيرن الراح والعود والندى
ومجلسنا بين الأظهر والصمد ؟

...

ليالى نندو فى الجوار وملتقى
على زاهر يلقى الغزاة بالسجد (١٤)
وثمة صورة بديعة عند بشار للإبريق وقد علقت بفمه قطرة من الخمر :

كأن إبريقنا والقطر فى فمه
طير تناول ياقوتا بمنقار (١٥)

هذا ، ولم تقابلنى بشار خمريات مستقلة . إنما هى أبيات تأتى فى تضايف
قصائد الغزل عادةً . أما أبياته الميمية التى تبدأ بقوله : « ورب كأس
كالسلبيل ... » فقد جاءت تمهيداً لثناء نفر من أصدقائه ، وهو غريب : أن يصف
الخمر فى قصيدة رثائية ! ويزيد الأمر غرابة أن شرب الخمر فى تلك الأبيات يهيج
الطرب والأريحية ويملاً الشارب إحساساً بأهميته وخطره فيظن أنه مستطيع أن يأتى من
الأمور مستحيلاتها . ومثل ذلك البيت التالى ، فقد جاء هو أيضاً فى سياقٍ تذكّر من
مضى من الأصدقاء والحزن عليهم :

فاشرب على تلف الأحبة . إننا
جزرُ المنية ظاعنين وحُفُضا

كما جاءت له أبيات خمرية فى خلال قصيدة مدح بها داود بن سليمان بن على . وهذه هى الأبيات . وبالنسبة ، فهى الأبيات الوحيدة التى وصف فيها بشار مجلس خمر وصفًا كاملاً :

حتى إذا اليوم مضى كآله وبأح بالمكتوم سُرْبُـسُورُ
وراعنا فى ميممه كافرُ خليفة الشمس وتبتيـرُ

...

دعا لنا الحُور عليها الحيا يا حبذا الحُورُ المعاطيرُ !
بتنا نعاظيها رهاوتيةً وهنى عِكافُ بيننا سُورُ
تزيّن الشُّرْبَ ، وقد زانها فى الدرّ شبتنه التماصيرُ
جُوفٌ مصيخات ، وإن قُبِلتْ حنّت كما حنّ المشاويرُ
يشدون أصواتاً مدينية وضرّب مكى له صورُ
تبكى المزامير لها تارة شجوا ، وتحكيها المزاهير
وأنا محبور بتفريدها إمّا تداعى اليمّ والزيرُ (١٦)

الهوامش

- ١- الديوان / ٤ / ١٨١ - ١٨٢ .
- ٢- ٤ / ١٧٦ - ١٧٧ .
- ٣- ٢ / ١٢١ - ١٢٢ .
- ٤- ٤ / ٨٦ .
- ٥- ١ / ١٢٧ .
- ٦- ٢ / ١١٩ .
- ٧- ٢ / ١٩١ .
- ٨- ٢ / ١٩٩ . هذا ، ولا بد من الإشارة إلى أن بشارا يكثر في شعره من ذكر السجود : السجود في الصلاة ، والسجود أمام جمال الحبيبة ، وسجود الآخرين لشعره ، وسجود الأعداء أمام ممدوحه . ثم هنا سجود الإبريق والكأس .
- ٩- ٢ / ٢٠٠ .
- ١٠- ٤ / ٨٦ .
- ١١- مقدمة الديوان / ١ / ٣٩ .
- ١٢- الديوان / ٢ / ١٩٨ - ٢٠٠ .
- ١٣- ٢ / ٢١٣ .
- ١٤- ٢ / ٣١٣ - ٣١٤ .
- ١٥- ٤ / ٦١ .
- ١٦- ٣ / ١٩٦ . والبنم والزير : وتران من أوتار العود .

من شعر الحكمة عند بشار

اشتهر بشار بجريان الحكمة على لسانه . ولنا نقصد أنه فى سلوكه كان
حكيمًا، فهذا شىء ، وذلك شىء . وهناك عدد من الأبيات الحكيمية البشارية مصوغة
صياغة جيدة تضمن لها السيرورة والذيق . ومن هذه الأبيات قوله :

عتاب الفتى فى كل يوم بليّةً وتقويم أضغان النساء عَنَاءُ (١)

* * *

فدع الدنيا وعش فى ظلّها طلب الدنيا من الداء القيا (٢)

* * *

تأتى المقيم ، وما سعى ، حاجاته عددَ الحصى ، ويخيب سعى الغائب (٣)

* * *

ودهر المرء منقلبٌ عليه فنوننا ، والنعيم إلى انقلاب
وكل أخ سيذهب عن أخيه وباقى ما تحبّ إلى ذهاب (٤)

* * *

كلّ شىءٍ إلى انقطاع مداهُ وصروف الأيام تُبلى الجديدة (٥)

* * *

فاحمل النفس على مكروها إن حلّو العيش محفوفٌ بمُرّ
وإذا الأمر التوى من يابه فارض ما أُعطيتَ منه واستقرّ (٦)

* * *

فلا ، وأبيك ، ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ (٧)

* * *

إذا لم تخش عاقبة اللبالي ولم تَسْحَحي فاصنع ما تشاءُ (٨)

* * *

وللموتُ خير من حياة على أذى يضيّمك فيها صاحبٌ وثرأبئةُ (٩)

* * *

- وليس أخى من ودنى ردا عينه ولكن أخى من ودنى فى المصائب (١٠)
- * * *
- وما كل ذى رأى بمؤتيك نصحه ولا كل مؤتٍ نُصَحَه بلييب (١١)
- * * *
- فمن عاتب الجهال أتعب نفسه ومن لام من لا يعرف اللوم أفسدا (١٢)
- * * *
- ولا بد من شكوى إلى ذى حفيظة إذا جَعَلَتْ أسرارُ نفسى تَطَلُّعُ (١٣)
- * * *
- وما ضاع مالٌ أورث الحمدَ أهلهُ ولكن أموال البخيل تَضِيغُ (١٤)
- * * *
- وما خاب بين الله والناس عامل له فى التقى أو فى المحامد سُوقُ
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيقُ (١٥)
- * * *
- إذا بلغ الرأى المشورة فاستمعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً مكان الخوافى قوة للقوادم (١٦)
- * * *
- وحارب إذا لم تُعْطَ إلا ظلاماً شبا الحرب خير من قبول المظالم (١٧)

الهوامش

- ١ - ١ / ١ - ١٢٨ .
- ٢ - ١ / ١ - ١٢٣ .
- ٣ - ١ / ١ - ١٦٧ .
- ٤ - ١ / ١ - ٢٤٨ .
- ٥ - ٢ / ١ - ١٨٩ .
- ٦ - ٣ / ٢ - ٢٩١ .
- ٧ - ٤ / ٧ .
- ٨ - ٤ / ٧ .
- ٩ - ٤ / ١١ .
- ١٠ - ٤ / ٢١ .
- ١١ - ٤ / ٢٣ .
- ١٢ - ٤ / ٤٦ .
- ١٣ - ٤ / ١٠٠ .
- ١٤ - ٤ / ١٠٤ .
- ١٥ - ٤ / ١١٤ .
- ١٦ - ٤ / ١٧٢ - ١٧٣ . والخواقي : الريش الذى فى باطن الجناح . والقوادم : الريش الذى فى ظاهر الجناح .
- ١٧ - ٤ / ١٧٣ .

الأمثال

وكما اشتهر بشار بشعر الحكمة نجد في قصائده عددًا لا بأس به من الأمثال :
 إمّا أمثال قديمة ضمّنها شعره ، أو أمثال له هو يمكنها أن تأخذ مكانها مع تلك
 الأمثال القديمة . وهذه شواهد ما نقول :

يسقط الطير حيث ينتثر الحبوبُ وتُغشى منازل الكرماءِ (١)

* * *

ليس منا من لا يعاب ، فأغضى رَبَّ زارٍ بادٍ عليه الزَّراءُ (٢)

* * *

رضيتُ ميعادك يا سيدي إن لم يكن ميعاد عرقوبِ (٣)

* * *

وكتتُ كالباحث عن مديّة وانما يشقى بها الباحثُ (٤)

* * *

كلّ من ودّ أحمدًا ودّ أشياع أحمدًا (٥)

* * *

الحرّ يؤمى ، والعصا للعبدِ وليس للملحفٍ مثلُ الردِّ (٦)

* * *

رُحْتُ في النُوكِ كمن قيل له : أنت مبتاعٌ بغيرٍ فَعَدًا (٧)

* * *

تفئو إلى بأشعار ملصقةٍ مهذا أبا عمرو . ما أنت في العيرِ (٨)

* * *

قد زُرْتما في الدهرِ واحدةٌ عودي ولا تجعلها بيضة الديكِ (٩)

* * *

فصرتُ كالعيرِ غدا طالبا قرئًا فلم يرجع بأذنينِ (١٠)

الهوامش

- ١- ١ / ١١١ .
- ٢- ١ / ١١٥ .
- ٣- ١ / ٣٧١ .
- ٤- ٢ / ٦٥ .
- ٥- ٢ / ٢١١ .
- ٦- ٢ / ٣٢٤ .
- ٧- ٣ / ١١ .
- ٨- ٣ / ٣٦٣ .
- ٩- ٤ / ١٢٤ .
- ١٠- ٤ / ٢٠١ .

كل شيء إلى زوال

تكررت في شعر بشار الإشارة إلى فناء الدنيا وزوال كل شيء . وهذه أمثلة على

ذلك :

إن الليالي والأيام فاجعة والمرء يُفنى ولا يَبْقَى له الأبدُ (١)

* * *

فقد رأيتُ بنات الدهر عاملةً في العُبرين . وما حسىً بخلاَّدٍ (٢)

* * *

فأصبح عيشنا فيها تولى وهل للعيش في الدنيا خلودُ ؟ (٣)

* * *

ثم بدلتُ صفحتي للغواني كلُّ شيء إلى يلقى مردودُ (٤)

* * *

حتى انقضى في الصبح ملعبنا وكذلك يهلك ما له أمدُ (٥)

* * *

وذلك دهر مضي صفوهُ وعيش امرئ لم يكن خالدًا (٦)

* * *

وكذاك الجديد يلى على الدهر ولا بدُّ لامرئ من عشيرٍ (٧)

* * *

وأبدى اللى فيها سطورا مينةً عباراتها أن كلُّ بيت سيُدْمَرُ (٨)

* * *

فالحمد لله ، لا شريك له ليس يباقي شيءٌ على الزمَنِ (٩)

* * *

ثم فارقتُ ذلك غير ذميمٍ كل عيش الدنيا ، وإن طال ، فإن (١٠)

شيء واحد (من المخلوقات طبعًا) هو الوحيد ، فيما يبدو ، الذي استثناه

بشار من ذلك ، وهو الأشعار التي كان يصوغها في ممدوحيه ، وذلك ليبين لهم أنه إذا كان يأخذ منهم مالا زائلاً فإنه يعطيهم في مقابله شيئا باقيا على الزمن لا يفنى ، فهم من ثمّ غير مغبونين بل هم الكاسبون ، وأى كسب ! :

كذلك الدهر يُتلى كل شيء ، ولا يفنى على الدهر القصيدُ (١١)

الهوامش

- ١- ٢ / ٢٩٦ .
- ٢- ٢ / ٣١٧ .
- ٣- ٣ / ١٦ .
- ٤- ٣ / ٢٢ .
- ٥- ٣ / ٦٤ .
- ٦- ٣ / ١٥١ .
- ٧- ٣ / ٢٠٦ .
- ٨- ٤ / ٧٨ .
- ٩- ٤ / ٢١١ .
- ١٠- ٤ / ٢١٣ .
- ١١- ٣ / ١١ .

سمات متفرقة في شعر بشار

الريحان

كرر بشار في قصائده كلمة « الريحان » على نحو يلفت الانتباه : سواء في خمرياته أو مدائحه أو غزله أو رثائه :

مه ، لا أبا لك . إنتى ريحانة فاشمم بأنفك ، واسقها بذناب (١)

* * *

أمن ريحانة حسنت وطابت تبيت مروعا وتظل صبا ؟ (٢)

* * *

بل كيف أسقى على الريحان متكنا وقد تعلقت من أسماء أسايا ؟ (٣)

* * *

فقد هتج شوقى ریح ریحان وطيب (٤)

* * *

وكان كريحان العروس بقاؤه ذوى بعد إشراق الغصون وطيب (٥)

* * *

للشمس يسجد طائعا ريحانته ويبيت يأرق ضيفه بذبابه (٦)

* * *

وإذا ما داود حمل بأرض طاب ريحانها وطاب التراب (٧)

* * *

كأن الروح والريحان فيه المنك مفتوت

جرى فى ماء خديك وفى الأنياب تبيت (٨)

* * *

قد عشت بين الريحان والراح والـ مزهر فى ظل مجلس حسن (٩)

* * *

ريحانة القلب لو كانت تساعدنى إذن رضيت بها من كلّ ریحان (١٠)

أجْدك :

وهذه الكلمة هي أيضا من الكلمات التي لاحظت تكررها في شعر بشار . وهي من الكلمات التي انقرضت تقريبا من الأسلوب العربي . ولا أذكر أني قابلتها في أسلوب أحد من المعاصرين ممن قرأت لهم إلا عند الدكتور طه حسين مرة أو مرتين :

أجْدك من ریحانة طاب ريحها ظللت تُبكي خُلّة وتوحها (١١)

* * *

أجْدك لا أنتِ تدنيننى ولا الصيد متبّع صائدا (١٢)

* * *

أجْدك لا تسي بمقصودة اللوى عشية إذ راحت تجرّ المضدا (١٣)

* * *

أجدهم لم يشعروا بقصائدى تحنّ حنين الحارسات غواذى (١٤)

* * *

أجْدك لا أنتِ تشفيننى ولا الصيد متبّع صائدا (١٥)

* * *

أجدهم لا يتقون دنيسة ولا يؤثرون الخير ، والخير يُؤثرُ (١٦)

الحسد

يشيع في الشعر العربي ذكر الحسد وتلذذ المحسود به والاستزادة منه في كثير من الأحيان ، لأنه انعكاس لآلم الحاسد ، فالمحسود يتلذذ من ثمّ بالآلم عدوّه الذي يحسده ويريد له أن يزداد منه حتى تزداد غصصه وأوجاعه . إن الحسد مغروس في الطبيعة البشرية ، لأن كل إنسان يحب أن يتفرد بالتفوق وأن يكون أعلى من الناس

جميعا . لكن يبدو لى أن شعرنا يفيض بهذا المعنى على نحو جد ملحوظ بحيث إننى لأخجل من هذه الظاهرة خوفاً من أن يقال إننا ، دون غيرنا ، أمة من الحاسدين . إن الحسد موجود فى كل أمة ، ما فى ذلك شك . ولكن هل يشيع التعبير عنه فى آداب الأمم الأخرى وأشعارها بخاصة كما يشيع فى أدبنا ؟
على أية حال ، هذه بعض شواهد على هذا المعنى من الشعر العربى القديم .
قال عمر بن أبى ربيعة :

ولقد قالت لجاراتِ لها
أكما ينعتنى تُبصِرْتنى
فتضحكن وقد قلن لها :
حسداً حُمَلْنه من أجلها
وقال الكُمَيْتُ بن زيد :

إن يحسدونى فإنى لا ألومهمو
فَدَامَ بى وهم ما لى وما لهمو
أنا الذى يجدونى فى حلوقهمو
لا يُنْقِصُ الله حسادى ، فإنهم
وقال عروة بن أذينة :

إنى حُسِدْتُ ، فزاد الله فى حسدى
ما يُحَسِّدُ المرءَ إلا من فضائله
وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طَوَيْتُ
لولا اشتعال النار فيما جاورت
وقال البحترى :

محسِّدٌ بخلال فيه فاضلة
وليس تفترق النعماء والحسدُ

ثم يأتى بشار . وهذه بعض أبياته التى ذكر فيها الحسد . والحسد فى شعر
 بشار إمّا موجّه إليه أو إلى حبيبه أو إلى مدوحه ، بل إنه هو نفسه ليحسد ملايس
 الحبيبة غيرةً منها لأنها تلامس جسدها وهو لا . وكذلك يحسد عينها لأنها ترى
 جمالها وهو محروم منه . كما أن الياقوت والدر يحسدان هذه الحبيبة لتفرقتها عليهما
 فى الجمال والنفاسة . وهو يتلذذ بحسد من يحسدونه ويدعو الله أن يديمه عليهم ولا
 يحرّمهم منه حتى يظلوا فى أنمٍ وعناء :

حسدتسى حين أصبتُ الغنى ما كنتَ إلا كابن حواءِ
 لاقى أخساه مسلماً مُحْرِمًا بطعنة فى الصبح نجلاء (١٧)

* * *

متحاسدين على لقاء مُسَوِّدٍ رحب الفناء جَدِّ على أصحابِهِ (١٨)

* * *

ولمّا رأى الحسادُ رُوْحَ بنِ حاتمٍ أميرًا عليه بيتُ مُلْكٍ مُطَنَّبٍ
 أصاخوا كأن الطير فوق رؤوسهم يشيرون موتًا فوقهم يتقلَّبُ (١٩)

* * *

وإن سُرَّ حسادى فسيكِ واسد عَجَّ على الناس لا يسطيعه المُتَفَجِّعُ (٢٠)

* * *

حسدتُ عليها كلَّ شىءٍ يمتهَا وما كنتُ لولا حبُّها بِحَسُودٍ (٢١)

* * *

تحمدها الجاراتُ من حسنِها ومثلُ عبادةِ قَلْبِ حَسَدِ
 يحسدن منها قصبًا مائلًا للقلبِ والخلخالِ والمغضدِ
 والدرّ والياقوتِ يحسدنِها مناطةً فى الأوضَحِ الأَجِيدِ (٢٢)

* * *

يحسُدُنْ فضلَ جمالِها لا تعدمى حسدُ الحواسدِ (٢٣)

* * *

ولقد حسدتُ على عبيدة عيبتها عجباً خلقتُ لما أحبُّ حسوداً (٢٤)

* * *

أرى الإزار على حبي فأحسده إن الإزار على ما ضمَّ محسودُ (٢٥)

* * *

كلوا الخلافة واحشوا عين حاسدكم قبحاً يفقته العوَّارُ والرَّمدُ

كم حاسد لكمو يرجو خلافتكم قد كاد يفقأ منه المقلَّة الحسدُ (٢٦)

* * *

أنصفتُمونا فعابوا حكمكم حسداً واللَّه يعصمكم من غلِّ حُسادِ (٢٧)

* * *

لعنةُ الله على جاريةٍ صرفتُ قلبكِ عني حسداً (٢٨)

* * *

فَعَالِكِ مَحْمُودٍ ، وَأَنْتِ مُحَسَّدٌ وهل تجد المحمودَ إلا محسداً (٢٩)

* * *

وحاسد قبة بُيِّتَ لِرَوْحِ أطال عمادها سلفٌ وآدوا

فقلتُ له : أراك حسدتَ رَوْحاً كذاكَ الْمَلِكُ يحسده العبادُ

تشدَّدْ ، لا تمت حسداً وغمًا لِرَوْحِ مُلْكِهِ ، ولك الكيادُ (٣٠)

* * *

وزيرُ أمين المؤمنين وسيفه إذا نفع الشيطان في أنف حاسد (٣١)

* * *

إن يحسدوني فإني غير لاتهمم قبيل من الناس أهل الفضل قد حُسيَدُوا (٣٢)

* * *

أيام يحسدها وذى ويحسدنى ما لا أنالُ نساءً كُنَّ حُسَادَا (٣٣)

* * *

أيام يحسدها الثنا جاراتها وسط النساء . ومثلها فليحسد (٣٤)

لا تتكرى غل حساد غنمهمو لا يبتنى المجد إلا كل محسود (٣٥)

وما أخذك الحسنين ولكن أحسد المنزور (٣٦)

لا ينقص الله حسادي ، فإنهمو أحبّ عندي من اللاني له الوؤد (٣٧)

لا عشت خلوا من الحساد ، إنهمو أعزّ قعداً من اللاني أحبوني

أبقى لى الله حسادا وغهمو حتى يموتوا بدياً غير مكنون (٣٨)

الصادر والوارد

تتكرر فى شعر بشار عدة ثنائيات لفظية منها « الصادر والوارد » :

كثرت مواهبه الكبا رُ لصادار منبا ووارد (٣٩)

ولا يزال وإن شابت لهازمه مذبذبا بين إصدار وإيراد (٤٠)

أدر كالأزق مربوطا برمتيه قد بدء الطعن إصدارا وإيرادا (٤١)

فأصبح العبد الذميم ذاعرا

لا يحمد الوؤد ولا المصادرا (٤٢)

ومازلت حتى أوردتلك منية على أختها . ما بالنية مصدّر (٤٣)

يؤرد الهيم ولا يترضه حازم فى الوؤد محمود الصدّر (٤٤)

الرغب والرهب

ومن هذه الثنائيات « الرغب والرهب » ، اللتان يستعملهما في الغالب مسكني

العين :

أظهَر رَهْبَةً وَتُسَّرَ رَغْبًا لقد عذبتني رَغْبًا ورَهْبًا (٤٥)

* * *

فدَعَوْتُ رَتِي دَعْوَةً جَمَعَتْ رَغْبَ المَحَبِّ وشِدَّةَ الرَّهْبِ (٤٦)

* * *

رَهْبًا بِالذِي لاقَيْتُ تُ بَيْنَ الرَغْبِ والرَّهْبِ

فَرَهَبِي مِنْكَ فَي شَغَفِي وَمِنْ مَوْتِ الهَوَى رَغْبِي (٤٧)

* * *

مِنْ رَاغِبٍ يَعْبدُ العِيَالَ نَوَالِهِ بَعْدَ الرِّجْوَعِ وَرَاهِبٍ لِعَقَابِهِ (٤٨)

* * *

حَدَّثَنِي العِيُونَ عَنْهَا فَحَالَفَ تِ المَصْلَى أَدْعُو إِلَهِي مَكْتَبًا

كَدَعَاءِ المَكْرُوبِ فِي لَجَّةِ البَحْرِ مَر ينادي الرَّحْمَنَ رَغْبًا ورَهْبًا (٤٩)

* * *

فَتَأَيَّتْ عَلَيَّ مَسْتَسْأَذِنٍ مَشْرَفِ المُنْبِرِ فَضْفَاضِ الأُرْزُ

رَهْبَةً أَوْ رَغْبَةً فَي وَدِي إِنَّهُ إِنْ شَاءَ أَحَلَّنِي وَأَمَّرَ (٥٠)

* * *

يَا عَبْدَ ، إِنِّي قَدْ ظَلِمْتُ ، وَإِنِّي مُبْدِ مَقَالَةَ رَاغِبٍ أَوْ رَاهِبٍ (٥١)

الطارف والتليد

ومن الثنائيات التي تكثر في شعر بشار لفظتا « الطارف والتليد

(أو التلاد) :

فَبِتُّ لَمَّا زَوَّدْتَنِي وَكَأَنَّيَ مِنْ الْأَهْلِ وَالْمَالِ التَّلَادِ حَرِيبُ (٥٢)

* * *

طَبِيبِي ، دَاوِنِي وَتَأَنَّ سَقْمِي لَكَ الْيَوْمَ التَّلَادُ عَلَى النِّجَاحِ (٥٣)

* * *

رَجُلٌ سَيِّدٌ لِلطَّبِيبِ تَلَادِهِ إِنْ كَانَ ذَا ثِقَةٍ لَهُ بِنِجَاحِ (٥٤)

* * *

قَلْبْتُ لِلنَّطَاسِي : أُعْطِيكَ لَكَ تِلَادِي وَطَارْفِي بِالنِّجَاحِ (٥٥)

* * *

فَتَاءٌ لَهَا عِنْدِي دَخِيلٌ كَرَامِي وَسَاعَفُ حُبِّ مَن طَرِيفٍ وَتَالِدِ (٥٦)

* * *

فَتَلِكِ التِّي نَصَحِي لَهَا وَمُودَتِي وَنَصْرِي وَمَالِي طَارْفٌ بَعْدَ تَالِدِ (٥٧)

* * *

مَطْبَرْتُ سَحَائِبُهُ عَلَيْهِ لَكَ مِنَ الطَّرَائِفِ وَالتَّلَادِ (٥٨)

* * *

وَطَارْفٌ حَبِّ أَصَابِ الْفَوْأِ دَ وَجِدْتُ تِبَارِيحَهُ زَائِدًا (٥٩)

* * *

فَدَنِي لِبْنِي الْعِبَاسِ نَفْسِي وَأَسْرَتِي وَمَا مَلَكَتْ نَفْسِي طَرِيفًا وَمُتَلَدًا (٦٠)

* * *

لَا تَصْرَمِيهِ يَا عَبِيدَةَ وَأَقْصِدِي نَفْسِي فِدَاكَ وَطَارْفِي وَتِلَادِي (٦١)

* * *

فَتَلِكِ التِّي نُصَحِي لَهَا وَمُودَتِي وَقَبْضِي مَالِي طَارْفِي بَعْدَ تَالِدِي (٦٢)

* * *

إِنِّي لِأُنْجِزَ مَا وَعَدْتُ عَلَى الطَّرِيفِ وَفِي التَّلَادِ (٦٣)

* * *

إذا طارف الحب أنجلي عنك هممة شاء من الحب الدخيل تلابد (٦٤)

* * *

دعى ما تصنعين ، فدتك نفسى ، وطارفى بعد التلابد (٦٥)

* * *

كأنك لم تعلمى أنسى ملبت الوسادة والعائدا

لطارف حبة أصاب الفؤا د ، وقد يمنع الطارف التالدا (٦٦)

النفس (أو الروح) والجسد :

ومن هذه الثنائيات أيضا « النفس (أو الروح) والجسد » . وهذه شواهد

عليهما :

قل للرباب : ارجعى روحى إلى جسدى أو عللىنى بوجه منك وضاح (٦٧)

* * *

يا قوم ، نفسى لها معلقة ما بعد نفسى بصالح جسدى (٦٨)

* * *

أنتِ الأميرة فى روحى وفى جسدى فابرى ورشى . بكفتيك الأقاليد (٦٩)

* * *

شريك روحك يأوى منك فى جسدى ما دام يُرزقُ منه الروحُ والجسدُ (٧٠)

* * *

نحش نيران حرب غير خامدة تحت العجاج بأرواح وأجساد (٧١)

* * *

إن كنتِ تخشين شريكاً فى مودتكم فقد تبئت بين الروح والجسد (٧٢)

* * *

ما كان إلا حديثاً جارياً لم تلقَ روحى ووافقت جسدى (٧٣)

* * *

- أَبَقِيَتْ مِنْ قَلْبِي حَشَاشَتَهُ . وَحَلَلْتِ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ (٧٤)
 * * *
 سَلَبْتِ فَوَادِكَ يَوْمِ رُحْتُ ، وَغَادَرْتِ جَسَدًا أَجَاوِرَهُ بِغَيْرِ فَوَادٍ (٧٥)
 * * *
 فَبَتَّ أَبْكِي مِنْ حُبِّ جَارِيَةٍ لَمْ تَجْزِنِي نَائِلًا وَلَمْ تَكْذِبْ إِلَّا حَدِيثًا كَالْخَمْسِرِ ، لَذَّتْهُ تَكُونُ سُكْرًا فِي الرُّوحِ وَالْجَسَدِ (٧٦)

الحَلَبُ وَالْحَرَمِيُّ

ومما تكرر في شعر بشار تكررًا لافتًا ألفاظُ المرءى والحَلَبِ ، سواء في مدائحه أو غزلياته . وإليك شواهد ذلك :

- وَحَلَبْتِ كَفَى لِقَوْمٍ حَلِيبًا فَلَمْ أُرْشِحْ لِعَشِيرٍ ضَبًّا (٧٧)
 * * *
 لَوْ حَلَبَ الأَرْضَ بِأَخْلَافِهَا دَرَّتْ لَهُ الحَرْبُ دَمًا ، فَاحْلُبِ (٧٨)
 * * *
 عِنْدِي مِنَ الشَّبْهِهَةِ البَيَانُ ، وَمَا تَطَلَّبُ إِلَّا البَيَانَ مِنْ حَلِيبَةٍ (٧٩)
 * * *
 تُعْطَى الفَرِيرَةُ دَرَّهَا ، فَإِذَا أَبَتِ كَانَتْ مَلَامَتُهَا عَلَى الحَلَابِ (٨٠)
 * * *
 وَإِذَا جَفَوْتَ قَطَعْتُ عَنْكَ مَنَافِعِي وَالدَّرَّ بِقِطْعَةٍ جَفَاءُ الحَالِبِ (٨١)
 * * *
 فَإِذَا امْتَرَيْتَ كُبُورَ أمِ مُحَمَّدٍ رَجَعْتَ يَمِينِكَ بِالحَلَابِ الخَائِبِ (٨٢)
 * * *
 فَارْضِي بِأَشْبَاهِ مَا عَمَلْتَ بِنَا لِكُلِّ نَفْسٍ مِنْ كَفَّهَا حَلَبُ (٨٣)
 * * *

فاحلب لبونك إيساسا وتمرية لا يقطع الدر إلا عيُّ مُحْتَلَبِ (٨٤)

* * *

قالت سليمي : أعندنا شُغْلٌ عنك ؟ ولكن لا تُحْسِنُ الحَلْبَا (٨٥)

* * *

وما يلدوا إلا أغسر متوجا له راحة تنكي وأخرى تُحَلَّبُ (٨٦)

* * *

حلمى أصمُّ ، وراحتى للطالبيين تحلَّبُ (٨٧)

* * *

أخاف انقطاع الدر بعد ابتزازه وتبليغ من يسدي الحديث وينسجُ (٨٨)

* * *

حلبتُ بشعري راحتيه وقد رنا سماحا. كما در السحابُ على الرعدِ (٨٩)

* * *

تدر له أخلاف در غزيرة ودرت لنا كفاء من نائل تجرى (٩٠)

اللحمة والسدى ، والنسيج والنير :

تكررت هذه الألفاظ المتعلقة بالملايس ونسجها في شعر بشار :

أخاف انقطاع الدر بعد ابتزازه وتبليغ من يسدي الحديث وينسجُ (٩١)

* * *

وليكن ما وعدتني نسج نير على سدا (٩٢)

* * *

تلحيمُ أمرا وأمورا تُسدي وابنُ حكيمٍ إذ أتاك يردي (٩٣)

* * *

كسوتك حلة مما أدي برودا لا يفارها برودُ (٩٤)

* * *

فما برحوا يَسُدُّونَ حتى رماهمو بملمومٍ لم تُتَّقِ نيرًا ولا سِداً (٩٥)

* * *

عُمرَ القوائد أسديها وألحدها كأن رأسك منها في أعاصيرِ (٩٦)

* * *

ومن العجائب أن أفرحَ صالحٍ يَسُدِّي على كبيرهم ويُيِّرُ (٩٧)

* * *

فَشِينُ نَفْسِكَ أو زِنْهَها فإن البُرْدَ بالتيِّرِ (٩٨)

تشبيه الشعر بالعنب

كرّر بشار تشبيه الشعر بالعنب في غزارته واسوداده . كما شبهه بقصبٍ ديجورٍ

مرة واحدة على الأقل :

ولها وارد الغدائر كالكرم سوادًا قد حان منه انتهاء (٩٩)

* * *

رأسى كأنه عنبٌ ؟ (١٠٠)

* * *

مبتل الخلق هضم الحشا ذو شعير كالكرم غريب (١٠١)

* * *

وزارنى من لم يكن يزورُ

من دونه الحجابُ والشورُ

...

أيام رأسى قصبٍ ديجورُ (١٠٢)

* * *

ووارد كمرش الكرم تجفله بواضح يجفل العينين فى حور (١٠٣)

الكمون

من التشبيهات التى لفتتنى فى شعر بشار ، على رغم قلتها ، تشبيهه
المواعيد الخادعة التى لا تنجلي عن شئ ، (سواء فى العطاء أو فى الحب) بسقى
الكتون ، الذى يزعم الناس أنه يُروى بالأمانى فيُكْتَفَى فى سقيه بأن يقال له : « غدا
نسقيك ، وبعد غد يكفيك » . وقد ذكر ابن عاشور مثلاً عامياً يقول : « عيش
بالمنايا كمون » (١٠٤) . قال بشار :

يعقوبُ ، قد ورد العفأةُ عشيةً متعرضين لسيك المتتاب
فسقيتهم وحسبتنى كموتةً نبتت لزراعها بغير شراب
مه ، لا أبالك . إتسى ربحانة فاشمم بأنفك ، واسقها بذناب (١٠٥)

* * *

ليس المحبَ ككمونٍ بمزرعةٍ إن فاته الماءُ أغنته المواعيدُ (١٠٦)

* * *

وعدت فلم تصدق ، وقلت : « غداً غداً » كما وُعد الكمونُ شرباً مؤخراً (١٠٧)

* * *

إذا جنته يوماً أحال على غدٍ كما وُعد الكمونُ ما ليس يصدقُ (١٠٨)

صيغة « أملاك »

لاحظنا من قبل كثرة ذكر « الملوك » فى شعر بشار . وهنا نشير إلى
تكرر استخدامه لصيغة « أملاك » الأقل شيوعاً تكررنا ملحوظا ، إلى جانب صيغة
« ملوك » ، وهى الصيغة الأشيع والأكثر انتشارا :

نهانى مالك الأملاك عنها فشاب الجلمُ وانقطع العنَاءُ (١٠٩)

* * *

أبناء أملاك من صلى لقبلتنا فكلمهم ملكٌ بالتاج مُعْتَصِبُ (١١٠)

* * *

وأَمَلَاكِ وَهَبْتُ لَهُمْ ثَنَانِسِي وليس كزَاخِرِ التَّيْلِ التَّمَادُ (١١١)

* * *

أَبِي نَجَلُ أَمَلَاكِ وَوَزُّ خَلِيفَةَ يلين له بَابِ الهمَامِ إِذَا وَفَدَ (١١٢)

* * *

أَنْتِ ابْنِ أَمَلَاكِ لَهُمْ نَكِيرُ (١١٣)

* * *

قَدْ زَرْتُ أَمَلَاكِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَزَارَنِي الْبَيْضُ الْمَعَاصِيرُ (١١٤)

* * *

تَثَاقَلْتُ إِلَّا عَنِ يَدِ اسْتِفِيدَهَا وَزُورَةَ أَمَلَاكِ أَشَدَّ لَهَا أَزْرَى (١١٥)

* * *

وَعِنْدَكَ عَهْدٌ مِنْ وَصَاةِ مُحَمَّدٍ فَرَعَعْتَ بِهَا الْأَمَلَاكِ مِنْ وَلَدِ النَّضْرِ (١١٦)

* * *

كَأَنِّي مِنَ الْأَمَلَاكِ أَمَلَاكِ هَاشِمٍ بِأَبْوَابِهِمْ مِنْ مَجْتَدِينَ وَمِنْ مُثْرٍ (١١٧)

* * *

وَأَمَلَاكِ صَدَقَ أَلْبَسْتَنِي طَرَازَهُمْ قَصَائِدُ مَالِي غَيْرِهِنَّ شَفِيعُ (١١٨)

وَإِذَا كَانَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ ، يَذْكَرُ فَإِنَّ الْمُتَنَبِّيَّ قَدْ اسْتَخْدَمَ هُوَ أَيْضًا هَذِهِ الصِّيغَةَ

عَدَدًا مِنَ الْمَرَاتِ يَكَادُ يَسَاوِي هَذَا الْعَدَدَ ، إِذْ أَحْصَيْتَهَا فِي شَعْرِهِ مَرَاتٍ تَسَعًا عَلَى

الْأَقْل (١١٩) .

أُمَّاتٌ

وَمِنَ الصَّيغِ الْجَمْعِيَّةِ الَّتِي قَلِمَا تُسْتَخْدَمُ صِيغَةُ « أُمَّاتٌ » (جَمْعُ « أُمٌّ ») ،

الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا بِشَارَ عِدَّةِ مَرَاتٍ بَدَلًا مِنْ « أُمَّهَاتٌ » الشَّائِعَةِ :

أَلَا إِنَّ اللَّتِيمَ أَبَا قَدِينَا وَأُمَّاتٌ إِذَا ذُكِرَ النَّسَاءُ

نتيج بين خنزير وكلب يرى أن الكمار له شفاء (١٢٠)

* * *

قل من طاب له أبواؤه وعلى أئاته حسن الثنا (١٢١)

* * *

مؤيننا على الأئام جلد على وجل ، فدرهمه قيود (١٢٢)

* * *

يعيشون فى أئاتهم وبناتهم يعقونها عن رائد وفراد (١٢٣)

* * *

إذا سهلست أئاته حرن ... لهن فكانت محجة وسفاد (١٢٤)

وقد أشار الشيخ ابن عاشور إلى أن هذه الصيغة ، وإن كانت قياسية ، هى صيغة نادرة (١٢٥) . كما أورد استعمال المتنبي لها فى بيت للأمهات البشريات كما هو الحال فى الأبيات التى سقناها هنا من شعر بشار (١٢٦) . وقد أشرت أنا أيضا فى كتابى « لغة المتنبي - دراسة تحليلية » إلى بيت آخر استعملها فيه المتنبي للأمهات غير العاقلات (١٢٧) .

يا صاح / يا خليلي

من التقاليد الشعرية العربية اتجاه الشاعر بالنداء لصاحبه أو خليليه أو أصحابه (١٢٨) . وهذا التقليد من التقاليد الشعرية القديمة ، لأننا نجده فى أقدم شعر عربى وصلنا . ومن ذلك معلقة امرئ القيس . وها هو ذا بشار ينادى بدوره صاحبه وصاحبيه :

يا صاح ، بلانى طلاب الهوى وصرف إبرىق عليه النقاب (١٢٩)

* * *

خليلى ، لا تستكرا لوعة الهوى ولا سلوة المحزون شطت حابئة (١٣٠)

- * * *
- يا صاحبي ، العشيّة احتسباً جَدَّ الهوى بالفتى وما لَمِباً (١٣١)
- * * *
- يا خليلي ، أَلَمَّا بى بها نظرة ثم سلانى عن وَصَبَ (١٣٢)
- * * *
- يا صاح ، قل فى حاجتى : أَذَكَرَّهَا فيما ذكرتا ؟ (١٣٣)
- * * *
- صاح ، أوصيك إليها ثقة ، فاحفظ وصاتى (١٣٤)
- * * *
- خليلي ، ما بال الدجى لا تَزَحْرَحُ ؟ وما بال ضوء الصبح لا يتوضَّحُ ؟ (١٣٥)
- * * *
- خليلي ، اتادكما بمنذرٍ ولومكما أخا غيرُ اتادِ (١٣٦)
- * * *
- يا صاح ، يَبْسُنْ حاجتى إن البيان مع السدادِ (١٣٧)
- * * *
- يا صاح ، لا تَلْسُو العدا تِ ، فإنها دِينُ الهوادى (١٣٨)
- * * *
- بَكِّرا صاحبي قبل الهجيرِ إن ذاك النجاح فى التكبيرِ (١٣٩)
- * * *
- يا خليلي ، أصيبا أو ذرا ليس كل البرق يُهدى المطرا (١٤٠)
- * * *
- فيا صاح ، خبّرنى الذى أنت صانع بقاتلتى ظلما وما طَلَبْتَ دَحْلاً (١٤١)

يا عجباً !

يتكرر عند بشار كثيراً استخدامه هذه الصيغة التعجبية : « يا عجباً ، يا كبداً ، يا حسنها ، يا عجباً ، يا مجلساً ... إلخ » ، وذلك فى مواقف التأوه والتعجب والإعجاب :

فيا كبداً فيها من الشوق قرحة وليس لها مما تحب شفاءً (١٤٢)

* * *

يا حسنها حين تراءت لنا مكسورة العين باغفاءٍ ! (١٤٣)

* * *

فيا عجباً من الحب المؤتسى ! وحسبك بالغيور من القحاب (١٤٤)

* * *

ولو ان الهوى تزحزح عنى شتتتنى ، فيا فدا كل حنبا ! (١٤٥)

* * *

على النأى محزون ، وفى القرب مُفرم فيا كبداً ! أى الطريقين أركبُ ؟ (١٤٦)

* * *

فيا عجباً من باهلى يسبنى ! مطية كئدير قرى وأريب (١٤٧)

* * *

فيا عجباً ! زنتُ نفسى بحتها وزانت بهجرى نفسها وتحلت (١٤٨)

* * *

يا حسن سلمى حين يحدو بها لا عجلُ السوق ولا رائثُ ! (١٤٩)

* * *

يا حسنها إذ تقول ما زحمة ونحن فوق السرير نعتفجُ ! (١٥٠)

* * *

فيا عجباً من يئها قبل ئلها ومن سَنَطِ فيه القوارير تُخرجُ

...

ويا كبداً قد أنضح الشوقُ نصفها ونصفاً على نار الصبابة يُنضحُ (١٥١)

* * *

فواعجبا ! صفوتُ لغير صافٍ وأعطيتُ الكريمةَ من يشحُّ (١٥٢)

* * *

فيا مجلساً لم نقض فيه لباتةً ويا ليلةً قد كنتُ عنها بمقعد (١٥٣)

* * *

فيا حزناً ! فى الصدر منك حرارةً وفى النفس حاجات تشوقُ ولا تُجدي (١٥٤)

* * *

فيا عجباً من بُعدِ سُعدى قريسةً ومن قربها فى البعد ! وتلى على البُعدِ !

فيا سقما فقدُ الحبيب إذا نأى ورؤيته فى النوم أودى من الفقدِ (١٥٥)

* * *

فيا كبداً من الطَّربِ المُعتى إليها ! إن أهونه شديدُ (١٥٦)

* * *

أمالت صفاء الوُدِّ مَنْ حيل دونها فيا حَزَنِي ! لا نلتقى آخر الأبدِ (١٥٧)

* * *

فيا حسنها لولا العيون ! فإنها إذا أرسَلت يوماً أحالت على القَدِ (١٥٨)

* * *

فيا حَزَنًا بعد جنيةً عليها القلائدُ والمجسَدُ !

ويا كبداً ! ليس منها لى نوال ، ولا عندها لى يَدُ (١٥٩)

* * *

يا عجباً للخلاف ! يا عجباً ! يفى الذى لام فى الهوى الحَجَرُ (١٦٠)

* * *

فيا حَزَنًا ! بان الشباب ، وحاجتى إليهن بين العين والقلب تَسْجُرُ (١٦١)

* * *

فيا عجباً من العبد المذكى أظلمنى وليس بذى سوار ؟ (١٦٢)

لله درك

هذه من العبارات التي لفتتني بتكررها في شعر بشار ، وإن لم تكن كثيرة

لتكرار . وهذه شواهدا :

لله درك ! ألم تَسْمُوسُو بَقَادِمَهُ أَوْ يُنْصَفِ الدَّهْرُ مِنْ يَلْوَى فَيَعْتَقِبُ (١٦٣)

* * *

للسه درى ! لا أرى عاشقا إلا جرى دمعى وطال انتحابُ (١٦٤)

* * *

وَكَفَيْتَ رَهْطَكَ وَاحِدًا لِلَّهِ دَرْكٌ ، أَيُّ وَاحِدٌ ! (١٦٥)

* * *

لله دركمو من أهل مملكة ما إن لها عنكمو فى الأرض مُتَّخِذُ (١٦٦)

* * *

لله درهمو جندا إذا حَمِسُوا وَشَبَّتِ الحَرْبُ نَارًا بَعْدَ إِخْمَادٍ ! (١٦٧)

* * *

فَلِلَّهِ دَرُ المَالِكِيَّةِ إِذْ صَبَّتْ إِلَى اللّهُو أَوْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى رُشْدِ (١٦٨)

* * *

لله درك يا مهدى من مَلِكِ لَوْلَا اصْطِنَاعَكَ يَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ ! (١٦٩)

كل امرىء ...

لاحظت تكرر هذه العبارة في شعر بشار :

لا تَخْشَ غَدْرِي وَلَا مَخَالَفَتِي كَبَلِ امْرِئِهِ رَاجِعٌ إِلَى حَسْبَةِ (١٧٠)

* * *

كُلِّ امْرِئٍ نَصَبٌ لِحَاجَتِهِ وَعَلَيْهِ يَحْمِلُ أَوْ لَهُ نَصْبَةٌ (١٧١)

* * *

- دَعَهْنَ لِلْمَهَبِ الضَّالِيلَ مَوْرَدَهُ يَا قَلْبُ ، كُلُّ امْرِيءٍ رَهْنٌ بِمَا اكْتَسَبَا (١٧٢)
- * * *
- وَكُلَّ امْرِيءٍ سَاعٍ ، وَلِلنَّفْسِ غَايَةً وَمَا الدَّاءُ إِلَّا الدَّاءُ غَيْرَ وَدُودٍ (١٧٣)
- * * *
- كُلُّ امْرِيءٍ رَهْنٌ بِمَا يُوْدِي وَرَبِّ ذِي تَابِجٍ كَرِيمِ الْمَجْدِ (١٧٤)
- * * *
- عَوَدَتَ نَفْسِكَ أَنْ تُضَامَ ، فَخَلَّهَا كُلَّ امْرِيءٍ رَهْنٌ بِمَا يَتَعَوَّدُ (١٧٥)
- * * *
- كُونَا كَمَنْ قَالَ : لَا نَعَاتِبُهُ كُلَّ امْرِيءٍ مُنْتَهٍ إِلَى أَمْدٍ (١٧٦)
- * * *
- تَعَوَّدَ أَخَذَ الْحَمْدَ مَنَّا بِمَالِهِ وَكُلَّ امْرِيءٍ جَارٍ عَلَى مَا تَعَوَّدَا (١٧٧)
- * * *
- دَعِ الْفَخْرَ لِلْأَحْرَارِ ، إِنَّكَ تَارِكٌ لِأَفْعَالِهِمْ . كُلَّ امْرِيءٍ رَهْنٌ مَا مَهَّدُ (١٧٨)
- * * *
- أَمَّا الْبَخِيلُ فَلَمَسْتَ أَعْدْلَهُ كُلَّ امْرِيءٍ يَعْطَى عَلَى قَدْرِهِ (١٧٩)

لحى الله ...

- تكررت هذه العبارة أيضا عند بشار عددا من المرات . وإليك الشواهد :
- لَحَى اللّهُ فِرْزَا . مَا أَضَلَّ مَكَانَهُ وَأَعْجِبَهُ ! قَدْ فَاقَ كُلَّ عَجِيبٍ (١٨٠)
- * * *
- لَحَى اللّهُ أَبْنَاءَ الْخَلِيقِ ، فَإِنَّهُمْ خَنَازِيرُ حَشٍّ سُخْرَتِ لِسُرُوبٍ (١٨١)
- * * *
- لَحَى اللّهُ حَمَادَ بَنِ نَهْيَا ، فَإِنَّهُ ذَمِيمٌ إِذَا مَا قَامَ ، عِلْجٌ إِذَا قَعَدَ (١٨٢)
- * * *

تتح ، لحاك الله ، لست من العدد ، وليس أبوك الوغلُ بالسيد السندا (١٨٣)

* * *

لحسى الله قوماً غيرونى بحتها ، وقد سبق المقدارُ فى القلب والخلد (١٨٤)

* * *

لحى الله قوماً رأسوك عليهمو ، ومازلت مرزوسا خبيث المطاعم (١٨٥)

ريح فلان

ومثل عبارة « لحي الله فلانا » يتكرر عنده أيضاً تعبير « (يا) ريح

فلان » دلالةً على الإعجاب أو التعجب أو التألم وإظهار الهم :

ربنان يا ويحه من بنان ، كنبات سقاء جَمَّ زَوَاءُ ! (١٨٦)

* * *

ملأتُ فؤاده غيظا وعمسا ، فيا وريح المحبة من الطلاب ! (١٨٧)

* * *

يا وريح حماد ! أمن نظرة ، راح أسيراً غير مجنوب ! (١٨٨)

* * *

يا أرض ، ويحك ! أكرمه ، فإنه ، لم يبق للتعكى فيك ضرب ! (١٨٩)

* * *

يا وريح فاطمة ، التى فُجِعَتْ به ، وتشققت منها عليه جيوب ! (١٩٠)

* * *

ريح نفسى ! أكلما دب واش ، بحديث وثبت للهجر وثبا ؟ (١٩١)

* * *

يا وريح نفسى ! أما لنا أبدا ، من جها سلوة ولا قرخ (١٩٢)

* * *

يا ويحها طفلة خلوتُ بها ! ليست ذنونى فيها من العدد (١٩٣)

* * *

ويح نفسي ! أنن دلال فتاةٍ 'راح همى وخف عنى الهجود ؟' (١٩٤)

* * *

يا ويحها خلّة كانت مواعدُها كالليل غرت به الأحلام رقّادا ! (١٩٥)

* * *

يا ويح نفسي ! أراها كلما انبعثت ألقى عليها صبايات الكرى القدر (١٩٦)

* * *

ويحها كاعبها تدلّ بجهنم . كعشيّ كأنه حمّام ! (١٩٧)

عليه سلام الله

ومن العبارات التي تلفت النظر بتكرورها في شعر بشار أيضا قوله : « عليه (عليك) سلام الله » بهذا الترتيب أو بمقلوبه : « سلام الله على ... » أو نحو ذلك :

على الفرّكى سلامُ الله منى وإن صَنَعَ الخليفةُ ما يشاء (١٩٨)

* * *

فعلى عقبَةَ السلامِ مقيما وإذا سار تحت ظل اللوإ (١٩٩)

* * *

فعليكَ السلامُ . خيمتَ فى المُلْدِ كِ وغودِرْت كالمصابِ الغريبِ (٢٠٠)

* * *

سلامُ الله ذى العرشِ على وجهك يا حبيى (٢٠١)

* * *

فعليك ، يا عمرو ، السلام ، فإننا باكوك ما هبت صبا وجنوب (٢٠٢)

* * *

دعاها الهوى والحب نحوى فأرسلت : عليك سلامُ الله فى البركات (٢٠٣)

* * *

إذا ركبنا منّا بليل فقل لها : عليك سلام ! مات من يتزوج (٢٠٤)

* * *

على عينها منى السلام وإن غدت مفارقة تخذى إلى غير مقعد (٢٠٥)

* * *

على الفزكي منى السلام ، وربما خلوتُ بها من عاربٍ في خلا تدي (٢٠٦)

* * *

روحى ، عليك سلامُ الله ، وادعة لا يقطع الإلفَ شيءٌ غيرُ مقدور (٢٠٧)

* * *

على الفزكي منى السلام ، فرميا لهوتُ بها في ظل مرزومة زهر (٢٠٨)

* * *

كان لى صاحبًا فأودى به الدهر سر وفارقته . عليه السلام (٢٠٩)

* * *

عبد ، يا همتى ، عليك السلام فيم يُجفَى حبيك المستهام ؟ (٢١٠)

* * *

لا نائلٌ منك ولا موعدٌ ولا رسولٌ ، فعليك السلام (٢١١)

جزى الله فلانا ...

ومثل الدعاء بـ « سلام الله على فلان » نرى هذا الدعاء : « جزى اللـ

فلانا ... » قد تكرر أيضا عنده :

فجزى الله عن أخيك ابنَ سلم حين قلّ المعروفُ خير الجزاء (٢١٢)

* * *

جزى الله عن قومي سفيحاً كرامةً وعن رجلٍ يُهدى له الحمد والوداء (٢١٣)

* * *

إن الأمير ، جزاه الله سالحةً ، فى كل سالحةٍ أمسى له أثرُ (٢١٤)

* * *

جزى الله مهديّ الصلاة كرامةً لقد فلّ عن ديني وخفّف من ظهري (٢١٥)

* * *

قل للأمير : جزاك الله سالحةً لا يجمعُ الدهرَ بين السخّلِ والذبيبِ (٢١٦)

* * *

فقلتُ : أحسنتِ يا سؤلى ويا أملى فأسمعني ، جزاك الله إحسانا (٢١٧)

* * *

أما علمتَ ، جزاك الله سالحةً عنى وزادك خيرا يا ابن يقطينِ

أنى أريدك للدينا وزينتها ولا أريدك يوم الدين للدين ؟ (٢١٨)

ليت شعرى

هذه العبارة من العبارات التى يكثر بشار من استعمالها ، وهذه شواهدا :

ألا ليت شعرى هل أزورك مسرةً وليس علينا يا عبّيدُ رقيبُ ؟ (٢١٩)

* * *

ليت شعرى تبكين إن متّ من حبـك أو تضحكين يا خُشّابةً ؟ (٢٢٠)

* * *

ليت شعرى جدّدتِ يوم التقينا أم تصدّين من لقيتِ بلعبِ ؟ (٢٢١)

* * *

ليت شعرى عن الرباب وقد شطّبت بها الدارُ هل لها إسقابُ ؟ (٢٢٢)

* * *

كلّ يومٍ تتعبُ الودُ منه ليت شعرى أيحسبُ الودُ عتباً ؟ (٢٢٣)

* * *

فليت شعرى على قيل الوشاة لنا إذا أزمع الحى وانصاعوا لتصعيدِ (٢٢٤)

* * *

يا ليت شعري ومنر القيط مختلفٌ
على شرجيين ملفوظٌ ومتردزذ
ما بال موسى ومن يدعى لبيّته
كأنه قفصٌ في ثوبه ضرذ ؟ (٢٢٥)

* * *

بل ليت شعري هل يدنو بكم سببٌ ؟
وهل تعودنّ أيامي بأجباد ؟ (٢٢٦)

* * *

يا ليت شعري ، والقصد من خلقي
والناس من جانر ومقتصد
ما زادني ذا الجوى بذكرهمو
إلا هجوعًا ؟ والهّم كالوتد (٢٢٧)

* * *

ليست شعري أكلهنّ بخيلٌ
مثل ما قد يكون أم هنّ جودٌ ؟ (٢٢٨)

* * *

ليت شعري عن ذلك الشخص إذا شط
هل دعما شوقه الوساد ؟ فإني
ت به نيةً إلى أجباد
لم أنل بعده اشتياق وسادى (٢٢٩)

* * *

ألا يا ليت شعري يوم تبدو
أدلت بالصدود أم استزادت
بها صبرٌ وصبرى غير باد
فتى في الحب ليس بمستزاد ؟ (٢٣٠)

* * *

ألا ليت شعري على هجرها
أنتعل أن لها ذاتدا ؟ (٢٣١)

* * *

يا ليت شعري ماتت فأندبها
أم أحدثت صاحبًا فأنحز ؟ (٢٣٢)

* * *

يا ليت شعري فيم كان صدوده
أسأت أم رعدت السحاب وأمضا ؟ (٢٣٣)

* * *

ليت شعري غداة خلّيت في الجيد
مد حنيفًا خلّيت أم زنديقا ؟ (٢٣٤)

لَعْمَرُ ...

يكثر القسم عمومًا في شعر بشار ، وبالذات بـ « لعمر ... » . وقد لاحظتُ أن جملة القسم بعدها هي في الغالب جملة مثبتة مبدوءة بفعل ماضٍ مسبوق بـ « لقد » :

لَعْمَرُ أَبِيهَا مَا جَزَّتْنَا بِنَائِلٍ وَمَا كَانَ مِنْهَا بِالْوَفَاءِ وَفَاءُ (٢٣٥)

* * *

وَرِمَا قَلْتُ : « لَعْمَرِي » تَسِيًّا الْعَضْبُ أَشْهَى ، فَأَذَقَنِي الْعَضْبَا (٢٣٦)

* * *

لَعْمَرِي لَقَدْ دَافَعْتُ مَوْتَ مُحَمَّدٍ لَوْ أَنَّ الْمُنَايَا تَرَعَوَى لِطَيِّبِ (٢٣٧)

* * *

لَعْمَرِي لَقَدْ أَعْطَيْتَ عِرْسًا مَرِيئَةً وَقَدْ يَقْطَعُ الْهَمُّ الْفَتَى بِمُرِيْبِ (٢٣٨)

* * *

لَعْمَرِي لَقَدْ أَشْمَتَ بِي عَيْنِ نَائِمٍ فَنَامَ ، وَهَمَّتِي سَاهِرٌ يَتَوَجَّحُ (٢٣٩)

* * *

لَعْمَرِي لَقَدْ أَزْرَى سَهِيلٌ بِصَهْرِهِ وَوَلَّاهُمُو فِي شِرْكِهِ غَيْرَ صَالِحِ (٢٤٠)

* * *

أَنْتَ لَعْمَرُ اللَّهِ أَوْجَدْتَهَا عَلَيَّ حَتَّى كَدَرْتُ مُورِدِي (٢٤١)

* * *

لَعْمَرِكَ مَا تَرَكَ الصَّلَاةَ بِمَنْكَرٍ وَلَا الصَّوْمَ إِنْ زَارْتَكِ أُمُّ مُحَمَّدِ (٢٤٢)

* * *

لَعْمَرِي لَقَدْ أَخْطَأَتْ رَأْيِكَ فِيهِمُو وَمَا كُلٌّ مِنْ تَهْوَى أَصَابِ مُرَادِ (٢٤٣)

* * *

فَلَا تَلَمَّ النَّهْرِيَّ إِنْ قَلَّ جَرْتُهُ لَعْمَرُ أَبِيكَ الْوَالِقَى لَقَدْ جَهْدُ (٢٤٤)

* * *

لعمري لقد أجدى على ابن يرمك وما كل من كان الغنى عنده يُجدى (٢٤٥)

* * *

لعمري أبى لقد بُدلت عيشا بعيشك . والأمور إلى مجارى (٢٤٦)

* * *

لعمري لقد صاهرت موسى بن صالح فما يُحسِنُ الدجالُ إن كان قد شَعَرَ (٢٤٧)

* * *

لعمري لقد أوقرتُ نفسى خطيئةً فما أنا بالمزادِ وقراً على وقِرِّ (٢٤٨)

* * *

لعمري لقد هذبتُ قولى ولم أدعُ مقالاً لمفتابٍ ودعوى لمن لحا (٢٤٩)

* * *

لعمري ، لئن أصبحت فوق مشذبٍ طويلٍ تعفبك الرياحُ مع القَطْرِ

لقد عشتَ مبسوط اليدين مبرزاً وعوفيتَ عند الموت من ضغطة القبرِ (٢٥٠)

* * *

وعدتَ ولم تُكرهَ ، وأخلفت طائعا لعمري لقد بالغتَ فى البخلِ والجَهْلِ (٢٥١)

إضافة المصدر أو المشتق المحلى بـ « أل » إلى معموله :

من التركيبات التى تبرز فى شعر بشار إضافة المصدر أو المشتق (اسم الفاعل

غالبًا) المحلى بـ « أل » إلى معموله . وهاهى ذى الشواهد :

أيها السائلى عن الحزم والنجم دة والبأس والتدى والوفاء (٢٥٢)

* * *

فلقد أسوى للضفائس مثلها وأصى البغيضَ ، ولستُ بالهَيَّابِ (٢٥٣)

* * *

لقد عنيّتَ عما أقاسى بذكرها وعمما يقول الشاهدى حين أطربُ (٢٥٤)

* * *

من المستهلات الهموم على الفتى خفا برقها من عصفير وعقود (٢٥٥)

* * *

وافق حظًا من سعى بجد قل للزير السائل عن وُلدى (٢٥٦)

* * *

أيها اللانسي ، ولم آت بأنا ، يشهد الله والثلاث الشهود (٢٥٧)

* * *

قل للغواة الطالبي شأوهم : لا يدرك الريح المجامير (٢٥٨)

* * *

أبا عُمير ، ما فى طلايك حاجة ولا فى الذى منيّتا ثم أضجرا (٢٥٩)

* * *

ولولا استيحائك خضبتُها وعَلقتُ فى جيدها جُلجُلًا (٢٦٠)

* * *

ألا أيها السائل جاهدا ليعرفنى ، أنا أنف الكرم (٢٦١)

وقائلة : ... / وقائل : ...

هذا التركيب قد تكرر وروده عند بشار ، إذ نراه يقطع فجأة ما كان بسبيله من فكرة ثم يبدأ معنى جديدًا يفتتحه بقوله : « وقائل : ... » أو « وقائلة : ... » مورداً بعده القول المقول ثم يعقب عليه . وهذه بعض أمثلة :

وقائل : إن متّ فى طلب الصبا فلا بد أن تُحصى عليك ذنوب (٢٦٢)

* * *

وقائل : إذ رأى شوقى وصفحكمو : دعها ، فما لك منها غير تصيب (٢٦٣)

* * *

وقائل : نام عن أسماء شاكبة لا نوّت عنه إن كان كذابًا (٢٦٤)

* * *

وقائله : مالى رأيتك خاشعاً وقد كنت مما أن تلذّ وتطربا (٢٦٥)

* * *

وقائله حين استحقّ رحيلنا وأجفان عينها تجود وتسكب :

أغاد إلى حران فى غير شيعه وذلك شأؤ عن هوانا مغربُ ؟ (٢٦٦)

* * *

وقائل صحّ من دائى تجنّبهُ لم يلق عجباً وإن حدّثه عجباً :

مالى رأيتك لا تصبو إلى لعبٍ ؟ فقلت : من قرّ عيننا بالهوى لعبا (٢٦٧)

* * *

وقائل : سرّه دهر وساء بنا سريته فى أخ برّ ومولود (٢٦٨)

* * *

وقائله : إن العيال معسول عليك ، فلا تقعدْ وأنت مُضِيعُ (٢٦٩)

* * *

وقائل : « هات شوقنا » ، فقلت له : أنائم أنت يا عمرو بن سنانِ ؟ (٢٧٠)

اسم نكرة + حرف جر (أو عطف) + نفس الاسم منكرا :

من التراكيب البشارية أنه كثيرا ما يورد اسماً نكرة مشفوعاً بحرف جرّ أو

عطف أو ظرف بعده نفس الاسم منكراً مرة ثانية . وإليك هذه الأمثلة على ما نقول :

ألقى إليه عمراً شيمَةً كانت موارست أبٍ عن أبٍ (٢٧١)

* * *

وتُمنّى والماء عليك مُرُّ يقبّك الهوى جنباً فجنباً (٢٧٢)

* * *

ظلمتني والهوى مقارضةً كيلاً بكيلٍ ، فكيف نصطحب ؟ (٢٧٣)

* * *

إذا قدحت منها الصباةُ تتجتّ عقاربٌ فيها عقرباً ثم عقرباً (٢٧٤)

ورث الأبوّة كابراً عن كابرٍ * * *
تَلِدُ الضَّرَاءَ فَهِنَّ مِنْ أَكْسَابِهِ (٢٧٥)

وقد نزلوا يوماً بأوضحِ كاملٍ * * *
ولأياً بلائٍ من أضاحِ استقلتِ (٢٧٦)

لولا الخليفة أنا لا نخالفه * * *
لقد دلفنا لأروادِ بأروادِ (٢٧٧)

ومن حبها أبكى إليها صبايةً * * *
وألقي بها الأحزانِ وقدّأ على وقدِ (٢٧٨)

وناعمة التأييبِ عديتُ ليلها * * *
بتكليفناها فدفدا ثم فدفا (٢٧٩)

مضى شأؤه قبل الجيادِ ، وقُرؤهُ * * *
طيراً الأعادي مشهداً بعد مشهدِ (٢٨٠)

أخترت رُشدك في غدٍ فقَدِ * * *
بل كيف تأمن ما يسوقُ غَدُ ؟ (٢٨١)

ولكنّ عقلي مجلساً بعد مجلسٍ * * *
لنفسك مما لا تتألُ فسَادُ (٢٨٢)

من الصَّيدِ ولاغُ الدماءِ إذا غدا * * *
ومستمطر المعروفِ وقراً على وقَرِ (٢٨٣)

وقالت : هويتَ فَمُتتَ راشداً * * *
كما مات عروءُ غمّاً بِغَمِّ (٢٨٤)

لا والله

تكرر عند بشار القسم (بالله في كل الأحوال تقريباً) مسبوقاً بـ « لا » أو « ولا » أو « فلا » . وإليك شواهد هذا التركيب :

لقد أنكرتُ يا عبْدَ جفَاءَ منك فى الكُتْبِ
 أعن ذنوب ؟ ولا واللـ له ما أحدثتُ من ذنبي
 ولا والله ما فى الشر ق من أنسى ولا الفرب
 سواك اليوم أهواها على جدّ ولا لعبي (٢٨٥)

* * *

أحسّى ليس لى صبر وإن رخصت لى جيئت
 ولا والله ما يصبر ر فى البرية العوت (٢٨٦)

* * *

وقالوا : لو صفحت عن النصارى ! ولا والله ما بأخيك صفتح (٢٨٧)

* * *

ما الليت مفترشا فى الغيل كلكلّة على منابه من فوقه يتد
 يوماً بأجراً ، لا والله ، منك إذا أبناء حرب على نيرانها اختردوا (٢٨٨)

* * *

إذا فارقتهما صبت على الهيم والفكرا
 وإن لاقيتهما كانت لنا كالمكسر أو سكر
 ولا والله لا أدرى أروم الوصل أم هجرا (٢٨٩)

* * *

فلا وأبيك ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء (٢٩٠)

تكرر الاسم المفرد بعد إضافته :

استطعت أن ألاحظ أيضا فى شعر بشار هذا التركيب الذى يقوم على تكرير

الاسم المفرد مضافاً ، وإن لم أجد له أمثلة كثيرة :

ويغدّ غدّ شمس طالعت من مزنات (٢٩١)

* * *

وَيَوْمَ الْجَنَّةِ حِينِوِ بِنَى زِيَادٍ قِفَا نَبَأُ وَأَعَيْنَهُمْ شَهْوَدُ (٢٩٢)

* * *

كَأَنَّ فَوَادَهُ يَنْزِي حِيَادَا حِذَاوَرِ الْبَيْنِ لَو نَفَعِ الْحِيَادُ (٢٩٣)

* * *

لَنَعْمَ الرَّبِّ رَبُّ إِبْنِي دُخَانٍ إِذَا نَفَضَ الشِّتَاءُ عَلَيِ الْقِتَارِ (٢٩٤)

* * *

كَأَنِّي مِنَ الْأَمْلَاقِ أَمْلَاقِ هَاشِمٍ بِأَبْوَابِهِمْ مِنْ مَجْتَدِينَ وَمِنْ مُثَرِّ (٢٩٥)

حذف « لا » من الفعل المضارع بعد القسم

تكرر عند بشار حذف « لا » الداخلة على الفعل المضارع بعد القسم . وهذه

هي الشواهد :

فَاذْكُرِي حَلْفَتِي : أَقَارِفُ أُخْرَى يَوْمَ رَكِي تَلِكِ الْيَمِينِ الْبِكَاءُ (٢٩٦)

* * *

وَاللَّهِ أَنْسَاكَ يَا أَسْمَاءُ مَا طَرَفَتْ عَيْنِي وَمَا قَرَقِرَ الْقُمْرَى إِطْرَابَا (٢٩٧)

* * *

أَلَيْتُ أَرْضِي بِالذِي سُمِّتِي أَوْ يِعِثُ الْمَوْتَى لَنَا بَاعِثُ (٢٩٨)

* * *

خَفَضُ جَشَاكَ عَلَيِ نَأَى الدَّنَوِّ بِهَا أَلَيْتُ أَدْبِي نَصِيحَا مَا وَحَى وَاحِ (٢٩٩)

* * *

كَأَنَّمَا أَقْسَمْتَ عَيْنِي تُسَالِمُهُ حَتَّى تَرَى أَحْوَرَ الْعَيْنِينَ فِي الْجَادِي (٣٠٠)

* * *

عَلَيِ الْيَتَةِ وَعَلَيِ نَذْرُ أَمْسَكَ طَانَعَا إِلَّا بِعُودِ (٣٠١)

وقد جاء في كتاب « الشعراء السّود وخصائصهم في الشعر العربي » للدكتور

عبده بدرى في الفصل الخاص بسحيم عبد بنى الحسجاس ما يفيد أن بعضهم يخطئ.

هذا التركيب ، إذ قال ما نصّه : « وهناك من يأخذ عليه (أى على سحيم) قوله :
وقد أقسمت بالله يجمع بيننا هوى أبداً حتى تحوّل أمرداً
لأن المقصود : أقسمت بالله لا يجمع بيننا » (٣٠٢) . وقد أحال المؤلف فى الهامش
إلى صفحة ٤٠ فى الديوان ، وإلى صفحة ٢١٦ من المجلد الأول من « الخصائص » .
وقد رجعت إلى هذين الموضعين من الكتابين المذكورين فلم أجد فيهما شيئاً يفهم منه أن
هناك من ينكر على سحيم حذف « لا » فى البيت بعد القسم . ويبدو أن فى الأمر
سهواً . على أية حال فقد جاء فى « همع الهوامع » للسيوطى أنه « يجوز بلا شذوذ
حذف (لا) النافية مع مضارع لم يؤكد بالنون ، نحو (تالله تفتأ) ، أى لا تفتأ ،
للعلم بأن الإثبات غير مراد ، لأنه لو كان مراداً لجيء باللام والنون ، بخلاف المؤكد
بها لأنه يلتبس حينئذ بالمشبّه » (٣٠٣) . وفى « النحو القرآتى - قواعد وشواهد »
تعليقاً على قوله تعالى : « قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضاً أو تكون
من الهالكين » يقول د. جميل أحمد ظفر : « أى (لا تفتأ) . فحرف النفى فى
الآية مقدر . ولا ينقاس حذف حرف النفى إلا إذا كان الفعل مضارعاً واقعاً فى
جواب القسم ، وحرف النفى (لا) كما فى الآية الكريمة » (٣٠٤) .
إذن فبشار حين حذف فى الشواهد المازة « لا » من جواب القسم عند دخولها
على الفعل المضارع غير المؤكد باللام كان يجرى على سنن صحيح بل فصيح .

إضافة اسم يدل على الزمان إلى جملة

ومما يكثر عند بشار إضافة اسم يدل على الزمان (مثل « ليالى ... »
و « أيام ... » و « عشية ... » و « أوآن ... ») إلى جملة هى فى الغالب فعلية
فعلها ماضٍ ، وأحياناً اسمية . وذلك غالباً فى سياقٍ تُذكرُ اللقائات العاطفية السابقة
بينه وبين صاحبه :

تذكرُ من أحببت إذ أنت تافعُ غلامٌ فمفتاه إليك حبيبٌ

ليالى تشتاق الجواز غريسةً إلى قود أسرارٍ وهنَّ غُيوبُ (٢٠٥)

* * *

يا سلم ، هل تذكرين مجلسنا أيام رأسى كأنه عنبُ (٢٠٦)

* * *

ويوم صفحتُ الركبَ بعد لجاجه وقفتُ بها قصراً وهنَّ خرابُ (٢٠٧)

* * *

سقى الله القباب بتلّ عبدي وبالشرقَيْن أيام القباب

...

ليالى لا أعوج على المنادى ولا العذال من صمّ الشباب (٢٠٨)

* * *

اذكرى ليلسةً نلهو فى رعود وسحاب (٢٠٩)

* * *

يا حبذا الكأسُ وحورُ الدُمى أزمانَ ألهو والهوى لا يعابُ (٢١٠)

* * *

وقد قامت وليدتها تغنى عشيةً جاها أنى اشتكيتُ (٢١١)

* * *

أيامَ معروفٍ على الضنا منها ، ولولا حبتها ما ضنيتُ (٢١٢)

* * *

فهذا أوانُ انقضتْ شرّسى وشرعتُ فى الدين لا أطلعُ (٢١٣)

* * *

ليالى اغدو بينهن مُرقلاً أحبُّ وأعطى حاجتى غيرَ ملحاح (٢١٤)

* * *

عشيةً زادتسى الزيارة فتنةً فأقبلتُ محروماً بها لم أزدُ (٢١٥)

* * *

أَيَّامَ عِبَادَةٍ وَسَطَهُ ————— مِنْ كَأَنهَا أُمُّ الْقَلَانِدِ (٣١٦)

* * *

لِيَالِي نَدْنُو فِي الْجَوَارِ وَنَلْتَقِي عَلَى زَاهِرٍ يَلْقَى الْغَزَالَةَ بِالسُّجْدِ (٣١٧)

* * *

أَيَّامٌ لَا أُعْتَبُ الْعَذَالَ مِنْ صَمَمٍ وَلَا أَكْلَفُ زَيْدًا غَيْرَ إِسْعَادِ (٣١٨)

* * *

ذَكَرْتُ الْقَاطِعَاتِ عَلَى بِلَادِ فَلِلْعَيْنَيْنِ مِنْ سَبِيلِ فَرِيدِ

غَدَاةٌ يَرُوقُهُ كَفَّلَ نَيْلُ وَعَيْنٌ فِي النِّقَابِ لَهَا صَيُودُ (٣١٩)

* * *

وَزَارَنِي مِنْ لَمْ يَكُنْ يَزُورُ

مَنْ دُونَهُ الْحِجَابُ وَالسُّورُ

...

أَيَّامَ رَأْسِي قَصَبٌ دِيَجُورُ (٣٢٠)

* * *

غَدَاةٌ تَصْبُرَتْ كَلْبٌ عَلَيْنَا

وَلَيْسَ لَهَا عَلَى الْمَوْتِ اصْطِبَارُ (٣٢١)

* * *

وَعَرُوسٌ يَشْرَبُ فِي الْمَجَاسِدِ وَالْحَيَا أَيَّامَ فَضْلُ جَمَالِهَا مَذْكُورُ (٣٢٢)

* * *

فَهَذَا أَوَّانُ اسْتَحْيَتِ النَّفْسُ ، وَارَعَوَى لِدَاتِي ، وَرَاجَعْتُ الَّذِي كَانَ أَقْوَمَا (٣٢٣)

وإني ، وإن كنتُ / لم أكن ، ...

تكرر في شعر بشار استخدام جملة اعتراضية مكونة من « الوار + إن + فعل

ماضي مثبت أو مضارع منفي يدل على المضي (في كل الأحوال تقريبا هو فعل

إنى ، وإن كنتُ حمالاً أجاوره ، صرام حبل التمنى بالأكاذيب (٢٢٤)

* * *

إنى ، وإن كان حلمي واسعاً لهمو . لا أستهلّ على جار بشؤبوب (٢٢٥)

* * *

إنّا ، وإن لم تكن منا مساعفةً بما هويتَ وكنا عنك فى أشبٍ ،
نهوى الحديث ونستبقى مناصبنا إن الصحيحة لا تبقى مع الجرب (٢٢٦)

* * *

ليس النعيم ، وإن كنا نُزَنَ به ، إلا نعيم سهيلٍ ثم حماد (٢٢٧)

* * *

إنى ، وإن كان جمع المال يعجبنى ، ما يعدل المالُ عندى صحة الجسد (٢٢٨)

* * *

إنى ، وإن قصرت خطاى ، لنأزح من هجر بيتك ، غيرة المهجور (٢٢٩)

* * *

فأبلغ بنى زيد وقل لسراتهم ، وإن لم يكن فيهم سرأة توقّرُ :

لأمكم الويلات . إن قصائدى صواعقُ منها مُنجدٌ ومُفوّزٌ (٢٣٠)

قلة القوافى الداخلية

يقالُ فى شعر بشارٍ القوافى الداخلية ، على عكس ما نجده عند كثير غيره من الشعراء . حتى المتنبى الذى أتهم من بعض الدارسين بقلة الموسيقى فى شعره وجدتُ له من هذا الضرب من الموسيقى شيئاً كثيراً مع التنوع والتفنن فيه (٣٣١) . أما فى شعر بشار فإننى لم أنتبه إلا لهذه الأمثلة ، وهى كما ترى جدٌ قليلة بحيث لا تُذكر :

فخمة فُعمّة برودُ الشايَا صلعةُ الجيد غادةُ غيداءُ (٣٣٢)

* * *

فَأَنْتَ الْعَيْدِيُّ ، وَرِدَّ السَّرْدِيُّ ، وَابْذُلْ فَمَا شِئْتَ بِخَالِدٍ (٢٣٣)

* * *

سِرٌّ غَيْرِ وَأَنْ وَلَا ثَانٍ عَلَى شَجَنِ ، إِنَّ الْإِمَامَ لَمَنْ صَلَّى بِمِرْصَادٍ (٢٣٤)

الهوامش

- ١-١ / ١ / ١٦٢ .
- ١-٢ / ١ / ١٦٥ .
- ١-٣ / ١ / ٢٠٨ .
- ١-٤ / ١ / ٢٢٣ .
- ١-٥ / ١ / ٢٥٦ .
- ١-٦ / ١ / ٢٨٥ .
- ١-٧ / ١ / ٣٣٩ .
- ١-٨ / ٢ / ٢٠ .
- ١-٩ / ٤ / ٢٠٩ .
- ١-١٠ / ٤ / ٢٢٠ .
- ١-١١ / ٢ / ١٤٢ .
- ١-١٢ / ٣ / ٣ .
- ١-١٣ / ٣ / ٣٠ .
- ١-١٤ / ٢ / ٨٣ . والحارسات : سباع الصيد وكلايه .
- ١-١٥ / ٣ / ١٤٧ .
- ١-١٦ / ٤ / ٧٢ .
- ١-١٧ / ١ / ١٣٠ .
- ١-١٨ / ٢ / ٢٨٨ .
- ١-١٩ / ١ / ٣٤٨ .
- ٢-٢٠ / ٢ / ٨٩ .
- ٢-٢١ / ٢ / ١٥٨ .
- ٢-٢٢ / ٢ / ١٧٥ - ١٧٦ .
- ٢-٢٣ / ٢ / ٢٤٤ .

. ٢٦٠ / ٢ - ٢٤

. ٢٧٠ / ٢ - ٢٥

. ٢٩٣ / ٢ - ٢٦

. ٣٠١ / ٢ - ٢٧

. ١١ / ٣ - ٢٨

. ٣٩ / ٣ - ٢٩

. ٥٤ / ٣ - ٣٠

. ٨٢ / ٣ - ٣١

. ٩٧ / ٣ - ٣٢

. ٩٩ / ٣ - ٣٣

. ١١٦ / ٣ - ٣٤

. ١٥٤ / ٣ - ٣٥

. ٣٠٥ / ٣ - ٣٦

. ٣٥ / ٤ - ٣٧ . وقد سبق هذا البيت بنصه تقريرا عند الكميت كما رأينا قبل

صفحات .

. ٢١٧ / ٤ - ٣٨

. ٢٤٨ / ٢ - ٣٩

. ٣٠٠ / ٢ - ٤٠

. ١٠٠ / ٣ - ٤١

. ٢٣٩ / ٣ - ٤٢

. ٢٦١ / ٣ - ٤٣

. ٢٩٤ / ٣ - ٤٤

. ١٦٦ / ١ - ٤٥

. ٢١٤ / ١ - ٤٦

. 208 / 1 - 24
. 291 / 1 - 28
. 281 / 1 - 31
. 292 / 2 - 00
. 18 / 2 - 01
. 18 / 1 - 02
. 112 / 2 - 03
. 129 / 2 - 04
. 00 - 2 / 131
. 70 - 2 / 102
. 21 / 2 - 05
. 80 - 2 / 102
. 2 / 2 - 06
. 21 / 2 - 07
. 70 - 2 / 08
. 21 - 2 / 09
. 21 / 2 - 10
. 70 - 2 / 11
. 21 - 2 / 12
. 21 - 2 / 13
. 70 - 2 / 14
. 21 - 2 / 15
. 21 - 2 / 16
. 21 - 2 / 17
. 21 - 2 / 18
. 21 - 2 / 19
. 21 - 2 / 20
. 21 - 2 / 21
. 21 - 2 / 22
. 21 - 2 / 23
. 21 - 2 / 24
. 21 - 2 / 25
. 21 - 2 / 26
. 21 - 2 / 27
. 21 - 2 / 28
. 21 - 2 / 29
. 21 - 2 / 30
. 21 - 2 / 31
. 21 - 2 / 32
. 21 - 2 / 33
. 21 - 2 / 34
. 21 - 2 / 35
. 21 - 2 / 36
. 21 - 2 / 37
. 21 - 2 / 38
. 21 - 2 / 39
. 21 - 2 / 40
. 21 - 2 / 41
. 21 - 2 / 42
. 21 - 2 / 43
. 21 - 2 / 44
. 21 - 2 / 45
. 21 - 2 / 46
. 21 - 2 / 47
. 21 - 2 / 48
. 21 - 2 / 49
. 21 - 2 / 50
. 21 - 2 / 51
. 21 - 2 / 52
. 21 - 2 / 53
. 21 - 2 / 54
. 21 - 2 / 55
. 21 - 2 / 56
. 21 - 2 / 57
. 21 - 2 / 58
. 21 - 2 / 59
. 21 - 2 / 60
. 21 - 2 / 61
. 21 - 2 / 62
. 21 - 2 / 63
. 21 - 2 / 64
. 21 - 2 / 65
. 21 - 2 / 66
. 21 - 2 / 67
. 21 - 2 / 68
. 21 - 2 / 69
. 21 - 2 / 70
. 21 - 2 / 71
. 21 - 2 / 72
. 21 - 2 / 73
. 21 - 2 / 74
. 21 - 2 / 75
. 21 - 2 / 76
. 21 - 2 / 77
. 21 - 2 / 78
. 21 - 2 / 79
. 21 - 2 / 80
. 21 - 2 / 81
. 21 - 2 / 82
. 21 - 2 / 83
. 21 - 2 / 84
. 21 - 2 / 85
. 21 - 2 / 86
. 21 - 2 / 87
. 21 - 2 / 88
. 21 - 2 / 89
. 21 - 2 / 90
. 21 - 2 / 91
. 21 - 2 / 92
. 21 - 2 / 93
. 21 - 2 / 94
. 21 - 2 / 95
. 21 - 2 / 96
. 21 - 2 / 97
. 21 - 2 / 98
. 21 - 2 / 99
. 21 - 2 / 100

- . ٢٠٢ / ٢ -٧١
- . ٢١٧ / ٢ -٧٢
- . ٧ / ٢ -٧٣
- . ٢٦ / ٢ -٧٤
- . ٦٥ / ٢ -٧٥
- . ٦٦ / ٢ -٧٦
- . ١٣٧ / ١ -٧٧ . والضبيّة : الحقد .
- . ١٥٥ / ١ -٧٨
- . ١٥٧ / ١ -٧٩
- . ١٦٣ / ١ -٨٠
- . ١٦٧ / ١ -٨١
- . ١٦٩ / ١ -٨٢
- . ١٩٢ / ١ -٨٣
- . ٢٦٥ / ١ -٨٤
- . ٣٢٤ / ١ -٨٥
- . ٣٤٦ / ١ -٨٦
- . ٣٥٨ / ١ -٨٧
- . ٨٨ / ٢ -٨٨
- . ١٢٥ / ٢ -٨٩
- . ٢٩٨ / ٢ -٩٠
- . ٨٨ / ٢ -٩١
- . ٢١٣ / ٢ -٩٢
- . ٢٣٧ / ٢ -٩٣
- . ١٨ / ٢ -٩٤

- . ٢٨ / ٣ -٩٥
- . ٢٦٣ / ٣ -٩٦
- . ٣٠١ / ٣ -٩٧ . وأفرخ صالح : أبناء صالح بن علي بن عبد الله بن عباس .
- . ٣٠٨ / ٣ -٩٨
- . ١١٩ / ١ -٩٩
- . ١٩١ / ١ -١٠٠
- . ٣٧٠ / ١ -١٠١
- . ١٨٢ / ٣ -١٠٢
- . ٢٤٥ / ٣ -١٠٣ . ويجفل : يزين .
- . ١٠٤ - أنظر الديوان / ١ / ١٦٢ / هامش ٣ .
- . ١٦٢ / ١ -١٠٥
- . ٢٧٠ / ٢ -١٠٦
- . ٥٨ / ٤ -١٠٧
- . ١١٩ / ٤ -١٠٨
- . ١٠٤ / ١ -١٠٩
- . ٢٣٧ / ١ -١١٠
- . ٥٢ / ٣ -١١١
- . ١٥٢ / ٣ -١١٢
- . ١٨٩ / ٣ -١١٣
- . ١٩٤ / ٣ -١١٤ . والمعاصير : الشواب .
- . ٢٧٥ / ٣ -١١٥
- . ٢٨٤ / ٣ -١١٦
- . ٢٧٧ / ٣ -١١٧
- . ١٠٣ / ٤ -١١٨

١١٩- انظر كتابي « لغة المتنبي - دراسة تحليلية » / مطبعة الشباب الحر ومكتبتها /

١٩٨٧ م / ٤٥ .

١٢٠- ١ / ١٢١ .

١٢١- ١ / ١٢٣ .

١٢٢- ٢ / ١٩ .

١٢٣- ٢ / ٨٧ .

١٢٤- ٢ / ١١٠ . والمحذوف كلمة بذينة .

١٢٥- انظر الديوان / ١ / ١٣٣ / ١ هـ .

١٢٦- نفس المرجع والصفحة والهامش .

١٢٧- انظر كتابي المذكور / ٤٦ .

١٢٨- تكلم البروفسور بيستون أيضا عن هذه السمة من سمات الشعر العربي القديم ،

إلا أنه ظن أن النداء لا يكون إلا لصاحبين اثنين لا غير . وهذا غير دقيق ، والصواب أن

الشاعر قد يتجه إلى واحد ، أو إلى اثنين ، أو إلى جماعة من أصدقاء حقيقيين أو متخيلين

(انظر كتابه : Selections from the Poetry of Baâsar , p. 8) ومع ذلك فلن بعض

القدماء من علماء العرب قد قال شيئا قريبا من هذا . ومنهم ابن سيده ، الذي يقول إنه يكثر

في شعر العرب مخاطبة صاحبين وخليلين دون أقل أو أكثر لأن أقل عدد في المسافرين يكون

ثلاثة (انظر كتابه « شرح مشكل أبيات المتنبي » / تحقيق محمد حسن آل ياسين / دار

الطليلة / بيروت / ط ١ / ص ١٩٠) . والصواب ، فيما نرى ، هو ما قلناه .

١٢٩- ١ / ٢٧٦ .

١٣٠- ١ / ٣٠٧ .

١٣١- ١ / ٣٢٣ .

١٣٢- ١ / ٣٤٨ .

١٣٣- ٢ / ٥٠ .

١٣٤- ٢ / ٥٥ .

01-1 / 2-130
 131-1 / 2-131
 132-1 / 2-132
 133-1 / 2-133
 134-1 / 2-134
 135-1 / 2-135
 136-1 / 2-136
 137-1 / 2-137
 138-1 / 2-138
 139-1 / 2-139
 140-1 / 2-140
 141-1 / 2-141
 142-1 / 2-142
 143-1 / 2-143
 144-1 / 2-144
 145-1 / 2-145
 146-1 / 2-146
 147-1 / 2-147
 148-1 / 2-148
 149-1 / 2-149
 150-1 / 2-150
 151-1 / 2-151
 152-1 / 2-152
 153-1 / 2-153
 154-1 / 2-154
 155-1 / 2-155
 156-1 / 2-156
 157-1 / 2-157
 158-1 / 2-158
 159-1 / 2-159
 160-1 / 2-160

. 121 / 3 - 169
 . 170 / 3 - 170
 . 270 / 3 - 171
 . 271 / 3 - 172
 . 222 / 1 - 173
 . 270 / 1 - 174
 . 202 / 2 - 175
 . 292 / 2 - 176
 . 202 / 2 - 177
 . 8 / 3 - 178
 . 102 / 3 - 179
 . 107 / 1 - 180
 . 202 / 1 - 181
 . 202 / 1 - 182
 . 107 / 2 - 183
 . 221 / 2 - 184
 . 222 / 2 - 185
 . 2 / 3 - 186
 . 27 / 2 - 187
 . 112 / 3 - 188
 . 71 / 2 - 189
 . 277 / 1 - 190
 . 271 / 1 - 191
 . 101 / 2 - 192

- . ١١٣ / ٣ - ١٨٢
 . ١٣٠ / ٣ - ١٨٤
 . ١٧١ / ٤ - ١٨٥
 . ١١٨ / ١ - ١٨٦
 . ٢٠١ / ١ - ١٨٧
 . ٣٦٩ / ١ - ١٨٨
 . ٣٧٢ / ١ - ١٨٩
 . ٣٧٢ / ١ - ١٩٠
 . ٣٨١ / ١ - ١٩١
 . ٧١ / ٢ - ١٩٢
 . ١٨٤ / ٢ - ١٩٣
 . ٢١ / ٣ - ١٩٤
 . ٩٩ / ٣ - ١٩٥
 . ١٥٨ / ٣ - ١٩٦
 . ١٧٥ / ٤ - ١٩٧
 . ١٠٥ / ١ - ١٩٨ . والفَرْكِيُّ : الفَرْكُ .
 . ١١٣ / ١ - ١٩٩
 . ١٩٩ / ١ - ٢٠٠
 . ٢٠٦ / ١ - ٢٠١
 . ٣٧٢ / ١ - ٢٠٢
 . ٥٨ / ٢ - ٢٠٣
 . ٩٥ / ٢ - ٢٠٤
 . ٧٢ / ٣ - ٢٠٥
 . ٧٢ / ٣ - ٢٠٦ . والفَرْكِيُّ : الفَرْكُ . والعاربُ : المتحجبة إلى الرجل .

- . ٢٢٢ / ٣ - ٢٠٧
- . ٢٧٧ / ٣ - ٢٠٨
- . ١٧٨ / ٤ - ٢٠٩
- . ١٨٠ / ٤ - ٢١٠
- . ١٨٥ / ٤ - ٢١١
- . ١١٢ / ١ - ٢١٢
- . ١٣٢ / ٣ - ٢١٣
- . ١٧٦ / ٣ - ٢١٤
- . ٢٨٧ / ٣ - ٢١٥
- . ٢٧ / ٤ - ٢١٦
- . ١٩٤ / ٤ - ٢١٧
- . ٢١٢ / ٤ - ٢١٨
- . ١٨٠ / ١ - ٢١٩
- . ١٩٣ / ١ - ٢٢٠
- . ٢٦٨ / ١ - ٢٢١
- . ٢٣٤ / ١ - ٢٢٢ . والإصقاب : الجوار .
- . ٣٥٢ / ١ - ٢٢٣
- . ٢٠٣ / ٢ - ٢٢٤
- . ٢٩١ / ٢ - ٢٢٥
- . ٣١٨ / ٢ - ٢٢٦
- . ٥ / ٣ - ٢٢٧
- . ٢١ / ٣ - ٢٢٨
- . ٩١ / ٣ - ٢٢٩
- . ١٤٠ / ٣ - ٢٣٠

. ١٥١ / ٣ - ٢٣١

. ٢٦٤ / ٣ - ٢٣٢

. ٩٣ / ٤ - ٢٣٣

. ١١١ / ٤ - ٢٣٤

. ١٢٧ / ١ - ٢٣٥

. ١٢٨ / ١ - ٢٣٦

. ٢٥٥ / ١ - ٢٣٧

. ٣٦٨ / ١ - ٢٣٨

. ٨٨ / ٢ - ٢٣٩

. ١٤٤ / ٢ - ٢٤٠

. ١٧٠ / ٢ - ٢٤١

. ٢٠٦ / ٢ - ٢٤٢

. ١٠٧ / ٣ - ٢٤٣

. ٣٣٢ / ٣ - ٢٤٤

. ١٢٥ / ٣ - ٢٤٥

. ٢٣١ / ٣ - ٢٤٦

. ٢٥٢ / ٣ - ٢٤٧

. ٣٧١ / ٣ - ٢٤٨

. ٣١ / ٤ - ٢٤٩

. ١٧٧ / ٤ - ٢٥٠

. ١٤٣ / ٤ - ٢٥١

. ١١٠ / ١ - ٢٥٢

. ٢٥٣ / ١ - ٢٥٣ . وأحيى : أصيلُ .

. ٣٦٢ / ١ - ٢٥٤

- . ١٥٨ / ٢ - ٢٥٥
- . ٢٢٣ / ٢ - ٢٥٦
- . ٢١ / ٣ - ٢٥٧
- . ١٩٧ / ٣ - ٢٥٨
- . ٥٨ / ٤ - ٢٥٩
- . ١٢٣ / ٤ - ٢٦٠
- . ١٥٦ / ٤ - ٢٦١
- . ١٨٠ / ١ - ٢٦٢
- . ١٩٦ / ١ - ٢٦٣
- . ٢٠٨ / ١ - ٢٦٤
- . ٢١٠ / ١ - ٢٦٥
- . ٢٩٤ - ٢٩٣ / ١ - ٢٦٦
- . ٣٥٥ / ١ - ٢٦٧
- . ١٥٥ / ٣ - ٢٦٨
- . ١٠٣ / ٤ - ٢٦٩
- . ٢٠٤ / ٤ - ٢٧٠
- . ١٥٠ / ١ - ٢٧١
- . ١٦٦ / ١ - ٢٧٢
- . ١٩٢ / ١ - ٢٧٣
- . ٢١٢ / ١ - ٢٧٤
- . ٢٨٦ / ١ - ٢٧٥
- . ١١ / ٢ - ٢٧٦
- . ٣٠٢ / ٢ - ٢٧٧ : والأرواد : مقدمات الجيش .
- . ٩ / ٣ - ٢٧٨

- . ٢٣ / ٢ - ٢٧٩
- . ٦١ / ٢ - ٢٨٠
- . ٦٣ / ٢ - ٢٨١
- . ١٣٦ / ٢ - ٢٨٢
- . ٢٨٩ / ٢ - ٢٨٣
- . ١٥٨ / ٤ - ٢٨٤
- . ٢٠٦ / ١ - ٢٨٥
- . ٢٠ / ٢ - ٢٨٦
- . ١٤٨ / ٢ - ٢٨٧
- . ٢٨١ / ٢ - ٢٨٨
- . ٢٣٨ / ٢ - ٢٨٩
- . ٧ / ٤ - ٢٩٠
- . ٥٣ / ٢ - ٢٩١
- . ١٥ / ٢ - ٢٩٢
- . ٢٤٨ / ٢ - ٢٩٣
- . ٢٧١ / ٢ - ٢٩٤
- . ٢٨٨ / ٢ - ٢٩٥
- . ١١٥ / ١ - ٢٩٦
- . ٢٠٩ / ١ - ٢٩٧
- . ٦٨ / ٢ - ٢٩٨
- . ١٣٤ / ٢ - ٢٩٩
- . ٣١٧ / ٢ - ٣٠٠
- . ١١١ / ٢ - ٣٠١

٣٠٢- الشمراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى / الهيئة المصرية العامة للكتاب /

١٩٧٣ م / ٨٠ - ٨١ .

٣٠٣- همع الهوامع - شرح جمع الجوامع / دار المعرفة / بيروت / ٢ / ٤٣ .

٣٠٤- د . جميل أحمد ظفر / النحو القرآني - قواعد وشواهد / مطابع الصفا بمكة /

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / ٢٢٩ .

٣٠٥ - ١ / ١٨٤ .

٣٠٦ - ١ / ١٩١ .

٣٠٧ - ١ / ٢٢٤ .

٣٠٨ - ١ / ٢٥٠ .

٣٠٩ - ١ / ٢٧٣ .

٣١٠ - ١ / ٢٧٥ .

٣١١ - ٢ / ٧ .

٣١٢ - ٢ / ٢٣ .

٣١٣ - ٢ / ١١١ .

٣١٤ - ٢ / ١١٨ .

٣١٥ - ٢ / ٢٠٩ .

٣١٦ - ٢ / ٣٤٤ .

٣١٧ - ٢ / ٣٦٤ .

٣١٨ - ٢ / ٧١٥ .

٣١٩ - ٣ / ١٤ - ١٥ .

٣٢٠ - ٣ / ١٨٢ .

٣٢١ - ٣ / ٢٥٢ .

٣٢٢ - ٣ / ٣٠٣ .

٣٢٣ - ٤ / ١٦٥ .

٣٢٤ - ١ / ١٩٧ .

- . ٢٦٠ / ١ - ٢٢٥
- . ٢٦٥ / ١ - ٢٢٦
- . ٢ / ٣ - ٢٢٧
- . ١٢٥ / ٣ - ٢٢٨
- . ١٦٦ / ٣ - ٢٢٩
- . ٧١ / ٤ - ٢٣٠

٢٣١- عقدت لهذه السنة عند شعر المتنبي فصلاً مستقلاً في كتابي « لغة المتنبي -

دراسة تحليلية » / ٢٦٦ - ٢٧٥ .

. ١٧٧ / ١ - ٢٣٢

. ٢٥٦ / ٢ - ٢٣٣

. ٣٠٧ / ٢ - ٢٣٤ . والمصلى : المتأخر .

ملاحظات لغوية على شعر بشار

يقال إنه قد قيل لبشار : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه بيتاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشكَّ فيه ، وإنه ليس فى شعرِكَ ما يُشكُّ فيه » ، كان جوابه : « ومن أين يأتينى الخطأ ؟ وُلِدْتُ هاهنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عُقَيْل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلتُ إلى سائهم فمساؤهم أفصح منهم . وأيفعت فأبديتُ إلى أن أدركت . فمن أين يأتينى خطأ ؟ » (١) . وهو كما ترى جواب يدلّ على كمال الثقة بالنفس ، مما لا يخلو من الغرور ، راءاً فجواب الجواب هو : « يأتيك الخطأ من جهة الطبيعة البشرية ، نى لا تنفك عن النقص والسهو والنسيان والوهم وغير ذلك مما يعترى الناس ميغاً ! » .

والطريف أن صاحب « الأغانى » ، وهو مورد الرواية السابقة ، قد أورد آية أخرى فى كتابه خلاصتها أن الأفخش (أو سيبويه) قد أخذ على بشار أنه تتعمل « الغزكى » و « الوجكى » فى محل « الغزك » و « الوجل » على ترتيب فى بيتين له ، رغم أنه لم يُسمع عن العرب ذلك ، وأنه جمع « النون » أى « الحوت » (على « نينان » ، وهو أيضا غير مسموع (٢) . وهذه الرواية ماكس الأولى ، لأنها تدلّ على أن هناك من يجد فى شعر بشار ما يؤخذ عليه ، مما ناقض دعوى الرواية السابقة . وتمضى الرواية فتقول إن بشاراً قد حمى غضبه وتهاد لغوى الذى انتقده ، فكان ذلك اللغوى بعد ذلك يحرص على الاستشهاد بشعر بشار . فأما نحن فلن نخاف من بشار . وليس ذلك لأننا أجراء من الأفخش أو سيبويه ، ولكن لأن الله سبحانه قد توفى الرجل منذ أدهار ، فنحن إذن آمنون من سانه وهجائه . ثم إنه ليس من الضرورى أن تأتى ملاحظتنا فى هذا الفصل كلها بخطئة لبشار ، إذ إن قصدنا منها هو تعرف الحقيقة . وقد تكون الحقيقة فى صفه ،

وقد تكون بعيدة عنه . وفى الحالتين سوف نقول ما نحسب أنه الحق ، ولكن مدركين فى ذات الوقت أن فوق كل ذى علمٍ عليماً ، وأنه يمكن أن يكون قد غاب عنا أشياء . والعصمة لله وحده .

وعلى هذا نقول إننا لا نرى بشاراً قد أخطأ فى جمع « نون » على « نينان » ، فإن « حوت » قد جُمعت على « حيتان » فى القرآن الكريم ، والكلمتان متساويتان وزناً ومعنى . قال تعالى : « تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرْعاً » (٣) ، فتقاس تلك على هذه . أمّا الاستناد فى تخطئة هذا الجمع إلى عدم سماعه عن العرب فهو تعسف لا معنى له ، إذ ليس من المعقول أن نلزم الناس جميعاً بأن يحفظوا مع كل مفرد جمعه التكميرى وألاً يقدموا على جمع أى اسم إلا إذا تأكدوا من الصيغة التى جمعه العرب عليها . إن هذا تجميد للغة وقتل لها ، علاوةً على استحالة تطبيقه فى كثير من الأحيان ، إذ أين الوقت والعلم اللزمان لذلك ؟

لكن يبدو لى أن الأمر مع « الوَجَلَى » و « الغَزَلَى » يختلف عنه هاهنا ، فإنه لو ثبت فعلاً أن هاتين الكلمتين بنصهما لم تُسمعا عن العرب فلا أظنّ أن من حقّ الشاعر أو الكاتب أن يخترعهما ، إذ الأمر فى المصادر الثلاثية مداره فى الأغلب على السماع كما هو معروف . وهذه الصيغة (صيغة « فَعَلَى ») ليست مقيسة ولا جاءت عليها كلمات كثيرة بحيث يمكن التنزع بذلك إلى إلحاقها بالمقيس ، وإلاً لفتحنا الباب أمام أى إنسان ليضبط الأسماء على النحو الذى يحلو له دون أن يكون هناك مرجع من قاعدة أو سماع يحور إليه ، وهذا لو حدث لكان من شأنه إفساد اللغة .

هذا ، وهناك ملاحظات لغوية أخرى على شعر الشاعر . وهذه الملاحظات عبارة عن استعمالات لغوية : بعضها لا يجرى مع القواعد النحوية المعروفة ، وبعضها يتنكب صيغةً شائعة إلى صيغة ليس لها كبير شيوع ، وبعضها تكمن أهميته فى أنه شواهد على صحة بعض التركيبات التى يُظنُّ أنها خطأ . كذلك فقد جمع بشارٌ فى إحدى المرات

كلمةً على غير القياس ، وفى مرة أخرى ركب جملته تركيبًا يصعب توجيهه .
فمن الصنف الأول قوله :

فاذكرى حلفتى أقارف أخرى يوم زكى تلك اليمين البكاء
يوم لا تحسبى يمينى خلايا يمينى تُوقر الأحشاء (٤)
ويبدو أن هناك خطأ فى نسخ البيت أدّى إلى ذلك . ولعلّ الأقرب إلى السياق ، ما دام
الكلام بصيغة الماضى ، أن تكون « لا تحسبى » منقلبة عن « لم تحسبى » . على أن
الأمر من جهتى لا يعدو أن يكون احتمالاً . وهناك من العلماء مع ذلك من يقول إن
حذف النون فى مثل هذه الحالة للتخفيف ، على ما سرف يأتى بيانه بعد قليل .
أما فى البيت التالى :

فلا بدّ أن تغشاك حين غشيتها هواجد أبحارٍ عليك وتيب (٥)
فقد جمع « تيب » على « تيب » ، بوزن « فُعَل » ، الذى يجمع عليه « أفعال »
و « فعلاء » لا « فَيَعَل » . ولا وجه له من القياس ، على خلاف ما ذهب إليه
الشيخ ابن عاشور (٦) ، بل هو من الخروج على القاعدة العامة . وهذا قد يحدث مع
صيغ جمع التكسير .

كما أنّ التركيب الكلامى فى قوله :

كلا الميت وإيانا كما لا قى ولا قيت (٧)
هو تركيب غريب يصعب جدا توجيهه ، إذ إن « كلا » تضاف إلى مثنى (بغض
النظر عن حتمية كون هذا المثنى كلمة واحدة ، كما يشترط النحويون على الأقل فى
الظروف الاختيارية ، أو جواز مجيئه مفردين معطوفا أحدهما على الآخر) ، بينما
أضافها بشار هنا إلى مفرد (هو « الميت ») ، وبدلاً من أن يعطف عليه مفرداً آخر
لتتم التثنية بالعطف نراه قد أتى مكان المعطوف بمفعول معه ، والمفعول معه هو من
الفضلات ، أى يمكن حذفه ، فلا تتم به من ثمّ التثنية . وقد وجه الأستاذ محمد
شوقى أمين البيت إلى أنه يمكن أن يكون قد وقع فيه تحريف وأن من الجائز أن يكون

أصله :

كَلَانَا المَيْسْتُ دَابَانَا كَمَا لَانَسَى وَلَا قَيْسْتُ (٨)

ومن ذلك أيضا حذف النون مِنْ « يَرَوْنِي » فى البيت التالى :

وأرى الناس يروئى أسدا فيقولون بقصدٍ وهُدى (٩)

وقد وجه ذلك الشيخ ابن عاشور على أساس أن الفعل قد جُزِمَ للضرورة رغم أنه ليس بمجزوم ، وقاسه فى ذلك على بيت لعنترة على رأى من الآراء . أمّا الأستاذ محمد شوقى أمين فقد رأى أن الفعل مرفوع وحُذفت نون الفرع منه لاتصالها بنون الوقاية ، وأن ذلك جائز عند بعض النحاة (١٠) . وفى تعليق البروفسور بيستون على ترجمته لهذا البيت نجده يكتفى بالقول بأن هذا الحذف يقع فى النثر والشعر (١١) .

ونفس ما قلناه فى الملاحظة السابقة يُقال أيضا فى حذف نون « تَمَنِينِي » فى

قوله يخاطب امرأة :

إن قلبى يشكّ فيمّا تمنّيتنى ونفسى حزينة مرتابة (١٢)

أما فى قوله :

إن الرسول الذى أرسلتِ غادرنى بِقَلْبَةٍ مثل حرّ النار مشبوبٍ (١٣)

ترى « مشبوب » مكسورة لتلائم حرف الروى فى القصيدة كلها ، إذ هو باء مكسورة ، على حين أنها لا تصحّ أن تكون نعتًا لـ « حرّ النار » لأنها نكرة بينما « حرّ النار » معرفة ، وكذلك لا يجوز أن تكون نعتًا لـ « غلة » ، فـ « غلة » مؤنث ، و « مشبوب » مذكر .

وإذ كنا قد رأينا الشيخ ابن عاشور يقول بجزم الفعل فى بيت سابق لىشار فى

غير حالة جزم على الضرورة فإننا نراه فى البيت التالى :

لله درك ! لمّ تسمو بقادمي أو ينصف الدهر من يلوى فيعتقب (١٤)

على العكس من ذلك يقول بأن الفعل « تسمو » ، الذى سبقته « لم » ، لم يجزم للضرورة . أمّا محمد شوقى أمين فإنه يحاول أن يجد للشاعر مخرجًا شرعيًا فيخمن أن

« تسمو » قد تكون محرفة عن « تسمق » (١٥) .

وفى البيت التالى :

فاذكرى ليلـة الخميـة _____ من لسانسى المُلجـلجـ (١٦)
نرى الجيم الثانية من قوله : « الملجلج » مكسورة ، وحقها أن تكون مفتوحةً لكون
الكلمة نعتاً لـ « لسانى » ، الذى هو مفعول به . ولا أظن أن من الممكن توجيهها
على أنها جُرّت على الجوار ، إذ إن المجاور لها (وهو « الياء » فى « لسانى »)
ضمير ، والضمير لا يوصف .

أمّا فى قوله :

فمن لامنى فى الغانيات فقل له : تَعِشْ واحداً . لا زِلْتُ غيرَ وحيد (١٧)
فقد جزم « تعش » دون أن يتقدمه ما يوجب جزمه . وقد خرّجه الشيخ ابن عاشور
على أن لام الجزم محذوفة ، وأن المعنى : « لتعش واحداً » ، دعاءً من الشاعر على
من يلومه فى الغانيات ، بناء على مذهب الكوفيين ، الذين يجوّزون حذف اللام فى
هذه الحالة (١٨) . وهذا توجيه جائر قال به الكسائى دون شرط ، وقال به غيره بشرط
أن يكون ذلك فى الشعر ، وإن منعه آخرون (١٩) .

كما أنه قد استخدم « رؤيا » فى البيت التالى :

كأن أميرا جالساً فى حجابها تَوَسَّلَ رؤياه عيونُ وفودِ (٢٠)
لرؤية العين ، والشائع أنها لما يراه الإنسان فى النوم لا فى اليقظة .
وفى البيت التالى الذى يخاطب فيه الشاعر قلبه :

حَتّام تُجْشِمنى الصِّبا وتشفّنى بل لیت غَيْرُكَ يا فؤادُ فؤادا (٢١)
يُعِيننا فهم الشرطة الثانية . ويتكلف الشيخ ابن عاشور لتركيب الكلام فيها مخرّجاً ،
فيقول إن « فؤاداً » اسمها ، بخبرها هو « غيرك » ، وإن التقدير : « لیت ... فؤاداً
لى » (٢٢) . والحقيقة أن هذا تأويل غير مقبول ، فإن خبر « إن » وأخواتها لا
يتقدم عليها إلا إذا كان شبه جملة . و « غيرك » ليس شبه جملة . ثم إن قوله

إن المعنى : « ليت ... فؤادا لى » معناه أن خبر « ليت » هو « لى » لا « غيرك » . لكن تركيب الجملة فى الشطرة لا يساعد على هذا التوجيه . ومن المناسب هنا الإشارة إلى أنه قد تكرر من الشافعى فى « الرسالة » نصب اسم « إن » وخبرها كليهما . وقد علق محقق الكتاب بأن ذلك جائز فى اللغة العربية (٢٣) .

وقد تكرر حذف نون الرفع من أحد الأفعال الخمسة فى قول الشاعر :

فلقد كاد ما أكابد منها ومن القلب يتركانى حريدا (٢٤)

إذ الأصل أن يقول : « يتركانتى » ، لأن الفعل لم يتقدمه ناصب ولا جازم . وقد سبق أن أوّل ابن عاشور مثل ذلك الاستعمال بأن الفعل مجزوم للضرورة (وكان رأى الأستاذ محمد شوقى أمين أن الكوفيين يجوزون حذف نون الرفع إذا صحبتها نون الوقاية) . أمّا هنا فالشيخ ابن عاشور يوجه هذا الحذف على أنه جارٍ مجرى قوله تعالى : « قال : أتأجّونى فى الله وقد هدان ؟ » (٢٥) ، حيث حذف نون الوقاية لئلا تتوالى نونان (٢٦) . صحيح أن القراءة المشهورة لهذه الآية إنما هى بتشديد النون ، أى أن أيتا من النونين لم تحذف وإنما أدغمت فى الأخرى ، وليس الأمر فى البيت هكذا . لكن هناك من يقرأها بالتخفيف ، وهو ابن عامر وأهل المدينة (٢٧) .

كذلك فقد حذف الشاعر نون الرفع من فعل من الأفعال الخمسة فى قوله :

وأحسنى حين تلقّيه تحيّته ولا تكونى إذا حدّثنا وتدا (٢٨)

دون أن تكون هناك نون وقاية هذه المرة . إلا أن باب التأويل صعب إغلاقه ، وعلى هذا وجدنا الشيخ ابن عاشور يقول إنها حذف تخفيفا ، ويورد شاهدا نحويا على هذا الحذف ، وهو قول الشاعر : « أبيت أسرى وتبىتى تذلّكى » . وإننا لتتساءل : وأين الثقل فى مثل هذا الموضع حتى نطلب له التخفيف ؟ ذلك أنه لا توجد نون وقاية حتى يقال إن إحدى النونين قد حُذفت تخفيفا .

ونرى الشاعر فى قوله :

وأن الهوى إن لم ترح لى بزفرة يكون جوى بين الجوانح مُقتد (٢٩)

د تنكب جزم « يكون » جوابا للشرط فى قوله : « إن لم ترح لى بزفرة » وأبقاه رفوعًا . ولعلّه قصد أن يكون قوله : « إن لم ترح لى بزفرة » كلامًا اعتراضيا ، جملة « يكون جوى ... » فى محل رفع خبر « أن » . وحتى لو كان الفعل « يكون » جوابا للشرط فقد ورد جواب شرط « إن » فى الآية ١٢٠ من سورة « آل حمران » مرفوعا . قال تعالى : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئا » . ولكن اذا نفعل فى قوله : « مغتد » ، الذى لا يخرج فى صيغته الحالية عن أن يكون عرفوا أو مجرورا ، وكلاهما لا يلائم موقعه من الجملة ، إذ هو فيما نفهم نعت « جوى » المنصوب خبرا لـ « يكون » ؟ ولا يمكن أن يقال إن « يكون لـ » هنا ائمة ، و « جوى » فاعل لها مرفوع ، ومن ثمّ فـ « مغتد » فى حالة رفع هى أيضا متا لها ، لأنه إذا كانت « يكون » تامة فمعنى ذلك أنه ليس فيها ضمير يعود على الهوى » ، الذى هو اسم « أن » ويحتاج إلى خبر ، والخبر هنا لا يمكن أن يكون إلا جملة « يكون ... » ، ومادام جملة فلا بد أن يشتمل على ضمير يعود على الهوى » .

كما أن البيت التالى :

زُرَى رَوْحًا فَلَنْ تَجْدَى كَرَوْحَ إِذَا أْزَمْتَ بِنَا السَّئَةِ الْجَمَادُ (٣٠)

تد ورد فيه الفعل «زُرَى» هكذا بحذف الواو ، متا جعل الشيخ ابن عاشور يلحنه ريعلله بأنه ربما كان بشار متأثرا فى ذلك بعامة قومه ، إذ لا موجب لحذف الواو فى مثل هذه الحالة . أمّا الأستاذ محمد شوقى أمين فإنه يحاول أن يجد للشاعر بابا فيختمن أن « زرى » ريمًا كانت محرفة عن « ردى » ، وفى هذه الحالة فلا لحن (٣١) .

وفى البيت التالى :

كَأَنَّمَا عَايَنُوا بى لَيْثَ مَلْحَمَةٍ غَضْبَانَ أَوْ مَلَكًا بِالنَّجَاقِ مَعْقُودٍ (٣٢)

نجد المشكلة التى قابلتنا فى البيت قبل السابق : فـ « معقود » مجرور لأنه مكسور

كى يتناسب مع حرف الروى فى سائر القصيدة ، على حين أنه فيما هو واضح صفة ل « ملكا » فكان حقه النصب . ولا يمكن أن نقول إن الاسم المجرور فى آخر البيت قد جُرَّ على الجوار . ذلك أنه نكرة ، على حين أن الاسم المجاور له فى البتين هو اسم معرّف . .

ويقول بشار :

فاشفنى بالصبر منها يا مجيب الدعوات
أو أذقها يَوْمَ عَتَى كربة من كرباتى (٣٣)

بحذف التنوين من « يوم » دون مسوِّغ من موانع الصرف . وهى ضرورة شعرية قبيحة .

ويبقى قوله :

سُجِّدى جِلْمُهُمْ أو ينكرونى فإن تقدمى قبل انتقامى (٣٤)

الذى ورد فيه « ينكرونى » بحذف نون الرفع دون أن يكون هناك داع للنصب أو الجزم . وقد تقدم الكلام على مثل ذلك قبل قليل .

هذا عن الاستعمالات التى من النوع الأول . أمّا استعمالات النوع الثانى فمنها أن بشارا قد ترك صيغة الفعل الدال على الحرمان « حَرَمَ » ، وهى الصيغة الشائعة ، واستخدم الصيغة المزيدة : « أَحْرَمَ » . ونفس الشئ فعله مع « أَحْمَى » و « أَفْتَنَ » ، اللذين استعملهما بدلاً من « حَمَى » و « فتن » ، برغم أن الصيغة المجردة هى الصيغة المنتشرة . وهذه هى الأبيات التى استخدم فيها الشاعر الصيغة غير الشائعة من الأفعال الثلاثة :

فأحمِ جَنبًا . سوف ترعى جَنبًا (٣٥)

* * *

ما أحرمتَ عنك خطاطيفُ فارقَ على ظَلْعِكَ أو قَتَّيبِ (٣٦)

* * *

وكيف يسلمى ؟ أحرم النَّأْيُ وَجْهَهَا . على . وإن طافت بنا لم تُعْرَجِ (٢٧)

* * *

تركنتُ سُديفًا وأصحابه وأحْرَمْتُ ما يجتنى شَرَمَحُ (٢٨)

* * *

أَفْتَنَّتِي . لا ريب . عبدة . إنى من هواها على سبيل افتتاح (٢٩)
كما أنه قد تكرر قوله « أَحْرَمَ » بدلاً من « حَرَّمَ » . وهذه الأخيرة أيضا هي
سيغة الشانعة . وذلك في قوله :

لم تنبسط فيه إلى مُحْرَمٍ حتى رأينا الصبح وضاحا (٤٠)

* * *

أحْرَمْتُ ربحان بستانٍ وناضره حتى أشمك يا ربحانة البلادِ (٤١)

* * *

فإن شئتِ أَحْرَمْتُ وصل النساء . وإن شئتِ لم أطعم الباردة (٤٢)
أما النوع الثالث من استعمالات بشار التي أشرتُ إليها فيتمثل فى تكريره
بين « فى بيتين على الأقل رغم أن كلا من طرفيها اسم ظاهر . والشائع أن هذا
ير جائز ، ولكنى وجدتُ له عشرين نيقًا شاهدًا شعريا من عصور الاحتجاج اللغوى
معظمها من العصر الجاهلى . وهذه بعض تلك الشواهد . قال امرؤ القيس :

فعدتُ له وصحبتى بين حامرٍ وبين إكام . بُعد ما متأمل ! (٤٣)

* * *

فعدتُ له وصحبتى بن ضارجٍ وبين تلاع يئلتُ فالعريض (٤٤)
وقال الشنفرى :

خرجنا من الوادى الذى بين مشعلٍ وبين الجبا . هيهات أنأتُ سُرْتى (٤٥)
وقال الحطيئة :

إن الرزفة ، لا أبأ لك ، هالكُ بين الدُماخ وبين دارة خنزرٍ (٤٦)
وقال الفرزدق :

كأن دياراً بين أسنمة الحمى وبين هذليل البحيرة مُصَحَفُ (٤٧)
وقد نص الطبرسي على أن « بين » في هذا الاستعمال إنما كُرِّت
للتأكيد (٤٨) .

والآن إلى بشار . قال :

فستان بين العامري ابن واقدٍ وبين ابنة الزيدى إذ كأمها عَقْدًا (٤٩)

* * *

بين أبى جعفرٍ وبين أبى الـ عباس . ذاك الشتا وذاك المَطَرُ (٥٠)

الهوامش

- ١- الأغاني / ٣ / ١٤٩ - ١٥٠ .
- ٢- السابق / ٣ / ٢٠٩ - ٢١٠ .
- ٣- الأعراف / ١٦٣ .
- ٤- الديوان / ١ / ١١٥ .
- ٥- ١ / ١٨٢ .
- ٦- الديوان / ١٨٢ / هامش ٣ .
- ٧- ٢ / ٣٠ .
- ٨- نفس الصفحة / هامش ٣ .
- ٩- ١ / ١٣٣ .
- ١٠- انظر الديوان ١ / ١٣٣ / هامش ٣ . وقد ذكر أحمد محمد شاكر ، تعليقاً على حذف الشافعي (من) « رسالة ») للنون من فعلين من الأفعال الخمسة في حالة رفع ، أن هذه النون قد تحذف من غير ناصب ولا جازم على سبيل التخفيف ، وأنه قد عثر على واحد تدل على صحة ذلك (انظر « الرسالة » للشافعي / تحقيق أحمد محمد شاكر كتيبة التراث / القاهرة / ٢٠١٠ هـ / ١٢٩٩ هـ / ٥٦٢ هـ / ٧ هـ ، و ٥٩٧ هـ / ٧ هـ) .

11- Selections from the Poetry of Bassar , p. 4 .

- ١٢- الديوان / ١ / ١٩٢ .
- ١٣- ١ / ١٩٤ .
- ١٤- ١ / ٢٣٣ .
- ١٥- نفس الصفحة / هامش ٥ .
- ١٦- ٢ / ٧٣ .
- ١٧- ١ / ١٥٨ .
- ١٨- نفس الصفحة / هامش ٢ .
- ١٩- انظر السيوطي / همع الهوامع / ٢ / ٥٥ - ٥٦ .

٢٠- الديوان / ٢ / ١٥٩ .

٢١- ٢ / ١٦٦ .

٢٢- نفس الصفحة / هامش ٤ .

٢٣- الرسالة / ٣٤٧ / ١ هـ ، و ٤٥٨ / ٢ هـ .

٢٤- الديوان / ٢ / ١٨٧ .

٢٥- الأتعام / ٨٠ .

٢٦- الديوان / ٢ / ١٨٧ / هامش ١ .

٢٧- انظر محمد بن الحسن بن بندار الواسطي القلاتسي / إرشاد المبتدى وتذكرة المنتهى

فى القراءات العشر / تحقيق ودراسة عمر حمدان الكبيسي / جامعة أم القرى / مكة المكرمة /

ط ١ / ٣١٣ .

٢٨- الديوان / ٢ / ١٩٦ .

٢٩- ٢ / ٢٠٩ .

٣٠- ٣ / ٥٤ .

٣١- نفس الصفحة / هامش ٢ .

٣٢- ٢ / ٥٥ .

٣٣- ٣ / ١٥٧ .

٣٤- ٤ / ١٨٧ .

٣٥- ١ / ١٣٥ .

٣٦- ١ / ١٥٦ .

٣٧- ٢ / ٨٢ .

٣٨- ٢ / ١١٠ .

٣٩- ٢ / ١٣٨ .

٤٠- ٢ / ١٥٣ .

٤١- ٣ / ١٤١ .

- ٤٢- ١٤٨ / ٣ .
- ٤٣- معجم البلدان / مادتا « إكام » و « حامر » .
- ٤٤- السابق / مادتا « عريض » و « يثلث » .
- ٤٥- نفسه / مادتا « جبا » و « مشعل » .
- ٤٦- نفسه / مادتا « خنزور » و « الدماخ » .
- ٤٧- نفسه / مادة « بحيرة هجر » .
- ٤٨- انظر تفسيره للآية الخامسة من « الفاتحة » فى تفسيره « مجمع البيان » .
- ٤٩- الديوان / ٢ / ٨٩ .
- ٥٠- ٢٠٢ / ٢ .

تحقيق نسبة القصيدة التائية فى عبدة

هناك اختلاف حول نسبة القصيدة التائية : هل هى لبشار ؟ أم هل هى لأبى

هشام الباهلى ، الذى كان مهاجياً لبشار ؟ (١) وهذا أولاً نص القصيدة :

من أبى هشام ، يا رجالُ ، قصيدةٌ	تبكي لها الفتيانُ والفتياتُ
كُتِبَتْ بما جرت الدموعُ فضُلِّيتُ	أبداً على من قالها الصلواتُ
من داخل الشوق الدخيل إلى التى	فيها تروخ لعينه العبراتُ
ففؤاده طراً يعيش بذكرها	ويموت حين تظلمه الزفراتُ
شوقاً إلى صنم العراق ، فعينه	قد وكَّلت بمنامها اليقظاتُ
ما من جميلة معشر إلا لها	أختٌ تُعدُّ ، وما لها أخواتُ
لا الشمس تقشرها ولا قمر الدجى	وهما اللذان إليهما المثالاتُ
قل للغوانى : إن قُتِلتُ من الهوى	فلكنَّ من عدوى دمي برماتُ
سَقِمى عبيدةٌ إن سَقمتُ وصحتى	ولها تطيب لنفسى الخلواتُ
يا عبيد ، أقسم بالذى أنا عبده	وله المقام وما حوت عرفاتُ
لا اصطفى أبداً سواك خليفةً	فثقى بذلك . والكرام ثقاتُ
ولو اتنى فى الثرب ثم دعوتنى	ليبتُ صوتك والعظام رفاتُ
فإذا ذكرتك ، يا عبيدُ ، تقطعت	نفسى عليك وعادنى حراتُ
طوبى لمن يُنسى وأنت ضجيعه	قد عجلت لضيعك الحسناتُ

ولنا عليها الملاحظاتُ التالية :

١- أن بشاراً قد عُرف بحبه لعبدة ، وله فيها قصائد غير قليلة . وبلغ من

شهرة ذلك الحب أن خصص صاحب « الأغانى » له فصلاً خاصاً فى كتابه غير الفصل الذى جعله لبشار ، ولم يُعَرَف عن أبى هشام هذا أنه أحب عبدة أو كتب فيها شعراً ، فمن الصعب قبول نسبة هذه القصيدة اليتيمة إليه . علاوة على أن الطريقة التى ورد بها اسم « عبدة » فى القصيدة هى طريقة بشار ، إذ مرة يرخم اسمها ، ومرة يصقره ،

مرة يجمع بين الأمرين .

٢- أن بشارًا يكرر في شعره ، كما بيّنا في هذه الدراسة ، أن حياته وموته يد حبيبته ، وأنها إذا نادته قام من قبره حيًا . وهذا موجود في القصيدة حين قال :
فثَوْدَهُ طُورًا يَعِيشُ بِذِكْرِهَا وَيَمُوتُ حِينَ تَظْلُهُ الزَّفْرَاتُ
رحين قال :

ولو اتنى فى الترب ثم دعوتنى لبيتُ صوتك والعظامُ رفاتُ
٣- تكرر أيضًا وصف بشار لحبيبته بأنها صنم معبود . وهذا ما جاء في
لقصيدة أيضا :

شوقا إلى صنم العراق ، فعينه قد وَكَلتُ بِمَانِهَا الْيَقْظَاتُ
٤- وكذلك يكرر في شعره ، تشبيه جانبته بالشمس والقمر . وقوله في هذه
القصيدة :

لا الشمس تقشرها ولا قمر الدجى وهما اللذان إليهما المثَلاتُ
يجرى في هذا السبيل .

٥- وقد بيّنا في الفصل الخاص بعقيدة بشار كيف يكثر عنده القسم بالمشاعر
المقدسة ، وهو ما حدث هنا حيث يقول :

يا عبد ، أقسم بالذى أنا عبده وله المقام وما حوت عرفاتُ
٦- كما رأينا أن بشارًا قد ألحّ في شعره على أنه لا يحبُّ إلا حبيبته ، رغم
ترامى النسوة الأخريات عليه . ومن ذلك هنا قوله :

لا أصطفى أبدًا سواك خليفةً فثقى بذلك . والكرام ثقاتُ
٧- كذلك فقوله في هذه القصيدة :

فإذا ذكرك ، يا عبيد ، تقطعت نفسى عليك وعادنى حسراتُ
ليس بعيدًا عن قوله في قصيدة أخرى :

تقطع نفسى حسرةً بعد حسرة إذا قبل : تغدو من غدٍ لا تعرّجُ (٢)

٨- وقد وردت كلمة « الغوانى » فى البيت التالى من القصيدة :

قل للغوانى : إن قُتِلْتُ من الهوى فلكنَّ من عَدَوَى دمسى يرمات

وهى كما عرفنا من الكلمات التى تكررت (هى و « الغانيات ») بشكل لافت للنظر فى شعر بشار .

٩- كما تكررت فى شعر بشار أبيات تنتهى بكلمة على وزن « فعلات »

(وهى القافية التى بُنيت عليها قصيدتنا هذه) وذلك فى ص / ٣٧ ، ٤٨ ، ٤٠ ،

٥١ ، ٥٧ من الجزء الأول من الديوان . كما جُمِعَتْ « غيبة » و « يقظة »

و « رصدة » و « جهلة » على « غيبات » و « يقظات » و « رصدات »

و « جهلات » ، وذلك على الترتيب فى ص / ٢٢١ من الجزء الأول ، وص / ٤٠ ،

٥٤ ، ١٠٦ ، ٢٤٧ من الجزء الثانى من الديوان . وهى مجرّد أمثلة .

أما اعتراض الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على نسبة هذه القصيدة إلى بشار

على أساس أنها تفتقر إلى « حسن شعر بشار » (٣) فهو اعتراض واهٍ ، لأن فى شعر

بشار ، كما سنبين بعد قليل وكما لاحظ الأستاذ محمد شوقى أمين فى تعليقه على

هذا الاعتراض ، الجيّد ودونه . وهذا لو كانت هذه القصيدة فعلاً رديئة ، وهو غير

صحيح ، فهى أفضل من كثير من شعر بشار البارد الهامد .

يبقى أنه لو كانت هذه القصيدة لبشار ، وهو ما نرجّحه ، فكيف يجعلها على

لسان أبى هشام الباهلى إلى حبيبه هو عبدة ؟ إن الشيخ ابن عاشور ، فى احتمال

الثانى ، يقول إن بشاراً ربما نظمها على لسان غريمه هذا استخفافاً به ، إذ يظهره

بمظهر الطامع فى حب عبدة كما فعل ابن زيدون فى رسالته التى وصفها على لسان ابن

عبدوس فى ولادة . لكن القصيدة تخلو تماماً من أى شىء يمكن أن يشتم منه رائحة

الاستخفاف بأبى هشام هذا من قريب أو بعيد . علاوة على أن من الصعب أن نصدق

أن بشاراً يمكن أن يتخيل عبدة وهى مضاجعة غريمه ، كما يقول البيت الأخير من

القصيدة . ومن هنا فإنى أرى ، لو صدق ظنى فى صحة نسبة هذه القصيدة لبشار ،

أن بيتها الأول كان يجرى هكذا :

من ابى معاذ ، يا رجال ، قصيدة تبكى لها الفتيان والفتيات
ثم حدث تلاعب فيها بحيث أصبحت وكأنها موجهة من أبى هشام إلى عبدة . ولعلَّ أبا
هشام هو نفسه الذى فعل هذا .

ذلك ، وهناك نصوص أخرى مختلف فى نسبتها أيضا ما بين يشار وغيره ،
ولكن معظمها لا يزيد على بيتين (٤) ، مما يجعل محاولة تحقيق نسبتها أمراً من
الصعوبة بمكان ، إذ لا يتيسر لبيتين أن يبرزوا خصائص الشاعر الذى قالهما بحيث
نستطيع المقارنة بينها وبين الخصائص الفنية لدى كلٍّ من نُسبت إليه . ولذلك تترك
أمرها .

ومثل ذلك الأبيات الثلاثة التالية :

إذا كنتَ فى كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبُهُ
فعيش واحداً أو صل أخاك ، فإنه مقارفٌ ذنبٍ مرةً ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت . وأى الناس تصفو مشاريه ؟

التي زعم بعضهم أنها للمتلمس ، وبلغ ذلك بشاراً فكذبهُ وأقسم أنها له وأنها من
قصيدة مدح بها عمرو بن هبيرة فأجازه عليها بأربعين ألف درهم (٥) . وهذه
الأبيات ، وإن كانت أيضاً جده قليلة ، ليست من نسيج عموم الشعر الجاهلى ، ففيها
رقة وتفصيل لمعنى واحد مما يبدو لى غربياً على الجاهليين . ثم إن بشاراً قد حسم
المسألة . ولو كان قد سرقها من المتلمس فلماذا لم يُقل ذلك فى مجلس ابن هبيرة حين
كان يمدحه بها ؟ كذلك فهذه الأبيات ليست فى ديوان المتلمس ، وهذا يكفى .

أما البيتان اللذان أوردهما له الشيخ ابن عاشور فى الجزء الرابع من الديوان

نقلًا عن ابن خلكان ، ونصهما :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ويقيم وقت صلواته حمًا ذ
وابيض من شرب المدامة وجهه وياضه يوم الحساب سواذ (٦)

واللذان ذكر في الهامش أنهما منسوبان في كتب أخرى إلى غيره ، فهما يخلوان من الفحش المقذع الذي لا يعرف الحياء والذي اشتهر به بشار في هجاء حماد ، بل يخلوان حتى من حدة بشار وعنفه . وقد أوردهما الشريف المرتضى في « أماليه » مع بيتين آخرين يجريان نفس المجرى ولم ينسبهما إلى واحد بعينه بل قال : « وقال رجل يهجو حمادا الراوية » (٧) ، أي حماد بن أبي ليلى لا حماد عجرد كما هو معروف .

الهوامش

- ١- انظر فى ذلك الديوان / ٢ / ٣٤ (تقديم التصيدة والهامش) .
- ٢- ٢ / ٩٢ .
- ٣- انظر الديوان / ٢ / ٣٤ (بالهامش) .
- ٤- انظر « الأغاني » / ٣ / ١٥٠ - ١٥١ ، ٢١٦ ، و « الحيوان » / ٣ / ٦٧ - ٦٨ ، ٣١٥ - ٣١٦ .
- ٥- الأغاني / ٣ / ١٩٦ ، ١٩٨ .
- ٦- الديوان / ٤ / ٤٤ .
- ٧- انظر « أمالى المرتضى » / ١ / ١٣٢ .

الرأى فى شعر بشار

كان أبو عبيدة يعدّ بشارًا أبا المُحدّثين ، إذ هم فى نظره إنما عنه أخذوا وأثره اقتفوا ، فمروان بن أبى حفصة كان يعرض عليه شعره ، وسلّم الخاسر كان تلميذًا من تلامذته ، كما كان السيد الحميرى كثير الإجلال له حتى إنه لم يكن ينشد فى حضرته شيئًا من شعره (١) . وكان أبو عبيدة يعتقد صحة الرواية المنسوبة لبشار من أن له ثلاثة عشر ألف قصيدة كل منها يحتوى على بيت جيد ، ويرتب على هذا أن جيد بشار أكثر من جيد أى شاعر آخر ، وإن فضلّ عليه مروان أبى حفصة فى مدح الملوك (٢) .

ويرى الجاحظ أن بشارًا أشعر المحدثين ، كما يؤكد أنه لم يأت من هو أشعر منه (٣) .

ويقول ابن قتيبة إن بشارًا هو « أحد المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر ولا يتعبون فيه » ، ولكنه لا يجعله ، مثلما فعل أبو عبيدة والجاحظ ، أشعر المُحدّثين ، بل يكتفى بالقول بأنه من أشعرهم (٤) .

ويظن ابن المعتز فى مدح بشار فيقول إنه « كان مقتنا بارعًا ، وكان من الشعر بمكان لم يكن به أحد غيره » (٥) ، « وكان مطبوعا جدا لا يتكلف . وهو أستاذ المحدثين وسيدهم ومن لا يقدّم عليه ولا يُجارى فى ميدانه » (٦) ، « وكان .. أستاذ أهل عصره غير مدافع ، ويجتمعون إليه وينشدهونه ويرضون حكمه . وتشبيهاته ، على أنه أعمى لا يبصر ، من كل ما لغيره أحسن » (٧) ، « ولا أعرف أحدا من أهل العلم والفهم دفع فضله ولا رغب عن شعره . وكان شعره أنقى من الراحة وأصفى من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب » (٨) .

وكان الأصمى يفضّله مثلاً على مروان بن أبى حفصة . والسبب فى رأيه أن مروان ينهج منهج القدماء ، ومع ذلك لم يلحقهم على حين ساواه من كان فى عصره ،

بخلاف بشار ، الذى « سلك طريقا لم يُسلك وأحسن فيه وتفرد به » ، إلى جانب أنه أكثر فنون شعر وأغزر وأوسع بديعًا (٩) ، وأنه يصلح للجد والهزل ، أما مروان فلا يصلح إلا للجة (١٠) .

وقد روى المرزبانى عن أحمد بن عبيد الله بن عمار قوله : « بشار أستاذ المُحدِّثين الذين عنه أخذوا ، ومن بحره اغترفوا ، وأثره اقتفوا . يأتى من الخطب والإحالة بما يفوت الإحصاء مع براعته فى الشعر والخطب » . كما ذكر ما قيل عن شعره من أنه « ينظم الشنرة ، ثم يجعل إلى جانبها بعة » (١١) .

أما إسحاق الموصلى فكان لا يعتد ببشار ، ويقول إنه كثير التخليط فى شعره ، أى يقول الجيد والردى . كما كان يقدم عليه مروان بن أبى حفصة ، الذى كان يرى أن شعره مستو لا تفاوت فيه كشعر بشار . وسرّ تقديمه لمروان وغضّه من بشار هو أن كلامه ذلك ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها (١٢) . وكان إسحاق يفضل الشعر التقليدى الذى يجرى فى سنن القدماء ، ومن هنا فإنه لم يكن أيضا يرى أبان نواس شيئا (١٣) . والظريف أنه لمّا عورض بأبيات جميلة لبشار فى الصداقة وترك العتاب مع الإخوان ادعى أنها ليست له وأنه إنما سرقها من المتلمس (١٤) ، كأنه لا يريد أن يسلم له بشىء .

وهناك إلى جانب هؤلاء الأخفش وسيبويه ، اللذان كانا يأخذان عليه بعض المخالفات اللغوية ، ثم لمّا سبهما وتهدهما بهجانه أخذوا ، كما تقول الرواية ، يستشهدان بشعره وكفّا عن انتقاده ، مما مرّ ذكره .

وفى العصر الحديث نجد العقاد يقوم شعر بشار بقوله : « أما شعره فرصين فى الأكثر الأعم مما وصل إلينا منه . وهو يقسمه قسمين : بدوى تغلب فيه الجزالة والجفوة ، وحضرى تغلب فيه الرقة والنعومة » . والعقاد يرى أن ذلك راجع إلى طبيعة الموضوع التى لا حيلة للشاعر فيها . كما يؤكد أن شعر بشار يخلو من الإلهام والحنين

والأشواق والخيال ، وأنه لا يمتاز عن شعر غيره بغير اللسان اللبق والقدرة على النظم والتعبير (١٥) ، وأن غزله شهوانى يفتقر إلى الحب والعطف والمناجاة ، إذ كان حبه للنساء عموماً لا لامرأة بعينها ، لأنه (كما يقول) كان ذا طبيعة حيوانية ، فهو يريد مطلق الأنثى ، وأنه فى هذا الغزل كان يعتمد على السماع إلا فلتات قليلة ، كما كان لا يتصور المرأة إلا فى الألوان والأصباغ والروائح والطيوب (١٦) ، وأنه كان فى معظم الأحيان يمثل المرأة منكسرة باكية تلين لشدة الرجولة وخشوتتها ويستعذب الخضوع لسيطرتها (١٧) . أما رأيه فى هجائه فهو أنه يجمع أقبح العيوب ويقذف بها على مهجوة شعراً يكثر فيه الإقذاع والإفحاش مما لا يصلح للنقل فى الصحف السيارة والكتب التى تتداولها أيدي القراء . (١٨) .

أما طه حسين فإنه يبدأ حكمه على شعر بشار بإعلان موافقته لرأى إسحاق الموصلى ، الذى يرى الدكتور أنه هو الوحيد الذى استطاع أن يقف فى وجه المديح الشديد الذى كان يكال للشاعر ، وإن استدرك قائلًا إنه لا يشارك إسحاق مع ذلك علوه فى السخط عليه ، إذ إن هذا السخط لا يعتمد إلا على بيتين سخيفين من شعر بشار ، مما لا يخلو منه شعر شاعر (١٩) . ثم يمضى فى تفصيل حكمه فيقول إن بشارا كان ثقیل الروح حتى حين يضحك ويريد للآخرين أن يضحكوا ، كما كان قاسيا يكره الناس ويزدرهم ولا يترك فرصة دون أن يهتبلها فيسخر منهم سخرية غليظة فظة (٢٠) . ليس ذلك فحسب ، بل يرميه أيضا بالنفاق والكذب ، ومن ثم ينبغى على الباحث فى رأيه ألا يحاول الوصول من خلال شعره إلى معرفة شعوره وعواطفه ، فشعره كما يقول ليست له شغافية شعر أبى نواس والحسين بن الضحاک ومطيع وحماد ، اللهم إلا فى الهجاء ، الذى يمثل نفسيته المرورة الحاقدة على الآخرين ، وأيضاً فى ذلك الشعر الذى يذكر فيه نفسه وسوء مكانه بين الناس وما لقيه من بخلهم (٢١) . ومع ذلك فالدكتور طه يثنى على حسن صناعة بشار ، مؤكداً أن الشعر لم يكن يصدر

عنه عفوا بل كان يتكلف ويعتى نفسه فيه (٢٢) . ثم يمضى إلى تبیین رأیه فی غزله فيقول إنه لا يمثل عاطفة ولا شعورا صادقا بل تهالكا على اللذة وإفحاشا وافتنانا في ذلك ، ورغبة في الفساد والإفساد ، ولذلك كان يعمد فيه إلى الألفاظ والأساليب السهلة التي تضمن له الشيوخ والسيورة بين النساء وفتيات الهوى . ومن هنا كان رأيه أن المهدي لم يجز عليه حين نهاء عن الغزل وأنذره بالموت إن عاد إليه . ثم يورد الرائية مثالا على ذلك الشعر الفاحش المفسد الذي فزع له المهدي وغضب -أشد الغضب (٢٣) . وحتى شعره الرقيق المتألم في عبدة نجد طه حسين يضحك عندما يقرؤه لأنه يرى أنه شعر كاذب وأن محبوبته كانت تعلم ذلك . أمّا رأيه في هجائه فليس أكثر من أنه هجاء فاحش مقذع سهل الفهم (٢٤) . ولا يُعجّب د. طه من شعر بشار إلا قصيدته الميمية في هجاء المنصور ، لأنها كما يقول تمثل موقفه الحقيقي من المنصور وآل العباس ، وكذلك بانيتها في مدح ابن هبيرة (٢٥) .

وحكم-د. طه حسين على بشار وشعره ، كما هو واضح ، حكم شديد عنيف . وقد جاءت دراسة د. محمد النويهي « شخصية بشار » تحاول أن تعدل هذا الحكم على الشاعر وشعره . ونحن نرى أن د. النويهي قد أسرف بذوره في التحيز لشعر بشار ، إذ لا يكاد يرى فيه عيبا . ولقد كان د. النويهي من البراعة بحيث إنه لم يختر له في كتابه إلا القصائد الجميلة الرائعة حقا ، فأوهم القارئ الذي لا اطلاع له على ديوان بشار أن كل شعره من هذا المستوى .

والحقيقة أن لبشار شعرا بديعا فاتنا ، وأغلبه في الغزل والفخر بنفسه وبيجنسه . ولكن إلى جانب هذا الشعر شعرا آخر غير قليل فيه كثير من الفتور والجفاف والهمود ، ويفتقر إلى الخيال المحلق والحرارة الجياشة والإبداع ، وليس له فيه إلا ترديد المعاني والصور والأساليب التقليدية التي نجدها عند معظم الشعراء . ومن ذلك أولى قصائده في الديوان ، ومطلعها :

تجهز . طال في النَّصَبِ السَّوَاءِ ومنتظر الثَّقِيلِ عُلَى دَاءِ (٢٦)

وكذلك التى تليها ، ثم التى تليها ، والتى تليها ، والتى تليها . كل هذا ونحن لا نزال فى أول الديوان ، وإن لم يخل الأمر بين الحين والحين من بيت جميل يحتوى على صورة طازجة ، مثل قوله فى القصيدة الأولى :

وَيُطَبِّقُ حَيْهَنَ عَلَى فَوَادَى كَمَا انطَبَقَتْ عَلَى الْأَرْضِ السَّمَاءُ (٢٧)

أو تعبير طريف ، كما فى هذا البيت :

أَقُولُ وَالْعَيْنَ بِهَا غُصَّةً مِنْ عِبْرَةٍ هَاجَتْ وَلَمْ تَكُفِرْ : (٢٨)

فإن إضافة الغصة إلى العين (وهى مما يعرض للحلق والريق لا للصوص) هى لفظة تعبيرية عجيبة .

ويكثر فى شعر بشار حشو البيت أو تكملته بما يقيم الوزن . أو يوصل إلى القافية والسلام . ومن هذا قوله لهاجرته :

كَيْفَ صَبْرِي ، عُوْفِيَتْ مِمَّا آتَى ، بَيْنَ نَارِ الْهَوَى وَغَمِّ الصَّبَابَةِ ؟ (٢٩)

فالدعاء فى الشطرة الأولى لا معنى له ، لأنها ليست مباليةً به ولا هو يفكر فى أن يؤلمها بهجره كما تؤلمه بهجرها لأنها لا تحبه أصلاً . بل إن قوله بعد ذلك :

لَيْتَ شَعْرَى تَبْكِينَ إِنْ مَتَّ مِنْ حَبِّ لَكَ أَوْ تَضْحَكِينَ يَا خَشَّابَةَ

إِنْسَى ، وَالْمَقَامِ وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَالْبَيْتِ مَشْرِفًا كَالسَّحَابَةِ

أَشْتَهَى أَنْ أَدَسَّ قَبْلَكَ فِى التَّرَبِّ بَلْ لَكِى تَصْبَحِى بِنَا كَالْمَصَابِغِ

وَعَسَى ذَاكَ أَنْ يَحِينُ فَتَبْكِى لَا تَقُولِى : بَعْدًا لِمَنْ فِى الْغِيَابَةِ

هو سخف فى سخف ، إذ بينما نراه لا يدرى ماذا سيكون موقفها عندما تسمع خبر موته من حبها نجده فجأة يتمنى أن يموت قبلها لكى تصبح كالمصابة به ، وكأنه قد تأكد أنها ستشعر عند موته بالمصيبة . وانظر إلى « الكاف » فى « كالمصابة » وكيف أنها تُفسد الأمر إفسادًا شنيعًا ، لأن معناها أنها رغم ذلك كله لن تشعر فعلاً بآلم المصابين وإنما هو شئ . من ذلك . ثم انظر إلى قوله عن البيت إنه مشرف كالمصابه ، وهو ما لا معنى له هنا ، فضلاً عن مجافاته للحقيقة . إن الأمر ليس إلاً رغبة فى

الوصول إلى إتمام البيت من أى طريق ! ثم ما أثقل « الغيبة » هنا لما فيها من حذقة فى مجال الحديث عن الموت ، وهو أمر لا يحتمل الحذقة . علاوة على ما فى الكلمة من عمومية وافتقار إلى الدقة ، فإن « الغيبة » ما يستر الشيء عن النظر ، ومن ذلك الجب والوادى والبئر ... إلخ ، فإطلاقها على القبر هنا دليل على أن الشاعر ينظم لا يشعر !

وما أصدق ملاحظة الشيخ ابن عاشور على كلمة « حاجبى » فى البيت التالى لبشار :

هى الروحُ من نفسى وللعين قرّةٌ فداء لها نفسى وعينى وحاجبى
بأنها « زيادة ركيكة ما أتى بها إلا لتكلف القافية ، وذلك من العيِّ » (٣٠) ، إذ إنه فعلا لا مكان للحاجب هنا مع النفس والعين ، وبخاصة إذا جاء ذكره بعدهما .
وليس من النادر أن يلقانا فى شعر بشار غموض يفسد علينا متعة القراءة . وهو غموض ناشئ، فى كثير من الأحيان من أنه لا يبذل جهدا كافيا فى صياغة عبارته بحيث يتضح ما تريد أن تقوله لنا ، وذلك كما فى قوله عن نفسه :
لا يعبد المال حين يجمعه ولا يصلى للبيت من صلابة (٣١)
الذى يقف أمامه محقق الديوان وشارحه عاجزا ، إذ يقول : « انظر ماذا يراد بهذا المصراع » (يقصد المصراع الثانى) ، والذى يحاول الأستاذ محمد شوقى أمين جاهدا أن يجد ثغرة يمكن النفاذ منها إلى بصيص من المعنى (٣٢) .
وكذلك قوله فى ذات القصيدة عن نفسه أيضا وعن نهى المهديّ له عن التشبيب بالنساء :

حتى إذا درت الدرور له ورغشته الرواة فى نَسْبِهِ
قضى الإمام المهدي طعنته عن رأس أخرى كانت على أُرْبِهِ
إذا لا يمكن أبداً أن يخطر ببالنا أن « النسب » هنا ليس هو النسب العادى الذى يعرفه الناس جميعا بمعنى النسل والقرابة ، بل هو النسيب والغزل . ودعك من

« رغشته الرواة » . كما أنه ليس من السهل أن نفهم أن المقصود بالشطرة الثانية من البيت الأخير هو أن المهدي قد طعنه مرة بعد مرة قضت على أُرْبِهِ ، إذ أين « كانت على أُرْبِهِ » من « قضت على أُرْبِهِ » ؟ هذا إن كان التفسير الذي قدّمه الشارح هو المراد .

ومثالاً آخر على ذلك نسوق هذا البيت الذي يؤكد فيه أنه لم يأت في الحب ما يؤخذ عليه :

أهـا اللانمى ولم آت بأساً يشهد الله والثلاث الشهودُ (٣٣)

حيث لا نعرف من هن هؤلاء (أو ما هي هذه) الشُّهود الثلاث ؟

ومن ذلك لفظة « الغيار » في البيت التالي الذي يتحدث فيه عن رحيل قوم حبيبتهم إلى ديار أخرى بعيدة :

تادوا في الغزاة حين راحوا بجَدّ البين حين دنا الغيارُ (٣٤)

وفى شعر بشار ركافة غير قليلة : تأمل مثلاً قوله يصف قسوة حبيبتِهِ ويخلها

عليه بالوصال :

جلّ ما بى منها ، وما جلّ تَيْلٍ عندها . إنها عليها جُمودُ (٣٥)

وما في عبارة « إنها عليها جمود » من ركافة .. ركافة ناشئة من تركيب كلماتها وبخاصة : « إنها عليها ... » ، ومن استعماله « جمود » مطلقاً دون تحديد بإضافة أو نعت مثلاً ، بمعنى القسوة والبخل .

وكذلك قوله من القصيدة ذاتها :

قاندنى للشقاء جهراً فؤادى وفؤادى فعّالُ تلك المعيدُ (٣٦)

حيث جعل الخبر الثاني لـ « فؤادى » (وهو « المعيد ») معرفة ، على حين كان الأفضل أن يكون نكرة ، فضلاً عن حذف معمول هذا الخبر ، مما جعله معلقاً في الهواء كرجلٍ بلا رأس .

ثم هذا البيت :

كَأَن فَوَّادَهُ يَنْزُو حِذَارًا حِذَارَ الْبَيْسِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ (٢٧)
 بتكرار كلمة « حذار » فيه ثلاث مراتٍ مزعجاتٍ بلا فائدة ، سوى أن بناء البيت لم يستو له فأخذ يملأ فجواته بكسرة الطوب والتبش .
 وأيضا البيت الذى يليه :

تَادَا فِي الْغَزَالَةِ حِينَ رَاحُوا بَجْدَ الْبَيْسِ حِينَ دَنَا الْغِيَارُ
 حيث يكرر كلمة « حين » مرتين متتاليتين ، الثانية منهما داخلة زمنيا فى الأولى ،
 وحيث يقول « فى الغزالة » ويقصد « عند شروق الشمس » ممَّا لا تؤدى العبارة
 معناه إلا بتعسف شديد .

ولا يخلو هذا الشعر أيضا من صور سخيفة ، مثل قوله يصف وصال حبيبته
 أول الأمر له ثم انقلابها بعد ذلك عليه وإقصاءها إياه :

وَأَنْتِ بِمَا قَرَّبْتِنِى وَأَصْطَفَيْتِنِى خَلَاءً ، وَقَدْ بَاعَدْتِنِى بَعْدَ مُذْنِبِ
 كقائلة : إن الحمار ، فنحه عن القت ، أهل السمس المتهذب (٢٨)
 إنه يصور فى هذا البيت نفسه حمارا يريد أن يُعْلَفَ قَتًا (والقت عنده هو الرصال) لا
 سمسًا . فأى سخف وغباء فنى هذا ! ثم أیه ركاكة فى وصف السمس المتهذب ،
 وهى صفة أخلاقية لا تصلح لوصف الأعلاف ! هذا غير ثقل صيغة « متفعل » ، التى
 لا نستعملها فى هذه الكلمة ، إذ إننا نقول : « مهذب » ، ولا نقول « متهذب » .
 ومثل ذلك سخفا قوله يصور أريحية أحد المدروحين :

وَلَوْ نَازَعْتَهُ الرِّيحُ يَوْمًا إِزَارَهُ لِأَرْسَلَهُ جُودًا وَلَمْ يَتَجَرَّدِ (٢٩)
 وهذا كلام من لا يجد كلامًا آخر يقوله ، وإلَّا فهل يمكن أن يقال فيمن يخلع إزاره
 (ولاحظ : « إزاره » لا « رداءه ») ويعطيه للريح إلا أنه أبله ؟ إذ ماذا ستفعل
 الريح بملابسه ؟ ثم إنه سيتعري حينئذ ، وهو أمر لا يحسد عليه . ومع ذلك يسرع
 الشاعر ، ظانا أنه يستدرك ، قائلاً : « وَلَمْ يَتَجَرَّدِ » ، وهو مالا أفهمه ، إذ كيف
 لن يتجرد وقد تخلى للريح عن إزاره ؟ أيريد أن يقول إنه كان يعرف مقدما صفاة الريح

منخذ من قبلُ للأمر عدته ولبس تحت الإزار شينا يغطى به نفسه حين تأخذ تلك
الريح إزاره ؟ أليس ذلك بالأمر المضحك ؟

وانظر إلى البيت التالى وما فيه من فساد ذوق وفضاظة حسن ، إذ لا يجد ما
يشبه به الهم اللاصق على كبده إلا القراد :

أغادى الهم منفردا لوقفا على كبدى كما لصق القرادُ (٤٠)
وكذلك هذا البيت الذى يلقن فيه فتاته بعد أن فعل فعلته معها فى رائيته المشهورة ما
ينبغى أن تقوله لحاضنتها إذا سألتها عن العضة التى فى شفتها وما خلقتها من احمرار
وورم :

قولى لها : بقّة لها ظفُرُ إن كان فى البق ما له ظفُرُ (٤١) .
إذ ماذا يفعل البقّ هنا ؟ إن ذلك لهو فساد الذوق بعينه وغلظ الإحساس وغشاشة
الخيال ! بقّ وحبّ ؟ أو حتى بقّ وجنس ؟ هذا غير معقول !

وهذه الأمثلة تبين لنا أن ما قاله د. توفيق الفيل عن صور بشار وأنها تمتاز
بالرقة الحضرية والبعد عن الخشونة (٤٢) هو غير صحيح تمامًا .

وأرجو ألا يفهم من كلامى أن سخافه الصورة هى الغالبة على شعر بشار ،
فبالإضافة إلى ما فى قصائده الرائعة هناك عدد لا بأس به من الصّور المبدعة فى
القصائد الأخرى عنده ومن ذلك قوله :

وصاحب ضامننى وضمتُ له نفسى ليرضى فسراح يلتهبُ
وافق ظلمى حُلّوا فأعجبه والظلم حلّوا كأنه جرب (٤٣)

* * *

وظفل الحبيب أضنانى فويل لى إذا شتبا (٤٤)

* * *

إذا الملك الجبار صعر خدّه مشينا إليه بالسيف نعايُبة (٤٥)

* * *

أنتِ الأَمِيرَةُ فِي الهَوَى وَأَنَا المَسِيءُ المَذْنُوبُ (٤٦)

* * *

أنا سَعْدِي هَوَانِي بَعْدَمَا لَهَوْنَا بِهَا عَصْرًا نَخَفًا وَنَمَزْحُ
مَحَبِّينَ مَعْشُوقِينَ تَفَرَّقَ فِي الهَوَى مَرَارًا ، وَطَوْرًا نَسْتَقِلُّ فَتَسْبِيحُ ٢ (٤٧)

* * *

وَأَسَدِي لِرؤيْتِهِ سَجْدَةٌ يَدِينُ لَهُ النَّاسُكَ الأَجْلَحُ (٤٨)

* * *

فَادِعُ سَرَبِ المِلاَحِ يَشْهَدُنْ مَوْتِي بِحَنُوطِ . إِنِّي أَحِبُّ المِلاَحَا (٤٩)

* * *

وَذِي مَالٍ وَليْسَ بِذِي غَنَاءٍ كَرُبَّ الشَّيْخِ لا يَعْلُوهُ تَضَعُ (٥٠)

* * *

وَصاحبُ كَالذَّمِّ المِئِدُ

...

حَمَلْتُهُ فِي رَقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي (٥١)

* * *

إِذْ تَلْتَقِي حَلَقًا وَنَسْتَرْقِ الهَوَى سَرَقَ العَفَارِيثِ السَّمَاعَ مَذُودًا (٥٢)

* * *

مَا بِأَلِ حَمَادِ بْنِ نَهْيَا يَشْتَهِي مَوْتِي كَأَنِّي بِأَسْتَيْهِ بِأَسْوَرُ (٥٣)

* * *

كَيْكُرِ تَشْتَهِي لِذِيكَ النِّكَاحِ وَتَفَرَّقُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ (٥٤)

* * *

كَأَنَّ إِيرِيقْنَا وَالْقَطْرَ فِي فَمِهِ طَيْرٌ تَتَاوَلُ يَأْقُوتُنَا بِمَنْقَارِ (٥٥)

* * *

وَالشَّدى تَحْسِبُهُ وَسنانَ أَوْ كَسِلاً وَقَدْ تَمَائِلُ مَيْلاً غَيْرَ مَنْكَسِرِ (٥٦)

على أن من عيوب شعر بشار أيضا أن عددًا من قصائده الممتازة تعاني من هبوط بعض أبياتها ، وبخاصة في نهايتها ، إلى النثرية . ومن ذلك رائيته في مفاخرة الأعرابي الذي شمع بأنفه عليه في مجلس مجزأة بن ثور السدوسي ، إذ إن القصيدة كلها دمدمة وغبية وحجم بركانية وزلازل ، وفجأة يصفع عيوننا وأذاننا هذا البيت الذي حُتِّمَتْ به القصيدة ، وهو الفتور بعينه والنثرية مجسمة :

مُقامك بيننا دَكَّسْ عَلَيْنَا فليتك غائبٌ في حرّ نار (٥٧)

أكي هذا العصف والدمدمة ليحيى الشاعر في النهاية ويقول لمن مسح به الأرض ومرقه تمزيقا ثم رمى أشلاءه إلى الرياح الأربعة : يا ليتك لم تكن معنا وكنت في النار ؟ ومثل ذلك في الفتور والنثرية البيت الذي يسبق هذا البيت الأخير ببيت ، ونصه :

وتغدو في الكراء لنيل زادٍ وليس بسيد القوم المكاري
وفي رائيته التي تبتدىء بقوله :

حسبى بما لقيتُ يا عمر لم يأتى عن حبيتى خيرٌ

نراه بعد أن يصوّر في البيت التالي آلامه الثقال التي يقول إنها قد أشفت به على الموت لهجر معشوقته له وعدم وصول أى خير أو رسالة منها :

يا صاح قد أمسكت رسالتها فاجمع حنوطى . حتّام تنتظر ؟ (٥٨)

وهو ما لا زيادة بعده ، وكان ينبغي أن تُحْتَمَّ عنده القصيدة ، يقول إثر ذلك :

لا أستطيع الهوى وهجرتهُها قلبى ضعيف ، وقلبها حجر

فينزل بنا من حالق . ودعنا من قوله إنه لا يستطيع الهوى وهجرانها له ، وكأن الهوى وحده بلا هجران ، أو الهجران بلا هوى ، يمكن أن يكون عبثًا !
ومن الضعف والهمود في تلك القصيدة أيضا قوله :

أكاد من زفرة تباكرنى أطيرو فى الطير حين تبتكرُ

صحيح أنه يريد أن يقول إننى قد أصبحت من الضعف والضعف بحيث تكاد تطيرنى زفرتى . ولكن المضحك أنه يقول إنه يكاد أن « يطير فى الطير حين تبتكر » . والطير

بين تبتكر فتطير إنما تطير بحثًا عن رزقها ، فما علاقة هذا بذاك ؟ أفتراه سيطير
بعضها بحثًا عن حبة يقتاتها أو دودة يجلبها لصغاره التي خلفها وراءه في العش خصيصًا
يغيب الحواصل ؟

ومن الغثور في القصيدة كذلك هذا البيت الذي قاله بعد أن صورَّ قبله بكاءه
الشديد الذي أنزف دموعه وسهره المضنى الذي شف جسده حزنًا على غياب حبيبته عنه
ولامبالاتها به :

والله ما لى علم بما صنعت ولا أتانى من أهلها بشرُ
فضلاً عن هذا القَسَم الذى لم يطالبه به أحد !

وهذه المآخذ دليل على أنه لم يكن يبذل فى صياغته دائمًا الجهد المطلوب ، على
عكس ما يرى د. طه حسين .

وفى شعر بشار طائفة من الألفاظ الغريبة والحوشية . وهذا ممَّا يُفسده ، إذ
يغمض المعنى دون داع ، اللهم إلا الحذقة والرغبة فى إظهار بضاعته اللغوية
على حساب الوضوح والجمال . ومن الغريب الحوشى عنده « عجاجيج ، وعِرْزَام الفؤاد ،
والعَقَنْقَل ، واسلحِبَّ ، واحزَأَلتْ ، ولُبَاخِيَّة الأرداف ، والخَمَرْتَج ، والوِجَاح (جمع
« وَحَّ ») ، والعيَّهَم العَلَنْد ، والمُخَلَّنِكِس ، والمُسْتَنْطِج ، و « بِسَلَّ » (بمعنى
« متيِّم ») ، وقد تكررت (، ، ومُجْرَهْدَة ، والخَيْتَعُور ، والصاقور ، والصُّعُور ...
إلخ » . وليس هذا النوع من الألفاظ بمقصودٍ على أراجيزه ومدائحه بل إنك لو اجد
منها عددًا فى غزلياته .

وهذه الألفاظ الحوشية تبين أن ما قاله النقاد والقدماء عن أن بشارًا كان يصدر
فى نظمه الشعر عن طبع خالص لا تكلف فيه هو غير صحيح على إطلاقه .

وبالنسبة للقوافى الداخلية فإن الملاحظ أنها تندر فى شعر بشار كما بيَّنا من
قبل ، وهذا نقصٌ فى النغم الموسيقى عنده .

وبعد ، فهذه المعايير ليست بالشىء القليل . وهى تظهرنا على أن فيما قاله

المتحمسون من القدماء لبشار عن أستاذه وروعة شعره وأن أحدًا لا يلحق به مبالغةً وإسرافًا . كما تبين لنا أن الدكتور النويهى حين قدّم وحلّل نماذج من شعره فى كتابه « شخصية بشار » لم يعرض الصورة كاملة ، وإنما ركّز على الوجه المضى منها وعلى أجمل ما فيه من ملامح .

ولكننا نحب أن نجلى نقطة هامة هنا ، إذ قد أرجع د. نجيب البهيتى أحكام القدماء المغالية فى شعر بشار إلى الشعوية وإلى الخوف من لسانه الطويل (٥٩) . وقال بمثل قوله عن الدافع الشعوى د. مصطفى الشكعة ، الذى رأى فى أقوال القدماء المعجبين ببشار حملة دعائية واسعة وذكية (٦٠) . ويبدو لى أن الأمر غير ذلك ، فإن من بين من مدحوا شعر بشار الأعمى والجاحظ وأبا عمر بن أبى العلاء وابن المعتز ، وهؤلاء لا يمكن أن يتهموا بالشعوية . بل إن أبا عبيدة ، وهو الشعوى ، قد مدح كذلك شعر الحطيئة مدحا شديدا ، رغم أن الحطيئة بدوى ، والشعويون فى ردهم على العرب إنما يعيرونهم بعيش البادية الجلف الخشن ، وينسون تاريخ العرب بعد الإسلام ويرجعون القهقرى إلى الجاهلية ، التى عاش فيها الحطيئة صدر حياته وتمت له فيها موهبته الشعرية . أمّا دعوى د. نجيب البهيتى بأن ما قاله العلماء العرب تقرظا فى حق شعر بشار قد اختلقه الشعويون على أولئك العلماء فهى دعوى بلا دليل . والأفضل أن نقول إن إعجاب هؤلاء العلماء بالجميل الغاتن من شعره قد دفعهم إلى تعميم الحكم أو على الأقل قد حجب عنهم الجانب الآخر من الصورة . أو ربّما لم يقرأوا كل شعره ، إذ ينبغى ألا نظنّ أن كل ناقد أو لغوى عنده الوقت لقراءة كل إنتاج الشعراء والكتاب الذين يتحدث عنهم . وبالناسبة ، فمثل هذه الأحكام التعميمية التى تسودها المبالغة قد أُطلِقت من قِبَل العلماء والنقاد القدماء على كثير من الشعراء عربًا وعجمًا ، فليست هى إذن مقصورة على بشار ، ولا هى تواطؤ بين النقاد الشعويين .

أما تقسيم العقاد لشعره إلى قسمين : رصين بدوى ، ورقيق حضرى ، فهو

تقسيم صحيح ، إذ إن هناك فرقا واضحا بين أراجيز بشار ومدائحه من جهة وبين نزلياته وهجائياته من جهة أخرى . أما قوله إنه لا يمتاز من غيره من الشعر بغير لسان اللبq والقدرة على النظم والتعبير فهو حكم غير سليم ، لأن لشعر بشار خصائصه التى تسمه وتميِّزه عن غيره . وقد استخلصنا فيما سبق عدداً كبيراً من هذه السمات . وبالمثل فإن حكم العقاد على غزل بشار كله بالشهوانية هو حكم غير عادل ، فقد رأينا بشاراً فى كثير من شعره حريصاً على تأكيد أنه وحبيبته قد التزما العفاف ولم يكن منهما إلا الحديث والنظر ، أو على أكثر تقدير لم ينل منها إلا لمسةً أو قرصة مثلاً . كما رأينا فى كثير من هذا الشعر أيضاً التاوهات والآلام والشهاد وحرقة الأكباد والإشفاء على الموت ، وليس هذا من الشهوانية فى شىء . على أنى أود أن أبين أننى حين أقول هذا لا أدعى أن حب بشار كان هكذا فعلاً . كل ما فى الأمر أننى أرصد شعره وأفرز خيوط نسيجه ولا أتحدث عن سلوكه فى الحياة مع النساء اللاتى كان يعرفهن .

وإذا كان العقاد يفسر حبَّ بشار بأنه كان نزوعاً إلى مطلق الأنثى لا إلى امرأة بعينها فإن قصائد بشار المتعددة فى عبدة مثلاً تدل على أنه كان يحبها فعلاً لشخصها لا لمجرد كونها أنثى . وقد رأينا أيضاً من قبل كيف كان بشار يؤكد فى شعره لمن يحبها أنها هى التى تشغف قلبه وتملاً حياته وأن أية امرأة غيرها لا يمكنها أن تسد مسأها .

إنّ فى غزل بشار ، بلا ريب ، قدرًا من الفحش ، لكنه قليل فى ذاته وقليل أيضاً بالقياس إلى شعر كثير من الشعراء الآخرين . أما تأكيد حنا الفاخورى أن الكثير من شعر بشار قد أُثِّف عملاً لما فيه من فحش (٦١) فهو مجرد رجم بالغيب . ومن المؤكد أن حكم الدكتور شوقى ضيف على هذا الغزل كله بأن بشاراً قد « أماله نحو الإفصاح فى وضوح عن الغريزة النوعية إفصاحاً بثّ فيه كل ما استطاع من فحش وإثم

وفسق ، لا يتعرج ولا يراعى دينًا ولا خلقًا ، حتى ليصور جانبه الحيوانى الجشع ،
عامدًا إلى التفصيل أحيانًا ، وأحيانًا إلى الإجمال » (٦٢) هو حكم فيه قدر غير
ضئيل من المبالغة ، مثلما أن هناك قدرًا مثله من المبالغة فى قوله عن بشار
والمكفوفين بصفة عامة إنهم لكونهم لا يرون الجمال بأبصارهم بل يلمسونه بأيديهم يكون
غزلهم حسيًا ويتسع جشعهم الجسدى ويصبح شعرهم ضربًا من صياح الغريزة النوعية
الذى ينبو عن الذوق (٦٣) . إن الضرير ، مثله مثل البصير ، قد يحب بجسده ، وقد
يحب بروحه ، وقد يجمع فى حبه بين هذا وذاك . وتعميم القول على هذا النحو ظلم
كبير .

على أن د. شوقى ضيف يُرجع هذا الجشع الجسدى الذى ينسبه لبشار إلى سبب
آخر فوق ما ائْتلى به الشاعر من كف البصر . ألا وهو أن بيئته ، كما يقول ، كانت
« تكتظ بالجوارى والقيان ممن لا يعصمهن من الغواية دين ولا عرف » (٦٤) .
ويبدو أنه كانت فى حياة بشار بعض الجوارى كما تخبرنا الروايات التى أوردها
« الأغانى » ، لكننا نلاحظ أن الرجل فى شعره حريصٌ على تصوير حباته على أنهم
ريبات قصور ونعمة ، وتحف بهن الوصائف اللاتى يقمن بخدمتهن .

وقد رأينا فى غزل بشار الحوار بينه وبين حباته وصديقاتهن والقصص التى
يحكى فيها لقاءاته بهن . كما وجدنا عنده الرسائل العاطفية إمّا مستقلة بالقصيدة
جمعاء أو متضمنة فيها ، مثلما وجدنا عنده تدليل الحبيبة والتضرع أمامها ومناداتها
بـ « يا عينى » و « يا قرّة عينى » و « يا شقة نفسى » و « يا روحى » و « يا
أميرتى » ... إلخ ، بل وتصويرها على أنها معبودته ، فتارة هى ربّه ، وتارة هى
صنمه ، وثالثة يسجد أمام فتنّتها . ولعله أيضا أول من ذكر فى شعره أن حبيبته كن
يشاركه شرب الراح . وهذا كله غير انفراده بتشبيه حديث حبيبته بالرياض المزهرة أو
التياب الموشاة الملونة ، أى تشبيه المسموعات بالمرئيات ، وكذلك انفراده بالتظاهر بطاعة

خليفة فى الالتزام بعدم التعرض للغزل ثم التشييب بالنساء فى نفس الوقت . ثم إنه فرد كذلك بتكرار الكلام عن دور الأذن والقلب فى عملية الحب . وذلك نابع من عماه تعرض الناس له بالسؤال المستغرب عن كيفية إمكان وقوعه فى الحب دون أن يرى . هذا كله يجعل لشعره مذاقاً خاصاً حتى لو تشابه فى بعض جوانبه مع بعض من سبقه عمر بن أبى ربيعة مثلاً .

وإذا كان أبو نواس قد هاجم فى بعض مطالع قصائده الوقوف على الأطلال كذلك مطيع بن إياس (ولكن إلى حدّ قليل) فقد سبقهما بشار إلى شىء من هذا ، كما لم أجد أحداً قد نَبّه من قبل عليه . أليس هو القائل :

كيف يبكى لمحبس فى ظلّول من سيُفْضَى لمحبس يوم طويل ؟

إن فى الحشر والحساب لشغلا عن وقوف بك رسم مُحيلٍ (٦٥) ؟

إن كان استنكاره الوقوف على الإطلال إنما هو لحساب البعث والحشر لا لحساب الخمر كما هو الحال عند أبى نواس .

على أننا لا نقول إن بشاراً هو أول من دعا إلى نبذ الوقوف على الأطلال ورسوم

الديار ، فقد قال حسان بن ثابت من قبله يرثى عثمان رضى الله عنهما :

يا للرجال لدمع هاج بالثَّنَنِ لقد عجتُ لمن يبكى على الدَّمَنِ

كمال قال الكميت بن زيد :

طرِيتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لعباً منى ، وذو الشيب يَلْعَبُ

ولم تلهنى دار ولا رسم منزلٍ ولم يطررنى بنان مخضبُ

صحيح أنه لم يدع غيره إلى نبذ الوقوف بالرسوم والأطلال ، إلا أن إعلانه عن انشغاله عنها هو خطوة واسعة على نفس الطريق .

وثمة إشارة أخرى عند بشار إلى عدم البكاء أمام الأطلال ، وإن كانت عن

صاحبٍ له لم يعرف الحب إلى قلبه سبيلاً

حاف عن البيض إذا ما غدا لم يبك فى دارٍ ولم يطرِبِ (٦٦)

ومن قبلُ نجد للأعشى هذا البيت الاستنكارى :

ما بكاء الكبير بالأطلالِ وسؤالسى وما يُرَدُّ سؤالسى ؟
ولرؤية أيضا هذا البيت :

يا صاح ، ما شاقك من رسمِ خالٍ ودمنة تعرفها وأطلالٍ ؟
كذلك سبق بشارٌ مسلمَ بن الوليد فى الرحلة إلى الممدوح على ظهر سفينة
صوّرها تصويرًا ملغزًا مثلما فعل بعده مسلم . ولم يصنع ذلك مرة بل أكثر (٦٧) .
وقد عدّه د. حسين عطوان رائد وصف الرحلة إلى الممدوح فى سفينة (٦٨) .
وقد خلط بشار الغزل بالثناء (٦٩) ، والغزل بالهجاء والمدح (٧٠) . وذلك
قليل فى الشعر العربى .

ولبشار أيضًا قصيدة فى وصف شاة عجفاء أُهديت إليه فأصبحت عبثًا عليه ،
وفى السخرية ممن أهداها له (٧١) ، مما سبق به ابن الرومى والحمدونى (٧٢) . وله
كذلك بيتان فى وصف قباء خاطه له حائك اسمه عمرو (٧٣) سبق بهما الحمدونى
ناعت الطيلسان .

كما رأيناه يربط نفسه بالملوك متحتيًا لهم ، أو مساميًا إياهم ، أو ذاكراً
بصريح العبارة أنه منهم . وهذا مما يتفرد به فى حدود علمى .

الهوامش

- ١- انظر ديوان أبي نواس / تحقيق إيفالد فاجنر / لجنة التأليف والترجمة والنشر / اهرة / ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م / ٢ / ١٣ - ١٤ .
- ٢- انظر « الأغاني » / ٢ / ١٤٤ .
- ٣- الحيوان / ٤ / ٤٥٤ ، ٤٥٧ .
- ٤- ابن قتيبة / الشعر والشعراء / ٢ / ٧٥٧ .
- ٥- طبقات الشعراء / ٢٣ .
- ٦- السابق / ٢٤ .
- ٧- نفسه / ٢٦ .
- ٨- نفسه / ٢٨ .
- ٩- انظر « الأغاني » / ٣ / ١٤٧ .
- ١٠- الموشح / ٣٩٢ .
- ١١- السابق / ٣٩٠ .
- ١٢- انظر « الأغاني » / ٣ / ١٥٥ - ١٥٦ ، ١٩٦ .
- ١٣- السابق / ٣ / ١٥٦ ، والموشح / ٤٠٨ - ٤٠٩ .
- ١٤- الأغاني / ٣ / ١٩٦ - ١٩٧ .
- ١٥- العقاد / مراجعات في الآداب والفنون / ١١١ .
- ١٦- السابق / ١١٧ - ١١٨ .
- ١٧- نفسه / ١٢٥ .
- ١٨- نفسه / ١٤٠ .
- ١٩- حديث الأربعة / ٢ / ١٩٧ - ١٩٨ .
- ٢٠- السابق / ٢ / ١٩٨ .
- ٢١- نفسه / ٢ / ٢٠١ - ٢٠٢ .
- ٢٢- نفسه / ٢ / ٢٠٣ - ٢٠٤ .

٢٣- نفسه / ٢ / ٢٠٤ - ٢٠٦ .

٢٤- نفسه / ٢ / ٢٠٧ .

٢٥- نفسه / ٢ / ٢٠٨ - ٢١٠ .

٢٦- الديوان / ١ / ١٠٢ .

٢٧- ١٠٥ / ١ .

٢٨- ١ / ١٤٦ . ولا ينفى طرافته ما سبق إليه الوليد بن يزيد مثلاً ، إذ قال :

أُمُّ سَلَامٍ ، مَا ذَكَرْتُكَ إِلَّا شَرِقَتْ بِالدموعِ مِنَ المَأْقَى

فلن هذه الصورة لم تنتشر في الشعر العربي وتُبْتَدَلُ ككثير من الصور الأخرى .

٢٩- ١ / ١٩٣ .

٣٠- مقدمة الديوان / ١ / ٧٥ .

٣١- الديوان / ١ / ١٦٠ .

٣٢- انظر هامش رقم ٣ بنفس الصفحة .

٣٣- الديوان / ٣ / ٢١ .

٣٤- ٢ / ٢٤٨ .

٣٥- ٢ / ٢٠ .

٣٦- ٢ / ٢١ .

٣٧- ٢ / ٢٤٨ .

٣٨- ١ / ١٧٢ .

٣٩- ٢ / ٦١ .

٤٠- ٢ / ٥٠ .

٤١- ٢ / ١٧٢ . ويرى الدكتور النويهي أن « البقة » عنا هي البعوضة . ولا أدري

لماذا اختار هذا المعنى ولم يختار المعنى الشائع لهذه الكلمة ، وهو « البقة » كما نعرفها كلنا ،

وبخاصة أنه الأليق بالسياق . انظر « شخصية بشار » / ص ١٨٩ .

٤٢- انظر كتابه « القويم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي من بشار إلى ابن

تتبع « / مطبوعات جامعة الكويت / ١٧٩ .

٤٣- الديوان / ١ / ١٩١ .

٤٤- ٢٠٣ / ١ .

٤٥- ٣١٧ / ١ .

٤٦- ٣٦٠ / ١ .

٤٧- ١٠٦ / ٢ .

٤٨- ١٠٨ / ٢ .

٤٩- ١٢٣ / ٢ .

٥٠- وهي من أبدع الصور رغم بذامتها . ١٤٧ / ٢ .

٥١- ٢٢٤ / ٢ .

٥٢- ٢٥٩ / ٢ .

٥٣- ٢٩٥ / ٣ .

٥٤- ٣٢ / ٤ .

٥٥- ٦١ / ٤ .

٥٦- ٨١ / ٤ .

٥٧- ٢٣٢ / ٣ .

٥٨- ٢٦٥ / ٣ .

٥٩- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري / ٣٣٦ .

٦٠- الشعر والشعراء في العصر العباسي / ١٠٠ - ١٠١ .

٦١- انظر كتابه « تاريخ الأدب العربي » / ٣٧٤ .

٦٢- العصر العباسي الأول / ٢١٧ - ٢١٨ .

٦٣- السابق / ٢٠٧ ، ١٧٦ - ١٧٧ .

٦٤- نفس المرجع والصفحة . وانظر كذلك د . سيد حنفي حسنين ، الذي يشاركه الرأي

في هذه النقطة (يشار بن برد - دراسة في النظرية والتطبيق / ١٦٧ - ١٦٨) . ومن قبلُ قال

العقاد ذلك (انظر كتابه « شاعر الغزل » فى « مجموعة أعلام الشعر » / دار الكتاب العربى / بيروت / ط ١ / ١٩٧١ م / ٦١) .

٦٥- الديوان / ٤ / ١٥٢ .

٦٦- ١ / ١٤٦ .

٦٧- انظر الديوان / ١ / ١٤٧ - ١٤٩ ، و ٣ / ٢٨٠ - ٢٨١ مثلا .

٦٨- انظر كتابه « الشعراء من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية » / دار المحتسب

ودار الجيل / ١٩٧٤ م / ٤٨٧ .

٦٩- سبق دريد بن الصمة والشماع إلى إستهلال الرثاء بالنسيب . انظر ابن رشيق /

العمدة / أمين هندية / ط ١ / ١٩٢٥ م / ٢ / ١٢١ ، صلاح الدين الهادى / الشماع بن

ضرار الذبياني - حياته وشعره / دار المعارف / القاهرة / ٢٦٢ .

٧٠- انظر الديوان / ١ / ١٢٨ ، ١٣٣ ، ٢٧ ، ٣٥٨ ، ٢٦٤ ، و ٢ / ١٧ - ١٨

٦٢ - ٦٥ ، ٧٢ - ٧٣ ، ٧٩ - ٨٠ ، ١١٠ - ١١١ ، و ٣ / ١١٦ ، ٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٦ .

هذا ، وتبتدىء بعض النقائص بالنسيب ثم تأخذ فى الهجاء . ولاين الرومى أبيات فى تعليق بدء

بعض قصائده بالنسيب ثم الخروج منه إلى الهجاء مفادها أنه يريد أن يأتى هجاءه مفاجئا قائلا

كالصاعقة بعد الغيث . وهذه هى الأبيات :

لم تر أنتى قبل الأهاجى أقدم فى أوائلها النسيب

ليخترق المسامع ثم يتلو هجانى محرقا يكوى القلوبا

كصاعقة أتت فى إثر غيث وضحك البيض تتبعه النحيبا ؟

٧١- ٤ / ١٣٠ - ١٣٣ .

٧٢- ولست أقصد مع هذا أن لبشار السبق فى ذلك ، فإن لمعن بن أوس المازنى مثلا ،

وهو من الشعراء المخضرمين ، أبياتا فى التهكم باین الزبير لاهماله الضيفان طوال اليوم ثم تقديمه

لهم فى آخر النهار تيسا هزليا قال فيه معن ضمن الأبيات المذكورة :

رمانا أبو بكر وقد طال يومنا بتيس من الشاء الحجازى أعفر

وقال : « اطعموا منه » ، ونحن ثلاثة وسبعون إنسانا . فيالقوم مخبر

فقلت له : لا تقرنا ، فأماننا
وكن آمنة ، وانعق بتيسك ، إنه
٧٢- وهذن هما البيتان :

خاط لي عمرو قبا
قلت بيتا ليس يُدري
ليت عينه سوا
أمدىح أم هجوا
(الديوان / ٤ / ٩) .

المصادر والمراجع

- * القرآن الكريم .
- * د . إبراهيم عوض / من ذخائر المكتبة العربية / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .
- * د . إبراهيم عوض / لغة المتنبي - دراسة تحليلية / مطبعة الشباب البحر ومكبتها / ١٩٨٧ م .
- * ابن الأثير / الكامل / دار الكتاب العربي / بيروت / ط ٣ / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- * ابن رشيقي / العمدة / أمين هندية / ط ١ / ١٩٢٥ م .
- * ابن سيده / شرح مشكل أبيات المتنبي / تحقيق محمد حسن آل ياسين / دار الطليعة / بيروت / ط ١ .
- * ابن قتيبة / الشعر والشعراء / تحقيق أحمد محمد شاكر / دار المعارف .
- * ابن المعتز / طبقات الشعراء / تحقيق عبد السلام أحمد فراج / دار المعارف / ط ٢ .
- * ابن النديم / الفهرست / تحقيق رضا - تجدد / طهران / ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- * أبو نواس / ديوان أبي نواس / تحقيق إيغالدا فاجنر / لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ١٣٧٨ م - ١٩٥٨ م .
- * د . أحمد كمال زكي / الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري / دار المعارف .
- * الأصفهاني / الأغاني / مؤسسة جمال للطباعة والنشر / بيروت (مصور عن طبعة دار الكتب) .
- * بشار / ديوان بشار / تحقيق محمد الطاهر بن عاشور / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .
- * البغدادي / الفرق بين الفرق / مكتبة أنس بن مالك / ١٤٠٠ هـ .
- * د . توفيق الفيل / القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي من بشار إلى ابن المعتز / مطبوعات جامعة الكويت .
- * الجاحظ / البيان والتبيين / دار الفكر للجمع / ١٩٦٨ م .

الجاحظ / الحيوان / تحقيق عبد السلام هارون / مصطفى البايى الحلبى / ط ٢ / ١٣٨٥ هـ
١٩٦٦ م .

جرجى زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية / تعليق د . شوقى ضيف / دار المعارف .

د . جميل أحمد ظفر / النحو القرآنى / قواعد وشواهد / مطابع الصفا / ١٤٠٨ هـ -
١٩٧٧ م .

حسين عطوان / الشعراء من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية / دار المحتسب ودار
بيل / ١٩٧٤ م .

حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى / المطبعة البولسية .

الزركلى / الأعلام .

سحيم / ديوان سحيم / تحقيق عبد العزيز الميمنى / دار الكتب المصرية / ١٣٦٩ هـ -
١٩٥٥ م .

سيد حنفى حسنين / بشار بن برد - دراسة فى النظرية والتطبيق / دار الثقافة للطباعة
إلنشر / القاهرة / ١٩٧٨ م .

السيوطى / همع الهوامع - شرح جمع الجوامع / دار المعرفة / بيروت .

الشافعى / الرسالة / تحقيق أحمد محمد شاكر / مكتبة التراث / القاهرة / ط ٢ /
١٣٩٠ هـ .

د . شوقى ضيف / العصر الإسلامى / دار المعارف / ط ٧ .

د . شوقى ضيف / العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٦ .

د . شوقى ضيف / الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / دار المعارف / القاهرة / ط ٨ .

صلاح الدين الهادى / الشماخ بن ضرار الذبيانى - حياته وشعره / دار المعارف / القاهرة .

الطبرسى / مجمع البيان فى تفسير القرآن / مكتبة الحياة / بيروت .

د . طه حسين / حديث الأربعة / دار المعارف / ط ١٣ .

عباس محمود العقاد / مراجعات فى الآداب والفنون / دار الكتاب العربى / بيروت /

١٩٦٦ م .

- * عباس محمود العقاد / شاعر الغزل (فى « مجموعة أعلام الشعر » / دار الكتاب العربى / بيروت / ط ١ / ١٩٧١ م) .
- * د . عبد الفتاح صالح نافع / الصورة فى شعر بشار / دار الفكر / عمان / ١٩٨٣ م .
- * د . عبده بدوى / الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٣ م .
- * د . عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- * القلانسى / إرشاد المبتدى وتذكرة المنتهى فى الإقرارات العشر / تحقيق ودراسة عمر حمدان الكبيسى / جامعة أم القرى / مكة المكرمة / ط ١ .
- * د . محمد زكى العشماوى / موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى / دار النهضة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ١٩٨١ م .
- * د . محمد عبد العزيز الكفراوى / الشعر العربى بين الجمود والتطور / دار نهضة مصر / القاهرة / ط ٢ .
- * د . محمد نبيه حجاب / معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسى الأول / دار المعارف / ط ٢ / ١٩٧٣ م .
- * د . محمد النويهى / شخصية بشار / دار الفكر / ط ٢ .
- * المرتضى / أمالى المرتضى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / عيسى البابى الحلبي / ط ١ / ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٤ م .
- * المرزبانى / الموشح / تحقيق على محمد البجاوى / دار نهضة مصر / ١٩٦٥ م .
- * د . مصطفى الشكعة / الشعر والشعراء فى العصر العباسى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٦ / ١٩٦٨ م .
- * المعرى / رسالة الغفران / دار صادر / بيروت .
- * د . نجيب محمد البهيتى / تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى / دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٩٨٢ م .

الوليد بن يزيد / شعر الوليد بن يزيد / جمع وتحقيق د. حسين عطوان / مكتبة الأقصى /
ان / ط ١ / ١٩٧٩ م .

ياقوت الحموي / معجم البلدان .

يوسف الصميلي / بشار بن برد - شخصيته ومنهجه الشعرى / دار الوحدة / بيروت .

* André Miquel , La Littérature Arabe , " Que sais-je " (no. 1355) , Paris .

* Beaston , Selections from the Poetry of Bassar , Cambridge University Press
1977 .

* Encyclopaedia of Islam , 1st ed .

* R. A. Nicholson , A. Literary History of the Arabs , Cambridge University
Press , 1979 .

الفهرس

٥	الإهداء
٦	مقدمة
٨	حياة الشاعر وشخصيته
٢٢	عقيدته
٨٦	بشار والشعبوية
الملامح الفنية لشعر بشار	
٩٣	سمات الغزل عنده
٢٩٠	بعض سمات المديح عند بشار
٣٠٢	افتخار بشار بشعره
٣١٦	بعض ملامح الهجاء عند بشار
٣٢١	وصف الخمر عند بشار
٣٢٧	من شعر الحكمة عند بشار
٣٣٥	سمات متفرقة في شعر بشار
٣٨٧	ملاحظات لقوية على شعر بشار
٤٠٠	تحقيق نسبة القصيدة الثائية في عبدة
٤٠٦	الرأى في شعر بشار
٤٢٨	المصادر والمراجع